

حكاية الأب الحزين

رواية

غيداء الغميز



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital
Publishing
Program
برنامج
النشر
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

حكاية الأب الحزين

رواية

غيداء الغميز

للتواصل مع المؤلفة:

تويتر: Galghumiz@

Email: ghaida.alghumiz@gmail.com

تصميم الغلاف: رفعة العجمي

تويتر وانستقرام: @rmjmi

حكاية الأب الحزين

إذا أردت أن ينصت الجميع إليك، اروي حكاية !

غيداء

هذه الرواية تدور حول قصة، وبالتالي هي تختلف عن الروايات التي تدور حول قضية من القضايا، أو حول حدث واقعي.

كل ما يُروى هنا لا يمثل جنسية أو فئة أو مجتمعاً معيناً، وكل ما يُنسب إلى أبطال الرواية، من أفعال أو أفكار أو كلمات، يُنسب إليهم وحدهم، موقوفاً عليهم.

الفصل الأول:

« لَمْ يَ »

(1)

14 صفر 1437هـ

دخلت الظهيرة، وتوسطت الشمس في قلب السماء، وانطلق صوت الأذان يصدح في الأفق، يتدفق من المئذنة القريبة إلى غرفتك، ليملأ فضاءها الواسع، ويبدد وجه الهدوء. أخذ الصوت يعلو شيئاً فشيئاً، ومضى يحوم حول أذنيك، وينفذ عميقاً، ليخترق رأسك المشحون بالنوم والخمول.

أخذت تتقلب في فراشك دافئاً رأسك تحت وسادة بيضاء، ثم واصل الصوت جريانه وتدفقه، حتى تحول إلى شظايا حادة، شظايا تخترق الوسادات وأغطية النوم، والرؤوس الغارقة في الأحلام. بدا لك، أن مواصلة النوم في غرفة تلتصق نافذتها بمئذنة المسجد ضرباً من ضروب المستحيل، فاستيقظت متأففاً متضجراً، ومضيت تحك شعرك المبعثر وجسدك العاري، والنعاس يُغرق عينيك.

لم تكن، يا فيصل، تلقي بالألذات الذي يسمونه (صلاة)، ولم يكن هذا (الشيء) يوماً، جزءاً يحتل حيزاً من تفكيرك واهتماماتك. أصبحت لا تتذكر إلا طريقة الوضوء، ولا تحفظ، من أذكار الصلاة، إلا صيغة الأذان الذي تتشبع جدران غرفتك وأرجاؤها بصوته خمس مرات في اليوم.

نهضت من سريرك متثاقلاً، لم يمض وقت طويل منذ أن خلدت إلى النوم، وما زال جسدك مغموراً بسكرته وخموله. كيف لو تذكرت أن هناك ثلاث صلوات متبقية، واثنان منهما جهريتان؟ أطلقت تنهيدة عميقة، ثم أدركت أنه لا جدوى من محاولة النوم هنا، وأخذت تفكر طويلاً في حل.

سرعان ما سلك التفكير طريقاً آخر، وتداعت في خيالك تفاصيل تلك الليلة، التفاصيل الموهلة بالخوف والألم. منذ تلك الليلة وأنت طريح فراشك، تُصارع أفكاراً وخيالات

سوداوية، تستعيد من ذكرى لحظة أوشكت فيها أن تُزج في سيارات الشرطة وتغيب في أعماق السجون، وتخالجك مشاعر الخوف، الرعب، الارتباك، طازجة كما كانت في أوانها.

منذ تلك اللحظة وأنت غارق في عمق دوامة من الاكتئاب لا طرف لها ولا نهاية، وكلما شرعت في التفكير، تداعت في خيالك صور تلك الحارة المظلمة التي ركنت سيارتك في أولها، وتلك اللحظة، التي رأيت فيها باب استراحتك الحديدي مفتوحاً، تصطف أمامه سيارة بيضاء كبيرة، وثلاث سيارات للشرطة. تتذكر كيف كانت الأضواء الحمراء والزرقة منعكسة على الجدران، وكيف كنت تسمع صراخ أصدقائك وبكاءهم واضحاً يصم أذنيك، وكيف كان رنين الصفارات يدوي في الفضاء، مبدداً سكون الليل.

لطالما كانت الاستراحة هي المكان الوحيد الذي تذهب إليه كلما شعرت بالملل، كلما اشتقت لأصدقائك، كلما تشاجرت مع والدك وضقت بك جدران المنزل، لا تجد مكاناً تلوذ إليه، ويحتويك، إلا هو. وبعد تلك الليلة، ما عاد قلبك يطمئن إليها كما كان، وما عدت تراها إلا بصورتها المخيفة التي رافقت ذلك اليوم.

سحبت نفساً طويلاً، وبالكاد استطعت طرد هذه الذكريات المشؤومة. وبعد دقائق طويلة تجاسرت، وقررت أن تستجمع قواك لتذهب مجدداً، إلى المكان نفسه.

لن تكون الشرطة موجودة كما كانت تلك الليلة، ولن تضطر لمداهمة المكان مجدداً ما دمت قد أفرغت كل الخزائن الموجودة في الاستراحة من سجائر الحشيش وزجاجات الخمر. ابتسمت ابتسامة صغيرة، ومنذ أن اقتنعت بهاتين الحقيقتين، شعرت بالطمأنينة تربت على صدرك.

نهضت لتغسل وجهك الناعس بالماء البارد، وشرعت في لملمة أغراضك، علبة السجائر في المقدمة، هاتفك، المفاتيح، ومحفظة (أرمانى) السوداء، تدسها في جيبيك.

حين ركبت السيارة، انطلقت تسير بسرعة متوسطة، ولم تكن تجيد القيادة مثلما تجيد الصراخ وإلقاء الشتائم على العابرين. لمحت أحدهم يعبر الشارع، وحين انتبهت إلى هيأته وثوبه البني، وغترته البيضاء التي يربطها على رأسه، أخرجت رأسك، وانطلق لسانك مثل أفعى .

يمني، زيدي، حوثي، والألقاب تطول. كنت الوحيد الذي يعرف تماماً كيف يصوب كلماته إلى المواطن الأكثر حساسية في عمق كل قلب، ثم يحورها لتصبح شائكة ومهينة، ويسدها فتصيب قلب الهدف كما لو كانت تحفظ طريقها تماماً إليه.

لم يكن إيذاء العابرين أكثر من هواية تقطع ملل الطريق، كنت تمارسها مثلما تمارس الدندنة بخفوت، وتمنحك شعوراً مريحاً وانتصاراً لذيذاً في كثير من الأحيان. عدت

لتسترخي مجدداً على مقعدك، قاطعاً طريقاً طويلاً، وبعد مسير يقارب الساعة، بدأت تخرج عن البنيان إلى طريق صحراوي طويل، خال من السيارات، مُعبد، وتغطيه بعض ذرات الرمال، كان بالكاد يرى. رأيت الغيوم البيضاء تتكاثف بهدوء حاجبة أشعة الشمس، وشعرت برعشة خفيفة من البرد تسري بجسدك، ما إن بدأت تفارق البنيان.

سلكت ممراً ترابياً بعد نصف ساعة، يؤدي في نهايته إلى مجموعة من الاستراحات المتناثرة بعشوائية، والتي بقيت مهجورة منذ وقت طويل. كان نهارها مثل ليلها، هادئاً جداً، يخلو من أي همس أو نفس، وكان التجول في تلك المنطقة البعيدة، يشبه الطواف بين القبور، مريب جداً، إلى الحد الذي تسمع فيه صوت زفيرك.

بين ممر وآخر، كنت تسير بهدوء، بهال خال من أي فكرة، وجسد مسترخٍ في سكون. فجأة، انتبهت إلى شيء، شيء أسود في أحد الممرات، شيء يمشي، يشبه الجسد، ولم تسعفك اللحظة لتتمعن في ملامح هذا الجسد الغريب.

توقفت في أجزاء من الثانية، اندفع جسدك بقوة نحو الأمام، ثم اعتدلت في جلوسك، ونظرت إلى الورا بعينين مفجوعتين. ما هذا الشيء؟ تساءلت، ثم شعرت لوهلة بأنك تنوهم، وأن عصافير النعاس لا تزال تحوم.

هل كان رجلاً؟ ولكنك رأيت قامة بالغة القصر، وجسداً يغطيه السواد، من رأسه إلى أخمص قدميه. أيقون شبهاً، أم محض خيال؟

رجعت إلى الورا ببطء، وشيئاً فشيئاً، ظهر الجسد نفسه، الجسد القصير الذي كان يمشي في الممر ببطء، ملتصقاً بالجدران.

كانت فتاة صغيرة، اكتشفت أن هذا السواد الذي لمحتة لمحة البرق لم يكن سوى ظهرها النحيل الذي تغطيه عباءة سوداء.

انعطفت بهدوء سالگًا الممر، وحاولت أن تقترب منها أكثر. بدأت تسير بسيارتك ببطء، بسرعة تقارب الصفر، وحين أمعنت النظر، لاحظت أن رأسها مكشوف، وأن شعرها القصير ينسدل على ظهرها وكتفها. لاحظت أنها انتبهت لصوت سيارتك فالتفتت، والتقت عيناها بعينيك، قبل أن تتفاجأ بأنها طفلة.

بيضاء كانت، ترتدي عباءة بالية تشبعت بالغبار، وشعرها بني، ينسدل على كتفها. لم تترك لك فرصة لمزيد من التأمل، أدركت من نظراتك المتفحصة أنك تتربص بها شراً، فابتعدت لتلتصق بالجدار، ووقفت بسكون، مخبئة يديها خلف ظهرها. لم يدم سكونها طويلاً، رأتك تغادر السيارة، تقترب منها أكثر، فشهقت بقوة، ورفعت ذراعيها النحيلين نحو وجهها، كأنها

تحتمي بنحولها، وحين اقتربت أكثر، سمعت منها شهقة أكبر: "لاااا" قالت، بصوت أقرب إلى البكاء، وراحت تبكي.

قطبت حاجبيك مستنكراً، انحنيت إليها، ثم سألتها بلطف:

- عزيزتي، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أنزلت ذراعيها قليلاً، ظهرت عيناها البنيتان، وقد شكلت الدموع فوقها أغشية شفافة، تحجب عالماً من البراءة ودفء الطفولة.

- أنا تائهة.

- تائهة! كيف؟ من كان معك؟

أبعدت ذراعيها، وخبأتها خلف ظهرها. ومن غير أن ترفع عينيها إليك، قالت، بتردد:

- جاءت أسرتي إلى هنا، كنا، كنا في نزهة، ثم احتجت دورة المياه، نزلت عند أحدها، وحين خرجت، لم ...، لم أجد أحداً.

تعجبت لكلامها، وشرعت محاولاً تذكر ما إذا كانت هناك دورات مياه قريبة أو محطات. ولكنك تأتي إلى هذا المكان مرة أسبوعياً، تحفظ ممراته مثل تشعبات عروق يدك، كيف يمكن أن يفوتك شيء ملحوظ كهذا؟ وقبل كل شيء، من يمكن أن يختار مكاناً كهذا للنزهة؟

اقتربت برأسك نحو رأسها الصغير، سألتها بتعجب:

- وكيف وصلت إلى هنا؟ هل كانت دورة المياه قريبة؟

لم تسمع لها ردّاً، كانت تنظر إليك بخيفة، شفتاها ترتعشان.

- اسمعي، ما رأيك أن تأتي معي؟ سأتصل بوالدك.

ما زالت تنظر إليك النظرات ذاتها. صلبت ظهرك، ومددت يدك محاولاً لمسها، فانتفضت، وصرخت صرخة أفزعتك كثيراً، فجأة، رأيت البكاء يخط أولى علاماته على محيّاها، احمرار العينين، لمعانها، تقوس الشفتين وارتعاشهما. أثارت عيناها شيئاً بداخلك، فخاطبتها، بلهجة بالغة الحنان:

- صغيرتي، اسمعيني، لا بد أن نفعل شيئاً، لا أستطيع تركك هنا وحيدة، تعالي معي هيا.

مددت كفك نحوها، فرأيتها تتأمل بعينين خائفتين تضاريس تلك الكف العريضة، شعيراتها السوداء، وعروقها البارزة. بدأت تحوّل نظراتها بين كفك الممدودة ووجهك الغريب، وبين عينيك الحادثتين، وحاجبيك المعقودين. كيف يمكنها أن ترى في هذا الوجه الحنطي الغريب والملامح الحادة أماناً وراحة؟ كانت خائفة، فابتسمت لها، أرخيت ملامحك، علّ هذه الصغيرة ترى فيها أماناً، وشيئاً من طمأنينة.

بصوتك المرتخي، ونبرتك الحنونة الهادئة، خاطبتها:

- اطمئني، لن أفعل بك شيئاً. انظري، المكان موحش، لا أظن أن البقاء معي أكثر وحشة.

مجدداً، لم تسمع لها صوتاً. هذه الفتاة لا تستجيب، ومحاولاتك لا تجدي نفعاً. بدأ صبرك ينفد، وسرعان ما خطرت في بالك فكرة.

- حسناً، فلتبقي هنا مع الذئب، أنا سأذهب.

هممت بالمسير، وقبل أن تخطو خطوة واحدة، جاء صوتها مرتجفاً:

- لحظة!

التفتت إليها، فسألتك بريية:

- إلى أين ستأخذني؟

- لا تخافي سأحاول مساعدتك، هيا اتبعيني، المكان خطير.

مشيت مُبتسماً إلى السيارة، وقبل أن تركب، رأيتها تقف مترددة، تحكم لف عباؤها حول جسدها الصغير، ثم تسير ببطء، مطرقة رأسها. لاحظت أن قدميها حافيتان، فرفعت حاجبيك بتعجب، وتساءلت بدهشة، ما قصة هذه الفتاة؟

ركبت في مقعدك، فيما توجهت هي إلى المقعد الخلفي، خلف باب الراكب مباشرة. فجأة، وجدت يدك تمتد، بلا شعور منك، لتضغط الزر الخاص بإقفال الأبواب الخلفية. كانت يدك تشبهك، تعرف تماماً كيف تقتنص الفرص العظيمة.

صارت تحاول مراراً فتح الباب، وحين عجزت، بدأت تطرق زجاج النافذة، ولم تشأ أن تفتح لها سوى الباب الأمامي.

- الأبواب الخلفية تحتاج إلى إصلاح، تعالي في المقعد الأمامي.

مشث بتردد، وقفتُ أمام الباب، أحكمتُ إغلاقَ عباؤها جيداً، ثم جلست عن يمينك، على طرف المقعد، وقريباً جداً من الباب. حين شعرتُ بقربها اعتدلتُ في جلوسك، وخاطبتها مبتسماً، وأنت تخرج هاتفك من جيبك:

- قلبت لي أنك خرجت ولم تجدي أحداً، صحيح؟ الأرجح أن والدك نسيك، هل تعرفين رقمه؟

نظرتُ إلى الأرض، ثم غطت عينيها بيدها اليمنى، وراحت تبكي.

مضت دقيقتان كنت لا تسمع فيها سوى أنين متواصل، ينخفض ويعلو، تقطعه شهقات مكتومة. كانت تحاول بيدها اليمنى تغطية وجهها الأحمر الذي بدا واضحاً لك، فيما كانت اليسرى مدفونة في حضنها، مقبوضة الأصابع.

تركتها تبكي وسط ذهولك الهائل، ثم رأيتها تمسح دموعها بأصابعها، وتشيح بوجهها إلى النافذة. ترددت في سؤالها، لا تدري ما الذي أبكاها فجأة، نظرتُ إلى ساعتك الكحلية التي تزين معصمك القمحي، كان قد تبقى على صلاة العصر ما يوازي النصف ساعة. بللت شفتيك بحيرة، وسألتها:

- ما بك؟

- لم أحفظ الرقم.

- ولا رقم والدتك؟

هزت رأسها نافية، وعادت تنظر إلى النافذة. كانت يدها البيضاء المرترجة تغريك للمسها، والضغط عليها، وإحالة رعشاتها المتكررة إلى سكون وارتخاء. لم تصبر طويلاً، مددت يديك محاولاً لمسها، ولكنها انتبهت لحركتك فسحبت يدها بسرعة، لتضمها إلى صدرها بخوف. لم تكن تنوي إخافتها، ولكنها التصقت بالباب، وانهمرت دموعها أكثر.

- أعوذ بالله! لا تلمسني!

أعوذ بالله! هل تستعيذ منك؟ نظرتُ إليها بدهشة، وتذكرتُ موقفاً مُشابهاً، بل عدة مواقف متماثلة. تذكرتُ فتاة المطعم، فتاة المجمع، فتاة الطريق، التي رأيتها بعد فترة طويلة في الاستراحة، تزحف منك إلى الوراء بملابس شبه مقطعة. رغم اختلاف الشخص، كان الرد، قبل شروعك في الالتهام، واحداً: (أعوذ بالله منك).

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يُستعاذ فيها منك، أصبحت تخال نفسك مثل تمثال مشيد من الحجر، يزورك الناس يوماً في السنة، يشكلون حولك حلقة، يحملون أحجاراً صغيرة، يرجمونك بها سبعاً.

ولكن لماذا جاءت استعازة هذه الفتاة مختلفة؟ ربما لأنها المرة الأولى التي يُساء فيها فهمك، المرة الأولى التي كنت فيها حقاً كالملاك، ظاهراً وباطناً. من علم هذه الطفلة الاستعازات حتى صارت تطلقها في وجه كل رجل بريئاً كان أم خبيثاً؟ من علمها أن تكون بهذه القسوة لتجرح كل رجل، صالحاً كان أم فاسداً؟

خاطبتها، متألماً:

- لم أكن أنوي شيئاً خبيثاً، ما بك؟ ما هذا الظن؟

نظرت إليك بعينين متألئتين، كانت الأغشية اللامعة تغلف حدقتيها المرتعشتين. ابتسمت لهذه البراءة الطاغية، وسألتها بحنية:

- ما اسمك؟

مسحت عينيها ببطء:

- لى.

- لى، كيف أوصلك إلى أهلك؟

- والدي سيجدني.

- كيف؟

- لا بد أنه يطوف الآن حول المكان بحثاً عني.

- ممتاز! ما رأيك أن أعيذك إلى دورة المياه التي كنت فيها؟ لا شك أنه يبحث هناك.

لم تسمع لها رداً، سألتها مجدداً:

- أين تقع دورة المياه؟

أطرقت عينيها إلى الأرض، وامتلات عيناها دمعاً:

- لا أدري. ابتعدت عنها، لقد مشيت كثيراً حتى ضعت.

سحبت نفساً عميقاً، وشيئاً فشيئاً، بدأت تشعر أنك في ورطة. قررت، بعد دقيقة، أن تحاول البحث بنفسك، ربما تلمح سيارة والدها في أحد الممرات.

وبدأ البحث والطواف، ومضت ساعة، زرت فيها كل الممرات، وطففت خلالها الأرجاء كلها، مساعدة لهذه الصغيرة التي حطها القدر وسط طريقك. كنت تسألها عن أشياء كثيرة، وفي كل مرة، تقول لا أدري، كان جوابها واحداً لا يتغير. سألتها عن شكل السيارة، فقالت بأنها سوداء وكبيرة، وأنت لم تر في هذا المكان -سواها- شيئاً أسود.

النعاس عن عينيك طار، ورغبتك بالنوم تلاشت، وبعد مضي ساعة أخرى، كانت الشمس قد شارفت على الغروب، خفت ضوءها، وتلاشت أشعتها، وبدأت بالتوازي على استحياء، مثل عذراء جميلة. برز الشفق، واستحالت السماء حمراء، كعيني لى، التي أدمنت البكاء.

في لحظة، أرسلت النظر إليها، كانت خاشعة، تعبت بخيوط عباءتها التي خرجت من قاماشها البالي. حين لاحظت إطراقها، وسكون جسدها، وشروء عقلها، بدأت تستنكر حقيقتها.

فتاة صغيرة، ضائعة عن والديها في صحراء ممتدة لا نهاية لها ولا حد، تجلس بجانب شاب لا تعرفه، من أين يمكن أن تغمرها حالة السكون هذه؟ ألا يفترض من فتاة مثلها أن تتلفت في كل الأرجاء بحثاً عن سيارة والدها؟

لم تكن خائفة، بقدر ما كانت مهمومة وحزينة. حالتها الغربية تلك، جعلت منك رغم سنواتك الثلاث التي قضيتها طالباً في علم النفس، عاجزاً عن تشخيصها، وفهم ما يدور في عقلها الغائب. استغرقت دقائق طويلة في محاولة فهم هذه الحالة النادرة، الغربية، المستعصية في وجهة نظرك على نحو يعجز المحللين.

هناك شيء ما يؤرقها، خوف، قلق، وشعور يناقض الطمأنينة، يتعلق بموضوع رجوعها إلى أسرتها. هل يمكن أن تكون خائفة من الرجوع إلى أسرتها لسبب من الأسباب؟

قد يكون الهم، يقتات على قلبها، شعور أوجع، وخوف سابق أعظم من خوفها في هذه اللحظة. أو يكون اليأس، يقتل آمالها، على نحو يثنيها عن التفكير في المحاولة. ماذا يكون؟

- لى، لم أنت متبلدة هكذا؟ ألن تكلفي نفسك بالبحث معي والنظر عبر النافذة؟

نظرث إليك بحزن يخالطه شيء من البرود، ثم، ومن غير أن تجيب، عادت لتعبت بخيوط عباءتها! أي تبلد ذاك الذي اجتاحت مشاعرها؟

- لمى! الساعة قد قاربت الخامسة ولم أجد أثراً لأهلك، ألا تعرفين شيئاً عنهم؟ ما بك؟ هل فقدتِ الذاكرة؟

رفعتِ رأسها، وبنبرة العجز، والضعف، وقلة الحيلة، همست:

- من أين لي أن أعرف أين اختفوا وسط هذه المساحة الشاسعة؟ ربما ابتعدوا كثيراً، لا أدري أين هم.

تبدو وحيدة وضعيفة، يائسة ولا تملك في قلبها ذرة أمل. لحظات قصيرة، وبدأتِ الهواجس تدور في عقلك، والأفكار الخبيثة تتسلل إليك، على أطراف أقدامها. أملتِ رأسك إليها، وخاطبتها، بابتسامة واسعة:

- يعني، ستجلسين معي وقتاً طويلاً، صحيح؟

خلال دقيقة، تبدلت نظراتها، التصق جسدها بالباب، واستيقظت يدها الخائرة، الضعيفة، المدفونة في حضنها، لتعصر يد الباب بقوة، كأنما دبت بها الحياة فجأة.

لم تكن صغيرة بما يكفي، لتجهل ما يحتجب خلف هذه الجملة من ظلمات.

وهي تمسك يد الباب، استعداداً لأي هجمة تراودها، قالت، وكأنما تحمي ضعفها وعجزها:

- ربما يكونون ابتعدوا قليلاً، ولكنهم سيعودون!

شهقت، وخرج صوتها مرتجفاً:

- أنا أعرف أن إخوتي تفرقوا في المكان بحثاً عني، لا شك أنهم قريبون.

- حقاً؟ وكم عدد إخوتك؟

- كثيرون! تسعة!

- تسعة!!!!

يا الله، ما أجملها من كذبة. اتسعت ابتسامتك شيئاً فشيئاً، ثم استسلمت لنوبة من الضحك الطويل.

سألتها بعد دقيقة، بنبرة موغلة في السخرية:

- ما شاء الله، وكتيبة الجيش هذه لمَ لم يجدك أحدٌ منهم حتى الآن؟ وأين والدك؟ هل هو مثلك، تعتريه نوبات من فقدان الذاكرة كي ينسى أن ابنته تائهة في هذه الأرض، أم أنه يتناسى؟

أطلقت ضحكة طويلة، ولم تكن تعي حجم الألم، الذي عصرت به بكل قسوة، قلب هذه الصغيرة. غرقت لى بدموعها المرة، كما غرقت بحزنها العميق. غطت وجهها بكفيها، وأسندت رأسها على فخذيتها، ومضت تنسج نسيجاً مؤلماً، ترتعش أكتافها لتواكب نسيجها الطويل.

نظرت إليها بدهشة، ما بال هذه الطفلة؟ ما الذي يجعلها تبكي بعد كل جملة ينطقها لسانك؟

استرجعت كلامك في عقلك، راجعته أكثر من مرة، دقت في كلماته، ترى أي كلماته كانت قاسية في حق لى؟

لقد كان مزاحاً، ولكنه استطاع في لحظة، أن يفتت قلب لى، ليودي بها إلى تلك الحال. هناك شيئان، إذا ما تضمنهما المزاح، أصبح قاسياً جداً على قلب المتلقي، إما أن يتضمن كلمات جارحة، أو أن يكون مطابقاً للحقيقة. وما الذي يجعل الكلمات جارحة، سوى مطابقتها للحقيقة؟

أىكون كلامك واقعاً مُراً، تعيشه لى بكل تفاصيله؟ كان بكاؤها عميقاً، يزيد القهر ارتفاعاً، ويرخي الحزن.

في هذه اللحظة، التي عجزت فيها عن فعل شيء، أو النطق بأي تبرير، صرت تتأمل شعرها البني، وانتبهت إلى ضفيريّتين صغيرتين، كانتا تطوقان رأسها من الخلف، بالكاد رأيتها من بين الخصلات الصغيرة التي خرجت عن نطاق الترتيب. صارت يدك، بكل حنية، ترتب الخصلات المتطايرة وتعيدها إلى مكانها الأساسي. مسحت على شعرها الناعم، وتحسست نعومته وملوسته، رغم تشابك خصلاته.

- لى اسمعيني، لم أكن أقصد، لم أكن أعلم بأني سأجرح شعورك، أرجوك، توقفي عن البكاء.

ربتت على رأسها الصغير بأسف، كان الندم يخالج شعورك.

بعد دقائق، استحال بكاؤها أنيناً هادئاً، ثم رفعت رأسها عن فخذيتها، تناولت منديلاً يتيماً، وراحت تمسح بكفين مرتعشين، عينيها وأنفها المحمر.

لاحظت أن نفسها الذي تلتقطه بين الفينة والأخرى متقطعاً، كان صدرها متعباً، بصورة يعجز معها على سحب كمية كافية من الأكسجين دفعة واحدة. سألتها عن عمرها،

فأجابتك، وهي تنظر إلى حضنها:

- ثلاثة عشر عاماً.

صغيرة كانت، بقصر قامتها وضعف بنيتها، وملامحها الطفولية البريئة، كنت تظنها لم تتجاوز بعد عامها العاشر.

تركت عينيك تتأملها بسكون، ولم تزح ناظريك عنها، قبل أن يظلم الليل.

(2)

الوقت يمضي، عشرون دقيقة مضت كأنها ثوان، بدأ الليل يسدل غطاءه الأسود بشكل تدريجي، وأنت لم تفعل شيئاً حتى الآن، وسيارتك كما هي، واقفة في مكانها الذي توقفت عنده، بعد ساعة من البحث المضني.

لا تدري ما الذي تفعله، الوقت ليس في صالحك، وبعد دقائق قليلة ستري الظلام يلف المكان، ستري الفضاء أمام عينيك أسود، وسيكون من الصعب حينها، أن تلاحظ سيارة سوداء.

بدأ الجو يزداد برودة، بدأت لمت ترتعش، تناهى إلى أذنيك صوت صرير تتبعه طقطقة خافتة، كان اصطكاك أسنانها. فتحت مصباح السيارة الداخلي حتى تستطيع رؤيتها جيداً، كانت مسندة رأسها على النافذة، محاوطة جسدها بذراعيها، وصدورها يلتصق بفخذيها. كانت ترتعش برداً، منكمسة على ذاتها، مثل كرة صغيرة.

أوجعتك صورتها والبرد ينخر عظامها، وضاحت بك الحيلة أكثر. لم تدري ماذا تفعل، نظرت مجدداً إلى الساعة، ثم خاطبتها بيأس:

- اسمعي يا لمت، لا جدوى من محاولة البحث هنا، سأوصلك إلى بيتكم، أتعرفين أين هو؟

- في الرياض.

زفرتَ مستاءً:

- أعرف يا لى، أعرف أنه في الرياض. ما اسم الحي؟

- لا أدري.

هذه المرة نفذ صبرك، فصرختَ في وجهها منفعلًا:

- لى! أرجوك اعرفي شيئاً، أي شيء في هذه الحياة!

تداركتَ الوضع، قبل أن تنفجر باكية:

- حسناً، أتعرفين في أي جهة من الرياض؟

أغمضتَ عينيها بخوف، مما بعث في قلبك شيئاً من الألم.

- أظنه في الغرب.

- في الغرب!

قلبتَ هذه الحقيقة في رأسك، وشعرت، أن النوم قد بدأ يطير من يديك، إلى أبعد ما يمكنه أن يطير. بيتها في الغرب، وسيارتك في أقصى الشمال الشرقي، في منطقة تبعد عن الرياض ستين كيلو متراً أو أكثر. هناك مدينة كاملة، وأرض، وجغرافيا شاسعة، تقبع في المساحة الفاصلة، ما بين سيارتك وبيتها. كيف لو كانت تسكن البديعة أو الحزم أو ما جاورها؟ لن يكون الوصول سهلاً أبداً.

قفلتَ عائداً إلى الرياض، كان الطريق ترابياً وعراً، تهتز سيارتك مع كل حركة وتضطرب، يشق نورها الخافت عباب الظلام.

- لا أدري كم ساعة تلزمني للوصول إلى غرب الرياض.

كان انزعاجك واضحاً من نبرتك، أحسث لى به، رغم الهموم التي يفيض بها قلبها. تفاجأت بها تلتفت إليك، وتقول، بملامح حزينة:

- أنا آسفة، قد أكون ثقيلة عليك، ولكني

أطرقتَ رأسها، وامتلاثَ عيناها دمعاً، وواصلت:

- ولكنني تائهة وخائفة، لا أدري ماذا أفعل، كما أنني، أشعر بالبرد!

يا الله، مؤلمة نبرتها، التي كساها الضعف، وغلّفها الحرمان. كانت تتعصر، جرحها مكشوف، غائر ويسيل نزيغه أمام عينيك، ولأنك بلا عينين، لم يجد التعصر معك، لغة الجسد، رغم صدقها وعمق تأثيرها، لا تحدث فرقاً.

صارت تتوسل، رغم صعوبة الأمر، اختارت لغة أخرى، وصارت تحاول بلغة أوضح، لغة اللسان، أعرى اللغات، وأكثرها تفتيتاً لناطقها.

تأملتها بشعور غريب، أنفها المحمر، وجهها الذي اختزل كل الألم، جسدها الملتف حول نفسه مثل حلزون نائم، قدماها التي دفنت إحداها تحت الأخرى، أصابعها المقبوضة.

مرة أخرى، تعود بك الذكريات، إلى زمن مضى. كأنك ترى نفسك جالساً في ذلك المكان، وسط العشب الأخضر، بطريقة تشبه الاستلقاء. الجو بارد، رائحة دخان الحطب تنتشر حولك، و(البلاك بيرى) بين يديك، تبتسم بفرح، وأنت تقرأ على شاشته الصغيرة جملة لى الأخيرة، بنفس كلماتها، وتستعد لحوار لذيذ، غارق في الرومانسيات.

اليوم يتكرر الموقف نفسه، وتُعاد الجملة ذاتها، ولكن ثمة شيء قد اختلف.

اليوم، الصورة مكشوفة أمام عينيك، ليس من وراء الشاشات الصغيرة، التي تُحجّب خلفها الوقائع، وتساfer عبرها الأحلام، والأمانى، والزيف.

اليوم، و فقط اليوم، استطعت أن تبصر صدق الشعور، وعمق الحاجة. طفلتك الحافية تتوسل إليك، بنبرة باكية. الأفكار الخبيثة تتسلل إلى عقلك على أطراف أقدامها، هذه المرة، كل شيء ميسر أمامك، هي محتاجة إليك، وأهلها بعيدون، لا أحد في المكان سواك، وهي، والظلام.

ماذا لو هجمت عليها ففتحت الباب واختفت في الظلام؟

- لو سمحت؟

صوتها المرهق ينتشلك من طوفان تفكيرك.

- نعم؟

نظرت لى إلى المقاعد الخلفية، وهي تحكم مسك طرفي عباؤها عند صدرها، كأنها تكاد تخنق نفسها. أشارت بأصبعها الصغير الذي بالكاد ظهر من تحت كمها المسدول:

- هل يمكنني أن آخذ المعطف الذي في الوراء؟

نظرت إلى ما كانت تشير إليه، وتفاجأت بمعطفك البني، مرمياً بإهمال على المقعد. عضت شفتيك بحسرة، كيف سافرت بك الأفكار وراء الشمس، بينما هي، أقصى ما كانت تفكر به معطف من الفرو الدافئ. تبدو حاجتها ملحة، وجرحها مكشوف. أرسلت إليها نظرة حزينة، ثم التقطت معطفك، وناولتها إياه بصمت.

رأيتها تبتسم ابتسامة صغيرة، كأنها تشكرك بها، ثم راحت تفتح السحاب بأصابع تغطيتها أكمام العباءة. ساعدتها في فتحه، وفي ارتدائه، وحين كُنْتُ تهم بإغلاق السحاب، لامست عباؤها بطرف يدك، تفاجأت ببرودتها، كانت رطبة، ورطوبتها أصبحت كغلاف من جليد، يُحيط جسدها النحيل. مرة أخرى، عضت شفتيك، وتعمق الألم في صدرك.

كان المعطف كبيراً عليها، غاصت فيه، أحكمت إغلاقه على جسدها ثم خبأت كفيها البيضاءوين أسفل الكم. أسندت رأسها على الباب، وبدت، بشعرها الناعم، والفرو الدافئ، مثل كرة صوف ناعمة.

ارتخت أطرافها، وانتابتها حالة هادئة، من الطمأنينة والارتياح. تنهدت، وداهمتك رغبة ملحة في احتضانها، واخفائها داخل صدرك، ولكنك خشيت إفزاعها، لم تشأ كسر ذلك السكون، ذلك الارتخاء والهدوء الناعم.

بعد دقائق، لاحت لك أنوار صفراء ساطعة، بدأت تدخل إلى شارع صاخب، مليء بالناس والسيارات. هناك عربات تبيع الشاي والأطعمة، خيول يمتطيها أطفال، سيارات وعربات منتشرة، تبيع البليلة والذرة.

فكرت في شراء الشاي الساخن للمي من أحد الباعة الذين يصنعون الشاي على الحطب، المنتشرين على جانبي الطريق. وفي آخر لحظة تراجع، يوم رأيت وجوه البائعين السمراء، وتلك الأشمغة المربوطة على الرؤوس، والملامح المُسالمة المتشابهة.

"اليمينيين أكلوا البلد" تردها دائماً، بينما تبتسم ابتسامة واسعة، كل يوم، في وجه عامل (ستار بكس) أو (بيتزا هت) أو (ماكدونالدز). اليهودي أحق في مالك من يمنيٍ مُنْهك يصنع الشاي الساخن على طريق الثمامة.

في تمام الثامنة مساءً، وصلت، بعد عراك شديد مع الزحام، إلى غرب الرياض، التفتت إلى لى قائلاً:

- لى، ها قد وصلنا إلى غرب الرياض. الشميسي، البديعة، السويدي، العريجاء، هل سمعت بأحد هذه الاسماء من قبل؟

اعتدلت لى فى جلستها، انطلقت تبحت بأنظارها عبر النافذة، تراقب الشوارع الصامتة بضباع، ثم أطلقت تنهيدة حزينة، وسكنت. فقلت لها:

- اسمعى لى، سوف أطوف بك حول بعض الشوارع الرئيسية، إن رأيت معلماً بارزاً، أو شارعاً، أو سوقاً تعرفينه، قولى لى.

تجولت بسيارتك فى تلك المنطقة، زرت شوارعها كلها، كانت الشوارع محاطة بهدوء عجب. تجولت قريباً من المحلات، دخلت الحواري، طفت حول البيوت، فى كل مرة كنت تسألها، كانت تجيب بـ "لا أعرف"، و "لا أدري"، و "لا أتذكر". كنت جاهلاً، غيباً، لم تدرك أن هذه الفتاة تكذب، وما كلامها السابق، سوى (قصة) خيالية نسجها عقلها ليطيل الوقت ويضيق الساعات، قبل أن تسألها عن الحقيقة.

بدأ الإرهاق يعتريك، النعاس يطوف حولك، يوشك على إغماض جفنيك الذابلين والسفر بك فى نوم عميق. الساعة قد قاربت التاسعة، وأنت فى تيهانك العظيم، قد بدأت تقترب نحو الجنوب الغربي. وصلت أثناء طوافك إلى شارع غريب، كئيب، بإنارة خافتة، خال من السيارات والمحلات، وتصطف على جانبيه عمارات حديثة البناء وخاوية. حينها، التفتت إلى لى متعباً:

- لى، هذه أقصى نقطة أستطيع الوصول إليها، وأنت لا تساعدني.

أوقفت السيارة، وركنتها بجوار الرصيف. سمعت لى تقول، بصوت منخفض:

- لو سمحت.

التفتت إليها، وابتسمت، رغم إنهاكك:

- اسمي فيصل.

- فيصل، لو سمحت، هل يمكنني النزول قليلاً؟ لقد تعبت من الجلوس.

اومات موافقاً، ونزلت قبلها، ثم جلست على الرصيف، وألقيت ذراعيك بإهمال على ركبتيك. أخرجت علبة السجائر من جيبيك، وبدأت تدخن السجارة تلو الأخرى، وأنت تفكر، بذهن مشوش.

ما قصة لى؟ تذكرت ذلك الموقف، حين بكت جراء سخريتك الجارحة، وحاولت الربط بين الأمرين، بين كلامك عن والدها، وبين نشيجها المؤلم. أتكون مهملة من قبل أسرتها؟ ترى أكان والدها مجنوناً أو مريضاً أو شيخاً كبيراً حين بكت جراء وصفك له بفاقد الذاكرة،

بينما انشغل إخوتها عنها، أو أهملوها ثم خططوا لـ(رميها) وحيدة؟ أم تكون قد تورطت بجريمة شرف، ثم هربت من المنزل؟، ولكن من الذي أوصلها إلى هناك؟!

مرث دقائق قصيرة، وأنت على حالتك، منغلق على سرّك. كنت كالثيل، ترمي سيجارتك على الأرض، تسحقها بحذاءك الأسود النظيف، وأنت ناعس العينين، ثقل الحركة، ومتخدر الأطراف. لقد أرهقك النعاس، لم يعد بوسعك التفكير أكثر، انتظرت دقيقة أخرى ثم وقفت، وتلفتت بحثاً عن لى.

تفاجأت بها، واقفة، على أطراف أصابعها، بالمعطف الثقيل الذي يصل طوله منتصف ساقها، أمام برادة ماء كانت بجوار مسجد. تجمع كفيها أسفل الصنبور لترتشف من مائه البارد، وقدمها العاريتان تلامسان المياه الباردة المسكوبة أسفل البرّادة. ابتسمت، أي جريمة يرتكبها ملاك مثل لى؟

اقتربت لتمسك بمعصمها، وتقول:

- هيا، تأخرنا، أريد العودة إلى المنزل.

- وأنا؟

رفعت رأسها تنظر إليك، خاطبتها، وأنت تجرّها بيدك، وتمشي على عجل:

- لا أملك شيئاً أفعله لك، سأذهب بك إلى سوق وأتركك هناك، وأنت بدورك تصرفي!

- لا فيصل! أرجوك لا تتركني، لا أريد أن أبقى وحيدة.

قالت جملتها، وهي تمسك بيدك، بنبرة مكسورة. أطرقت رأسها، ووضعت جبينها البارد على يدك، فشعرت بحرارة دموعها، وتألّم لها شعورك. تبدو ثقة العصافير، وهي تحطّ مطمئنة على يد (صيّاد) لتأكل منها كسر الخبز، مؤلمة.

كيف لا تتمسك هي بك، وقد أنهكها الضياع، كما أرهق العصافير الجوع؟

جلست القرفصاء، وأمسكت بكتفيها. لطالما كنت تتمنى لحظة، تقف فيها بين يديك، فتاة جميلة، ضعيفة، ومستسلمة إليك. تبدو هذه اللحظة مشابهة لما كنت تشتهي، ولكنك الآن لست أمام فتاة، بل كائن آخر، أنت الآن أمام براءة الكون، ونقاء الحياة، أمام ملاك خلق من بياض عذب، تخشى أن تلوّثه حتى بلمسات أصابعك.

غمرتك حالة عجيبة من الألم والسكون والحُب النقي، همست بضعف:

- لى، قولى لى ماذا أفعل لك؟

- لا تتركنى يا فىصل، أرجوك لا تتركنى.

قالت جملتها، والدموع تسيل على خديها الأبيضين. يا الله، كم تمنيت أن تضم جسدها الصغير إليك، لتنعم بفروها الدافئ. كنت مأسوراً بجمال اللحظة، وسكون الشارع، وخلوتك مع لى. أطرقت رأسك، وهمست لها، بهدوء:

- لن أتركك، وعدّ منى، يا لى.

ها أنت فى حى العليا، الحى الذى لا ينام، ولا تسكن شوارعه أبداً.

تطوف فى سيارتك بحثاً عن فندق مناسب، كنت قد قررت أن تترك لى لترتاح هذه الليلة، تبدو متعبة، وغداً سوف تسألها عن كل شيء. وأثناء بحثك، سمعتها تنادىك بصوت خافت، فالتفتت إليها، قالت، وهى عاقدة حاجبيها:

- حلقي يؤلمنى، لا أستطيع البلع.

ابتسمت لها بشفقة، ولوهلة، صرت تحس بمشاعر الأب الحانى، الذى يشعر، حين تلجأ إليه طفلة حتى فى أبسط الأشياء، أن الكون كله ملك له.

- سأشتري لك مشروباً دافئاً حينما نصل، هل تريد شيئاً آخر؟

سألته بحنية، فابتسمت ابتسامة صغيرة. يا الله، تلك الابتسامة، أسرّت فؤادك.

ماذا حل بك؟، أهى طفولتها التى خلقت منك أباً روحياً لها؟ أم حاجتها الصادقة إليك حتى أحالتك إلى ما يشبه (آلة) تنفذ حاجاتها متى تريد؟، كان شعوراً جديداً، لم تشعر به يوماً تجاه فتاة.

اخترت فندقاً بسيطاً يطل على شارع واسع، حين نزلتما، اشتريت لى ثلاث شطائر وحليباً ساخناً. لم تشأ أن تشتري لها القهوة، القهوة مضرّة للصغار، كان اهتمامك بها عميقاً.

حجرت جناحاً واسعاً بغرفتين، في البداية، لم يكن النظام يسمح بهذا، أن تحجز غرفتين وأنت شخص واحد، ولكن بواسطة مبلغ صغير، دستته في جيب الموظف، أتم الحجز وهو يبتسم.

عدت لتمسك بيدها الباردة الصغيرة، وأخذتها برفقتك إلى الجناح. قبل أن تدخل، قابلتما موظف الفندق، المتأنق بقميصه الأبيض الرسمي، عند باب الجناح. كان يبتسم، ثم سرعان ما تبدلت نظراته، وهو ينظر إلى وجه لى، وساوره الشك والقلق.

كيف له أن لا يرتاب في الأمر وهو يرى شاباً أنيقاً بثوب أبيض نظيف، يمشي مع فتاة لا تشبهه، يخالها، بعباءتها المتسخة، وشعرها المنفوش، وحالتها الرثة، كأنما جاءت من عالم آخر، عالم لا يعرف الماء ولا الصابون؟

حاولت تجاهل نظراته، رغم أنها زرعث في قلبك شيئاً من قلق. كان الجناح واسعاً جميلاً، يحتوي، على صالة واسعة بلون سكري، أرائك سكرية بوسائد بنية، طاولة زجاجية في المنتصف، تلفاز مسطح، مطبخ مجهز بكل الأدوات، غرفتي نوم، ودورتي مياه.

حين دخلت، ألقيت بجسدك على الأريكة منهدماً، فيما وقفت لى، تتفحص أرجاء الفندق بعينها، وكوب الحليب يستقر بين كفيها. شعرت بأنها لا تريد نزع عباءتها، ولم تشأ أن تجبرها على ذلك.

- لى، نامي الآن في الغرفة، وابقى معطفي معك قد تحتاجين إليه.

سكنت قليلاً، ثم واصلت:

- اقفلي الباب عليك، إن لم تشعرى بالأمان.

هزّت رأسها بتفهم، أخذت شطائرهما وتوجهت نحو الغرفة الصغيرة، ثم اختفت سريعاً وراء الباب.

ومنذ تلك اللحظة، لم ترها مجدداً.

لم تفتح لى باب غرفتها منذ يوم مجيئها إلى هنا، لم تسمح لك برؤيتها مجدداً. كنت تسمع كل يوم، مع قدوم الليل، بكاءً مَحزناً يتسلل إلى أذنيك من أسفل الباب، يتقطع ويخفت

صوته، كلما تقدّمت ساعات الليل.

كنت تطرق بابها كل يوم، تناديهما من وراء الباب حتى يداهمنك اليأس، ولا تسمع لها صوتاً أو نفساً.

تعود إلى الصالة، ويمضي اليوم مثل سابقه، تشتري طعاماً جاهزاً، وتتناوله بمفردك، ثم تضع الباقي في الثلاجة. يأتي الصباح، ككل صباح، وتلاحظ أن الطعام يتناقص من الثلاجة، وتكتشف أن لى تتسلل في ساعة متأخرة من الليل، مثل فأر مشاغب، لتحصل على شيء تسد به جوع معدتها.

وفي أول الليل، أحياناً، تخرج لى أبكر من العادة، حين يطرق الجوع جدار معدتها مبكراً.

وفيما تكون مستلقياً على الأريكة، تشاهد فيلماً على حاسوبك المحمول، وفي فمك سيجارة لا تفارقه أبداً، تسمع صرير بابها وهو يُفتح، فتوقف الفيلم، وتنهض مسرعاً إليها، ثم تتفاجأ ببابها مغلقاً. كانت، كلما شعرت بقدمك، أجلت فكرة خروجها إلى المطبخ، ولو كلفها ذلك الكثير من الجوع.

وذات يوم، كانت لى قد أكملت يومها الخامس في غرفتها، والساعة الرمادية المثبتة فوق التلفاز تشير إلى الثامنة مساءً.

كنت مستلقياً في الصالة فوق الأريكة، واضعاً يدك تحت خدك، والحاسوب المحمول يعرض أمامك فيلماً جذبتك أحداثه.

كان يحكي قصة فتاة مُراهقة، تعيش مع أسرتها حياة مستقرة نوعاً ما، حتى تعرّفت يوماً على شاب، استطاع أن يسلب قلبها. وذات ليلة، اتفق معها على لقاء، يبدأ مواعده بعد منتصف الليل. تسللت الفتاة في تمام الثانية ليلاً من عُرفتها، بعد أن تأكدت من نوم الجميع، وخرجت من الباب الخلفي، وأغلقت الباب ورائها. كان الشاب ينتظرها بسيارته أمام باحة منزلها الخلفية، ركبت معه، مسرورة لنجاح خطة هروبها.

أخذها الشاب إلى طريق بعيد عن المدينة، طريق صحراوي مجهول، يفرش الظلام أجنحته السوداء عليه، مهيمناً على كل ضوء.

توقف، أمسك بالفتاة، جرّها من يدها ثم ثبت جسدها على المقاعد الخلفية للسيارة، سلب منها ما يريد، ثم رماها في الطريق، عارية من كل شيء.. إلا الملابس، كانت ملابسها مقطعة.

شعرت، وأنت تشاهد الفيلم، بشيء ما يجثم على صدرك. فتاة، في طريق خالٍ، وحيدة، حالتها رثة، وشعرها مبعثر! بدأت الوسواس تملأ عقلك، تبدو الحالة التي انتهت بها هذه

الفتاة، ليست بعيدة عن حالة .. لى!

فتحت عينيك بشك يخالطه خوف، ماذا لو كانت القصة مُشابهة، هروب من المنزل، ركوب مع شاب في أنصاف الليالي، اغتصاب، ثم ضياع! سحبت نفساً طويلاً، ثم تذكرت الحالة التي رأيت بها لى، شعر منقوش، أقدام حافية، هناك جرح في ذقنها، وعباءتها! يا الله! تتذكر عباؤها، كانت أطرافها مُقطعة!

ولكن لى صغيرة! (مايلي) أيضاً صغيرة. ليس هناك ما يمنع تورط لى بقضية مشابهة.

أغلقت جهازك المحمول، ثم نهضت جالساً، وأنت شاخص العينين، تُفكر بسوداوية. هناك أشياء كثيرة، تثبت تورط لى بالقضية نفسها، حالتها الرثة، خوفها المفضوح من العودة إلى أهلها، ادعاؤها العجز والضعف، في زمن، يستحيل فيه وجود فتاة في عمرها لا تحفظ أرقام والديها. لى هاربة من بيتها، مع ذئب بشري، لى تخدعك، وأنت تُشفق عليها، وعلى براءتها المزيفة، تماماً كالأبله.

احتقن في جبينك وريد الغضب، وقفت تصيح باسمها، ثم توجهت مسرعاً، إلى غرفتها الواقعة في آخر الممر.

- لى، لى افتحي الباب، أعرف أنك لست نائمة، افتحي وإلا كسرت الباب!

تخبط بيدك على الباب، وتصيح بصوت عالٍ. تعاود الضرب والصراخ بشكل اقوى، حتى سمعت، من بين صياحك، صوتاً نحيلاً، مُرهقاً، بُح من أثر النياح:

- كفى، أرجوك.

صارت تبكي، أذاك صوت بُكائها موجعاً، ولكنك قررت بعد الآن، ألا تأخذك بها رأفة، قبل أن تسمع منها كل شيء.

- لى افتحي الباب، فلنتفاهم على كل شيء.

قلت بلهجة صارمة، فأجابتك بنبرة باكية:

- حسناً، ولكن ابتعد عن الباب قليلاً، أرجوك.

تراجعت إلى الورا خطوتين:

- ها قد ابتعدت، افتحي هيا.

فُتح الباب، فرأيت لى، أو حُطامها، الذي يتشكل على صورة إنسان. كانت مُطرقة رأسها، وجهها مُغطى بشعرها المبلول، ويدها تشد على قبضة الباب. بكاؤها يغرس سكيناً في قلبك، تحاول مرة أخرى أن تقوي قلبك، وتسألها بنبرة حادة:

- لى، هل ستخبريني بالحقيقة؟

أزاحت خصلات شعرها بيدها:

- إن كنت تريد، فسأخبرك بكل شيء.

تبدو هذه المرة جازمة على إخبارك بحقيقتها، تحرقَت شوقاً لسماع قصتها، وأخذتها إلى الصلاة، لتسمع منها كل شيء.

جلست على الأريكة واضعاً ساقاً على ساق، فيما جلست هي في الجهة المقابلة، وفي يدها منديل تمسح به دموعها. سحبت نفساً عميقاً، ثم قالت، وأنظارتها مركزة على الأرض:

- كنت أود يا فيصل أن أخبرك بقصتي منذ البداية، ولكنني خشيت من ذلك الشيء، الذي يسمونه

- استغلال؟

- صحيح، كنت أخشى أن تستغل ضعفي، خصوصاً أنني وحيدة.

عادَت دموعها تسيل على خديها، واصلت:

- أنا لا أعرف ماذا ستفعل بي يا فيصل بعد كلامي هذا.

سكتت قليلاً، ثم نطقت بسرعة، بلهجة خائفة:

- أعوذ بالله منك إن كنت تنوي فعل شيء بي!

أطلقت تنهيدة عميقة، ثم همست بضيق:

- أرجوك، لا داعي للاستعازات، لن أفعل بك شيئاً، أعدك بذلك، هيا يا لى، تكلمي.

- من أين أبدأ؟ كيف أشرح لك؟

أجهشت بالبكاء، مخفية وجهها خلف يديها، ثم رفعت رأسها، فرأيت عينيها المحمرتين، وحزنها الذي يذيب القلب.

- لن أسامح أخي على ما فعله أبداً، رغم ذلك، أنا محتاجة إليه، هل تُعيد لي خالد يا فيصل؟ هل تُعيد لي عيني؟

- كيف!

- أنا عمياء يا فيصل. لقد كنت طفلة يوماً ما، مثل أي طفلة، سكنت أنا وأبي وأخي خالد في بيت صغير، وإن كنت تتساءل عن موقعه، ليس في الغرب، بل في حي يسمى غبيراء. كذبت عليك يا فيصل، أنا أحفظ رقم والدي، تماماً مثل اسمي.

- إذناً لماذا لم تدعيني أتصل به؟

سألتها بدهشة، فأجابتك، بحالة ضعف، ينهد لها الجسد كله:

- لأنه، هو ووالدي، متوفيان.

نصلاً حاد، ينغرس في قلبك، بعد هذه الكلمة. بتلقائية، واصلت لى حديثها، وبدأت تسرد الحكاية، وتطلعك على تفاصيل الجرح، كيف انفتح، وكيف شق طريقه عميقاً.

"كنا نعيش، يا فيصل، أنا وخالد مع أبي حياة طبيعية، مثل أي أب وأطفاله، رغم أننا كنا نعاني كثيراً جراء عصبية أبي المفرطة. لم تكن والدي موجودة، توفيت بعد ولادتي مباشرة ولم أعرف يوماً شكل ملامحها. كنا بسطاء الحال، كانت طفولتي، يا فيصل، جميلة. كنت أخرج مع خالد كل يوم بعد صلاة العصر لنشتري الثلجات والحلوى من دكان الحارة، نخرج هكذا حفاة الأقدام نركض على أرضية الشارع بمرح رامين الدنيا وهمومها وراء ظهورنا، نعود للمنزل ونستلقي أمام التلفاز لتبدأ متعتنا الحقيقية، مشاهدة أفلام الكرتون مع قرمشة رقائق البطاطس ولعق الثلجات. لا تنتهي تلك المتعة اليومية غالباً إلا حين يغلبنا النوم. حين بلغت العاشرة من عمري، قرر أبي الزواج من أخرى، في الحقيقة، كان مُخططاً لذلك بعد وفاة أمي مباشرة، ولكنه قرر أن يتريث حتى نكبر أنا وخالد قليلاً، وحين أصبحت أنا في العاشرة وخالد في الرابعة عشرة، طار أبي إلى خطابة عجوز أمطرها ببعض المال لتخطب له امرأة تعوّض مكان أمي. جاءت زوجة أبي الجديدة تماماً كما كان يليق به. امرأة حادة الطباع سيئة الخلق، يُغضبها الكلام والهّمس والنفس وكل شيء.

جاءت، يا فيصل، لتقتل البهجة في بيتنا الصغير، لتحيل ضحكاتي إلى بكاء. صارت تُعاملني كخادمة، ولأنني ضعيفة ولست مثل خالد كنت أنفذ أوامرها صاغرة. كان خالد يعصي أوامرها أحياناً، ويصرخ في وجهها أحياناً أخرى، أما أنا، فقد كنت لا ألوي على شيء. أبي

تغيّر كثيراً بعد زواجه بها، مات اهتمامه بنا، صار اهتمامه كله مسكوباً على زوجته التي عاشت ملكة على عرشه الفقير. حين بلغت الثانية عشرة، تفاجأت بخبر وفاة أبي في حادث مروري. بكيت كثيراً، كانت أيام العزاء صعبة لم أعرف فيها سوى البكاء والحزن، كُسرت قلوبنا يا فيصل، حتى زوجة أبي خارت قواها يوم العزاء، وصارت تنتحب نحيباً عالياً يخترق الأذان".

توقفت لى هنا، وعادت تبكي. لم يعد بوسعها سرد كل تلك الذكريات المؤلمة، مدت يدها، لتأخذ منديلاً تمسح به دموعها، وسحبت نفسها جديداً، لتواصل سرد الحكاية.

"بعد وفاة أبي، صارت تعتبرني خادمة لها بالمعنى الحرفي، وليس مجرد شريكة تحمل عنها نصف أعباء المنزل. كانت تريد، أيضاً، أن توظف خالد خادماً لديها، ولكن خالد كان رجلاً عزيزاً جداً، لا يخضع ولا يستسلم، ولا يسمح لأحد، كائناً من كان، أن يهين كرامته أو يصيره خادماً لمصالحه الشخصية. كنت أتمرر أنا شتائمها التي تقذفني بها ولا أهتم، ولكن خالد كان ينتفض غضباً كلما أخذت تشتمه، كأن سبابها يجرح رجولته، ولم يكن يتجاهلها كما أفعل أنا. ولكن فجأة، وذات يوم، بعد مضي سبعة أشهر على وفاة أبي، سبعة أشهر من الذل والعذاب النفسي، لم يعد خالد يطيق الجلوس معها في بيت واحد. قرر أن يهرب، تخيلت يا فيصل! ذات ليلة، احتد الصراخ بينها وبين خالد، في تلك اللحظة كنت أجلس في الصالة خائفة، أراقب تعابير خالد وانفعالاتها الحادة. فجأة صرخ خالد في وجهها، وأخبرها برغبته الجازمة في الخروج من هذا البيت، فانهالت عليه بالشتائم والدعوات. صعد خالد إلى غرفته، ثم عاد يحمل حقيبة في يده، وفي حين كنت لا أزال جالسة على الأرض، أراقب اشتعال زوجة أبي بعينين شاخصتين، صرخ خالد باسمي، ليحثني على الخروج معه، لا أنسى تلك اللحظة، حين جاء زوجة أبي وأمسكت بياقة قميصي من الخلف، وجرتني بعنف نحو الباب. صرخت: هيا اخرجي إن أردت، اذهبي مع خالد، تمردي مثله، وجربي الضياع في الطرقات. فليعبث بك الرجال والصبيان، ذوقي طعم التشرد، افتشري الشوارع الخلفية، دعي كلابها الضالة تنهش جسدك ولحمك".

نصل آخر، أحد من سابقه، يشق قلبك إلى نصفين. بكث لى، وانفجرت في رأسك مئات التساؤلات.

- ما هذا الكلام؟! لا حول ولا قوة إلا بالله. كيف كان رد خالد، ماذا قال؟

- لم يسمع كلامها، في تلك اللحظة، كان في الشارع، لقد خرج وتركني.

سكتت قليلاً، ثم اردفت، بوجع المكسورين:

- لم أشأ أن أخرج يا فيصل، كنت أخشى الضياع، اخترت أن أعيش تحت رحمتها على أن أتشرد في الشوارع.

- فضلت أن تسكني السرايب الضيقة على أن تفتري الشوارع؟

- أجل، صحيح.

أطلقت تنهيدة، ثم عاودت تسرد ما تبقى من الحكاية.

"مضت أربعة أشهر لم أرَ فيها خالد. كنت أعيش فيها جسداً بلا روح، أغسل الصحون كل يوم، أكنس الأرض، أرتب المنزل، ثم اسقط، في نهاية الليل، منهكة على الفراش، لأدفن رأسي في وسادتي، وأسقط في دوامة البكاء المكتوم. حتى جاءت تلك الليلة، و..."

وماذا جرى في تلك الليلة؟ لم تخبرك، لم تعد قادرة على النطق، لقد أخرسها البكاء. أطرقت رأسها، وانهارت تبكي، مغطية بيدها اليسرى جبينها وعينيها.

ابتلعت غصة في حلقك، ثم اقتربت منها، وجلست قريباً، وراحت يدك تمسح على ظهرها بخفة، فيما كانت منحنية إلى الأمام. سمعت شهقاتها الموجهة فاحمرت عينك، ووددت، في لحظة، لو تضمها إلى صدرك، لتشاركها البكاء.

ما الذي أيقظ ضميرك بعد كل هذا السبات؟، وأي قوة، تمتلكها دموع هذه الصغيرة، لتذيب قلباً كان مجرداً من الرحمة، مغلفاً بالجبروت؟

إليس يفارقك، إنه يرحل صوب الأناى، لقد ترك فيك مكاناً خالياً، وصرت ترأف بدموع الفتيات.

أمسكت بيدها اليمنى، ورحت تضغط عليها بين كفيك، وتدلكها بلطف.

- لى، إن شئت لا تواصل الحديث، يبدو أن هذه الذكريات تفتح جروحك، أرجوك لا تبكي.

تركت يدها، وبقيت ساكناً لا تدري ماذا تصنع، تطلق تنهيدة في كل لحظة، وتحوقل مهموماً، كلما اشتد بكاؤها.

- اسمعي لى، سوف أخرج الآن لأدعك ترتاحين، يبدو أن وجودي، يؤلمك.

مسحت على كتفها بحنية:

- لا تنامي، سوف أعود بالعشاء.

نهضت واقفاً، خرجت من الجناح، ولم تسألها، أبداً، عما حدث في تلك الليلة.

(3)

ظلت لى على حالها، شاردة في عالم بعيد، شاخصة في الفراغ.

عيناها مثبتتان على الساعة الرمادية فوق التلفاز، هادئة وساكنة، كانت جثة، تشبه الجثة في كل شيء، عدا أنفاسها التي تنفخ صدرها ببطء. كلما هطلت دموعها، مسحها بأكامها التي صارت أيضاً ممسحة لبقايا المخاط تحت أنفها، وكأنها لم تعد تأبه بشيء. كانت عباءتها ملطخة بالبقع وبعض الطين، تقطعت أطرافها، واستحالت خيوطاً طويلة محملة بالتراب. ما الفرق إن أصابتها قطرات دموع مالحة وشيء من المخاط؟ مع شرود فكرها، وكل ما يسكن صدرها من آلام دفينّة، ورفات آمال ميتة، ما عاد شيء في المحيط الخارجي يلفت انتباهها.

تذكّرت أنها لم تصل العشاء، نهضت من الأريكة متجهة نحو الحمام، ثم غسلت وجهها مرتين، ورفعت رأسها إلى المرأة، تُحدق في وجه ذابل، شاحب، وعينين متورمتين مُنطفئتين. انتهت إلى الجرح الصغير في ذقنها، وجرحها نبهها إلى ذكرى مضت، تذكّرت تفاصيل تلك الليلة المُعتمّة، وهي تتحسس جرحها بأصابعها، عاقدة حاجبها بالأم.

قبل عشرة أيام، كانت في بيت أبيها، في غرفتها مستلقية على سريرها الأبيض، تُداعب أهداب وساداتها. قبل عشرة أيام، كانت جالسة في الصالة أمام التلفاز، تشاهد أحد مسلسلات الإنمي. قبل عشرة أيام، كانت تمشط شعرها أمام مرآتها المُحاطة بإطار خشبي أبيض، مزين بورود صغيرة وأغصان خضراء.

قبل عشرة أيام، كان للموت في قاموسها معنى واحد، زوجة أب ذات شعر أحمر وعينين حادتين. الآن، أصبحت ترى الموت في كل شيء. في الظلام، في الشوارع، بين دهاليز الحواري وحتى في قسّمات الوجوه.

أطرقت رأسها، وبكت بقوة، بينما ينساب الماء البارد فوق كفيها. كم اشتاقت إلى عُرفتها الصغيرة، إلى تسريحتها الخشبية المملوءة بربطات شعر وإكسسوارات قديمة، إلى تلفاز الصالة المفتوح على الدوام، إلى مرآتها التي جلست أمامها ساعات وساعات، تصارحها بما يختبئ في صدرها ويجول في خواطرها.

بين يوم وليلة، اختلف كل شيء. وجدّث نفسها فجأة في مكان غريب، لقد رُميت في العراء فارغة اليدين. وبعد تلك الليلة، لم يعد كل شيء كما كان. لقد تاهت، وتفاصيل تيهها يسرّدها جرح صغير في ذقنها. غسلت وجهها مرة أخرى، ثم عادت تنظر مجدداً، والمرأة النظيفة الصافية تعكس ملامحها بوضوح، وتفتح عينيها على حقيقتها.

منذ هذه اللحظة، أدركت لَمْ، أن لا أحد لها سوى فيصل، وأنه بمثابة هبة عظيمة، هبطت إليها من سبع سماء، في الوقت الذي لم تتوقع فيه أن يمر أحد في تلك المنطقة الخالية. رغم أنها خافت منه في البداية، لم تكن أيضاً لتتركه يذهب بدونها، فالحياة مع فيصل، كيف كانت، خيرٌ من الموت جوعاً وبرداً، أو بين أنياب الذئاب.

أغمضت عينيها بوجع، وهي تتذكر أن فيصل، في أي لحظة، قد يفعل بها ما يشاء، ولن يجد يداً تمنعه. تلمع هذه الحقيقة في رأسها مثل خيط برق، وتتذكر أنها وحيدة، طفلة، بلا عائلة ولا سند. من سيصرخ وراءها لو امتدت يدٌ تنهش جسدها وتسلب روحها، أو تتركها حية بلا حياة، موجوعة، وعارية من كل شيء؟ في تلك اللحظة، كانت تفضل أن تكون جاهلة حمقاء على أن تدرك حقيقة سوداء مثل هذه.

تلّمسّت شعرها الذي كان رطباً لا يزال بعد استحمامها الأخير قبل ساعة، لم تشعر بالنظافة كما أرادت، لأنها، وبمجرد خروجها من الحمام، عادت إلى فستانها السماوي القديم، ثم التحفت بعباءتها التي حملت أوساخ الكون.

أزاحت خصلات شعرها عن وجهها، ثم رفعت أكمامها فوق مرفقيها، توضأت، ثم ذهبت إلى الغرفة، نزعت كيس الوسادة النظيف ولقّته حول رأسها كحجاب، أحكمت إغلاق عباءتها والتي لم تكن متيقنة من طهارتها ولكنها يجب أن تصلي، هي في حالة أحوج ما تكون إلى الصلاة.

صلّت بطمأنينة، بكت عند سجودها، بكت كثيراً، اللهم أنت وحدك قادر على إذابة جبال الهم الثقيلة على صدري، أنت أعلم بضعفي وقلة حيلتي، أنت أعلم بما في قلبي من وديان سحيقة وحطام، لا تجعل حاجتي إلى أحد سواك، واغني عن البشر، يا غني، يا رحيم. كانت تشهق شهقة حارة مع كل كلمة تنطقها.

بعد أن تيقنت أن الهروب مخاطرة، والرجوع إلى زوجة أبيها بعد جريمتها بها مخاطرة أكبر، صارت تخصص لفيصل نصيباً من دعواتها، دعت أن يهديه الله ويصلح نيّته، كانت تأمل أن يكون عوناً لها.

صلت العشاء، واتبعتها بشفع ووتر، بكت مع كل سجدة، نذفت كثيراً من دموعها حتى ظنت أنها أفرغت كل ما في صدرها من هم وغم، فرغت من صلاتها خفيفة الروح مرتاحة القلب، ابتسمت لأول مرة منذ مجيئها إلى هذا المكان، داهمها تفاؤل عجيب بفيصل، واطمئنان

نفسى خُلق من العدم. تساءلتُ ما سر هذا الشعور؟ ربما سلمت أمرها إلى الله، فليحدث ما يحدث، لن تبكي مُجدداً.

نزعت كيس الوسادة، فركت عينيها ومسحت وجهها براحتيها، ثم فكرت، لماذا تبكي وما تعيشه الآن كان في يوم من الأيام حُلماً؟ لقد أمست في مكان آمن، هادئ لا تزعجها فيه صرخات زوجة أبيها المُستمرّة، تستطيع النوم في أي وقت، ولن تصحو، مُجدداً، على أوامرها الشاقة. ربما تفكر في إحضار البطاطس والحلويات إلى الصالة لتستعيد أيامها القديمة بمشاهدة مسلسلات الإنمي التي لا تنتهي، أي راحة أعظم من هذه؟

سحبت نفساً ثم زفرت بارتياح، فيصل غير موجود، تستطيع الخروج من الغرفة متى شاءت.

خرجت نحو المطبخ، فتحت الثلاجة، رأت مشروبات متنوعة مرصوفة على الباب، قوارير مياه، قهوة مثلجة، عصائر ومشروبات غازية. وفي الرفوف الوسطى، تصطف أكياس البسكويت والشوكولاتة والكعك. كانت معدتها تزقزق جوعاً، أرادت أن تمد يدها نحو الكعك، ولكنها تراجعَت في آخر لحظة، بعدما تذكرت أن لهذا الكعك، ولكل شيء في الثلاجة، ثمناً.

تلقت حولها خائفة، كيف لم تنتبه لهذا الأمر؟ إن كان لكل شيء ثمن، فكيف تدفع هي ثمن جلوسها في هذا المكان؟

قد يكون الثمن غالباً، مكلفاً، قد تضطر لأن تتخلى عن شيء، شيء يكون ثمناً لبقائها هنا.

ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟ تدفقت الأفكار السوداء في دماغها بجنون، ثم أغلقت باب الثلاجة، وتوجهت نحو الأطباق المتسخة المتراكمة فوق طاولة المطبخ، وحملتها، لتغسلها وتعيدها إلى أماكنها. قررت منذ تلك اللحظة، أن تساهم يومياً في ترتيب الجناح، لا بد أن يكون لجلوسها فائدة.

فركت الصحون بالإسفنج والصابون، ثم رتبها في الخزانة. لقد كانت هناك غسالة للصحون، ولكنها لا تجيد استخدامها. توجهت إلى الصالة وحملت منفضة السجائر الخاصة بفيصل، غسلتها جيداً، ثم أعادتها إلى مكانها نظيفة. نظفت الصالة، ورتبت أيضاً غرفة فيصل وسريره. بعدما انتهت من الترتيب، كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، دخلت إلى غرفتها، أقفلت الباب مرتين، ورغم أنها لم تكن تشعر بالنعاس، ارتأت أن تدفن جسدها تحت اللحاف الدافئ، إلى حين عودة فيصل بالعشاء.

(4)

في حلول العاشرة والرابع مساءً، أوقفت سيارتك أمام الفندق، ثم نزلت، وبيدك أكياس كثيرة، تفوح منها رائحة الدجاج المشوي.

دخلت إلى المصعد، وضغطت على الرقم اثنين، وأنت تبتسم ابتسامة خافتة. لطالما فكرت طيلة الأيام القليلة الماضية في استئجار فندق قريب تهرب إليه بعيداً عن والدك وخلافك المستمر معه، فبعد أن قبضت الشرطة على فهد، صديقك الأقرب، وعلى بقية الأصدقاء، ما عاد هناك داع للذهاب كل يوم إلى الاستراحة البعيدة، الخالية من الناس والحياة.

لربما كان الهاجس الوحيد الذي يؤرقك هو الوحدة، أنت تخاف الوحدة، لا تريد أن تأكل وتنام وتصحو وحيداً، لأن فكرة العزلة مخيفة إلى حد ما. العزلة ملاذ التعيس، يلجأ إليها هرباً من حربه مع الآخرين، ليخوض ألف حرب مع نفسه. هذا الهاجس المخيف كان يجبرك على العودة كل يوم إلى بيت أبيك، حيث الكآبة، والظلام، والمشكلات اليومية في حضرة كل غداء وعشاء. ولكن الآن، مع وجود لemy، لست مضطراً لمواجهة المشاكل.

مشيت في الممر الهادئ المؤدي إلى الجناح، فتحت الباب، ثم تلفتت يميناً ويساراً وناديتها بصوتك. وضعت الأكياس على الطاولة في الصالة، التفت نحو المطبخ، كانت نصف أنواره مغلقة، نظرت باتجاه الممر، ثم زفرت مستاءً، وأنت ترى باب غرفة لemy مغلقةً. هل نامت؟ أم رجعت إلى عاداتها القديمة في إغلاق الباب فور مجيئك؟ كيف يمكنك أن تلقى الأُنس في وجودها وهي تُغلق الباب في وجهك كل مرة؟

توجهت نحو غرفتها، طرقت بابها، هذه المرة، بهدوء، على غير العادة.

- لemy، لقد أحضرت العشاء، افتحي الباب هيا، وإلا سأتناول الطعام وحدي، لن أبقى لك شيئاً.

توقفت عن الطرقي حين سمعت صوت خطواتها القادمة، رأيته تفتح الباب فتحة صغيرة، فابتسمت حين رأيته:

- لماذا لا تحبين أن تشاركوني الطعام على المائدة؟ لماذا لا تتصرفين كالبشر وتتركين التسلسل كل ليلة إلى المطبخ مثل الفئران؟

لم تسمع لها رداً، أشرتُ بأصبعك نحو الصالة:

- العشاء جاهز، هيا اتبعيني.

رجعتُ إلى الصالة وإلى الأريكة، ثم رأيتها تمشي نحوك بخطوات بطيئة جداً، توقفتُ قريباً منك، وسألتك، بتردد:

- فيصل، أيمكنني أخذ عشائي والذهاب إلى الغرفة؟

سألتها وأنت تلوي فمك بسخرية:

- لماذا؟

أطرقتُ رأسها:

- أخجل، لا أستطيع تناول الطعام أمام رجل.

رفعتُ حاجبيك، هذا كلام جديد، لم تسمع به يوماً.

- وأنا أكره تناول الطعام وحدي، اسمعي لـمى.

اعتدلت في جلوسك، ثم خاطبتها بهدوء:

- أنا لم أقبل بإبقائك معي إلا كرهاً للوحدة، أنا وحيد، والدي متزوج من أخرى، وأمي أيضاً متزوجة، أصدقائي لا أظن أنهم سيتمنون رؤيتي مجدداً. لا حق لي في الاستقرار عند أمي في بيت زوجها، ولا أحب البقاء في بيت أبي، كم أكره الجلوس معه، وكم أكره ذلك البيت، كل بقعة فيه تشعرني بالكآبة.

نظرتُ إلى وجهها، كانت متفاجئة، ساكنة ومُنصتة لحديثك كأنها تحثك على مواصلة السرد. أكملت:

- أتدريين أن بقاءك معي مُخاطرة؟ أنسيتِ كيف كان ينظر إلينا موظف الفندق فور دخولنا إلى هنا؟، ربما أجد نفسي، في أي لحظة، مُتهدماً بجريمة خطف.

رأيتها تضيق عينيها، وتنظرُ إليك بوجع. فواصلت:

- رغم هذا كله، قبلت بهذه المخاطرة لأجلك، بشرط واحد، أن تجلسي معي كل يوم. أريد أن أسمع صوتاً غير صوتي، لقد سئمت الوحدة، أريد أن تملئي لي حياتي، يا لـمى.

بدأت دموعها تسيل من عينيها، سمعتها تسأل، سؤالاً مُغلغلاً بالرجاء، مشبعاً بالأمل:

- هل ستساعدني يا فيصل؟

أومأت برأسك:

- بشرط، أن تجلسي معي لنفكر معاً في حل، الهروب والاختباء يا لى، ليس حلاً.

هزّت رأسها، ثم مسحت عينيها بحركة طفولية. ذهبت إلى المطبخ، وعادت بعد دقيقة بأطباق كثيرة، قامت بتوزيعها على الطاولة السوداء المركونة عن يمين الصالة. فتحت أكياس العشاء، أخذت صحناً وقامت بتفريغ الأرز الأبيض فوقه، ثم صحناً آخر للسلطة الخضراء، وصحناً ثالث لترص عليه أسياخ الدجاج المشوي وقطع الخبز.

حملت نفسك إلى الطاولة الأخرى، على الكرسي الأسود جلست مُقابلاً لى، التي جلست على استحياء، حاضنة كفيها، مطأطأة رأسها.

كان عشاءً صامتاً، كنت تأكل بشهية مفتوحة، وترفع رأسك بين الفينة والأخرى لثراقب لى الساكنة التي تأكل كما العصافير، تقضم قضمات صغيرة جداً لا تُناسب جوعها الشديد.

تتمنى لو تخلق معها حديثاً طويلاً عن أي شيء، لا معنى لتناول عشاء تحت أضواء صفراء مع شخص ساكن، لا يُجيد الكلام ولا حتى التحديق المتواصل في بؤبؤي عينيك، حيث تصمت الأفواه. ولكن إن كان ذلك الشخص شارد الذهن مشغول البال لديه ما يكفيه من الهموم وفي صدره أكوام حطام، أسيكون مزاجه صافياً ليسمع منك حديثاً تافهاً، وترهات لا فائدة منها؟

دقائق، ثم تركت ملعقتك بتضجر، وخاطبت لى بلهجة مُستاءة:

- لى، تكلمي أرجوك.

رفعت رأسها، نظرت إليك، فابتسمت لها:

- أوجب أن أسألك حتى تنطقين؟

رفعت كتفيها، وابتسمت ابتسامة صغيرة. لم يكن لديها ما تقوله لك.

- في أي صف تدرسين؟

أخذت قلب ملعقتها في صحنها، ثم أجابت:

- لو كنت أدرس، لكنت الآن في أولى متوسط.

- وما الذي منعك من الدراسة؟

- بعد أن هرب خالد، لم أجد من يذهب معي مُمسكاً بيدي ليوصلني إلى المدرسة، ولن تكلف زوجة أبي نفسها باستئجار سائق لي.

هكذا أجابت، ثم سكتت، ليعود الصمت يملأ الأجواء.

عادت لتأكل طعامها بهدوء، وتركتك في سكونك، تنظر بسخرية إلى باقة الورد الأحمر المركونة على يمين الطاولة، والشمعدان الذي تنتصب فوقه ثلاث شمعات بيضاء. كل شيء كان مُحضراً لجلسة راقية، يغيب فيها العقل تحت نشوة الحب، ودفء الكلمات. تشتتم في داخلك إدارة الفندق، كيف نسوا أن هذه الأشياء لا يجب أن توضع في أي طاولة، وأمام أي شخصين؟

أنت لا تنتظر من لِمى حُباً، أنت نازحٌ إليها. لِمى هي الشخص الوحيد الذي يمكن أن تعتبره ك (خليل) بعد فهد، لِمى هي الوحيدة التي ستجد عندها أنساً وسعادة، وفي أحاديثها، سروراً يبدد ملل أيامك.

لِمى أمست إنساناً، من بين كل الناس، تلوذ إليه.

لجوؤك إليها يُشبه لجوءها إليك، أنت بحاجة إلى شخص يملأ فراغ حياتك، وهي بحاجة إلى شخص تهرب إليه، بعد أن خذلها القريب. لِمى وحيدة، تشبهك في وحدتها، وأنت وهي، تائهان. الأرواح التائهة في السماء، ملاجئ لبعضها البعض.

في لحظة، نظرت إليها، وهي تتعارك بملعقتها مع حبات الأرز، كلما أرادت انتشار القليل منها، دفعتها لتسقط خارج الصحن.

- هل استخدام الملعقة صعب إلى هذه الدرجة؟ جربي الأكل باليد، إن كنت لا تجيدين استخدامها.

قلتها وأنت تبتسم، كنت تشبك أصابعك أسفل ذقنك، وتنظر إلى عينيها مباشرة. توقفت لِمى عن الأكل، تركت الملعقة وأطرقت رأسها، وغدا وجهها مُحمرأ، مكسواً بالخجل. نظرت صدفة إلى كفيها، التي صارت تفركهما بتوتر. انتهت إلى بقع بنية كانت في أطراف أكمامها، مسحة تراب، وبقعة على شكل خط أبيض ينتهي عند طرف الكم. قطبت حاجبيك، ثم نظرت إلى شعرها، الذي كان مجعداً مُشتتاً مُقرف المنظر، بعضه مبلول وبعضه جاف،

متطاير ويحتاج بشدة إلى تمشيط وترتيب. رأيت أيضاً بقعة صفراء على عباؤها، قريباً من صدرها.

ارتفع الاشمزاز إلى وجهك، إنها تحتاج إلى عباة، وملابس جديدة. تحتاج أيضاً إلى أحذية، فمنذ أن جاءت إلى هنا، لم ترتدي أي حذاء. لمي تحتاج إلى اهتمام، إنها بحاجة إلى رعايتك، لا تُهملها يا فيصل.

- أتدريين يا لمي، يجب أن أذهب إلى السوق، إنك بحاجة إلى ملابس، حالتك الريبة هذه لا تعجبني.

أخذت تنظر بحزن إلى اطراف أكمامها، وأطراف شعرها المنسدلة على كتفها، الجافة والمتشابكة. رتبت شعرها بيدها بصورة سريعة، مسحت على رأسها ثم خبأت ذراعيها تحت الطاولة، تكومت، غاصت في نفسها، كانت ذابلة حُزناً وخجلاً.

- هل جرحت مشاعرك؟ عذراً، لم أكن أقصد.

قلتها بلهجة حنونة، فأجابتك بياس، بعد أن سحبت نفساً:

- لا بأس، كنت أعلم أنني بكاملتي مقرفة.

- لا أنت جميلة، ملابسك فقط ليست جميلة.

أردفت، حينما لم تسمع لها رداً:

- لذلك سأشتري لك ملابس جديدة، لتصبحي كاملة الجمال، رغم أنك في نظري، في كل حالاتك. جميلة.

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ورغم أنها أشاحت بنظرها بعيداً، استطعت أن ترى لمعة عينيها، وتلك الفرحة الظاهرة.

قلت بفرح:

- لمي، فلنتحدث أكثر، الليل طويل، لا أريد أن نبقي صامتتين.

قالت بابتسامة:

- تكلم أنت، أنا سأسمعك.

- عن ماذا أتكلم؟

- عن نفسك.

- أحكي لك عن نفسي؟

هزت رأسها بالإيجاب، فقلت:

- حسناً، بدايةً، يبدو لي أنك لا تعرفين عمري حتى الآن، أنا يا لى في السابعة والعشرين.

رأيت نظراتها المذهولة، كأنها استشعرت فرقاً هائلاً بينك وبينها. أكملت، متجاهلاً دهشتها:

- وحيد والديّ، وهما منفصلان منذ أكثر من ست سنوات. أكثر شيء أحبه في هذه الحياة دراسة علم النفس، تخصصي الجامعي، رغم أنني لم أتمم دراسته مُكرهاً.

- لماذا؟

- مللت، أصبحت الدراسة صعبة ومُتعبة، لم أعد أرغب في مواصلتها.

سألتك باستغراب:

- أين تعمل إذاً؟

- أنا لست موظفاً، ولا أحتاج الآن إلى وظيفة.

ثم رأيتها تفكر قليلاً، وتتساءل:

- لماذا أحببت علم النفس؟

بدأ الحوار يصبح لذيذاً منذ سألت لى هذا السؤال. تساءلت عن أنسب طريقة تشرح فيها علم النفس لطفل، بعيداً عن التفاصيل. أتخبره أن علم النفس حيث لكل سلوك تفسير؟ ابتسمت لها بلطف، وحاولت أن تبسط لها الشرح، كي يستوعبه عقلها:

- سابقاً لم أكن أعرف شيئاً عنه، ثم تعلمت من صديق لي أنه يعطي القدرة على تفسير كل سلوكيات البشر. منذ صغري يا لى وأنا أحب تحليل الشخصيات، أعطي لكل شيء سبباً، ولكل حركة تفسيراً، أحب اكتشاف المعاني المُضمرّة لكل شيء. في علم النفس، يعلموننا يا لى تحليل الذات البشرية، ومعرفة أنماطها وتفكيرها. يعلموننا كيف يتصرف الإنسان في مواقف معينة من حياته، كيف تكون ردات الفعل تجاه المواقف العصيبة، وكيف تُفسر.

يعلّموننا أن لكل عمر تفكيراً، ولكل شخص حاجات نفسية مختلفة، تحدد حسب جنسه وعمره، ومكانته بين أفراد الأسرة. يعلّموننا أيضاً أسس التعامل مع الأطفال، أسس التربية النفسية، وأسس استمالة العقول. كان لتخصصي هذا دور في صقل موهبتي وتنميتها، الأهم، أنني تعلمت بعدها أن أقرأ الكلام في وجه من لا يتكلم، أو عبر عينيهِ الناطقتين. ففي كل وجهٍ صامت، كلام.

- أكمل يا فيصل، كلامك جميل.

قالتها بشغف طفولي، فابتسمت حتى غاصت عيناك:

- ربما أكثر ما يميز شخصيتي هو أنني مُستمع جيد، أنا لا أتضجر من الاستماع والإنصات إلى من يشتكي لي، حين يفتح لي أبواب قلبه، ويشرّع أمامي نوافذ أوجاعه. أنا أملك قدرة عظيمة في تحليل الشخصيات، وقراءة أفكار الناس. أستطيع، أحياناً، أن أقرأ عبر عينيك ما بقيت لأيام عاجزة عن قوله. لقد كنت أفكر في أن أصبح أخصائياً نفسياً، قالوا لي إن هذا سيدفعك للجنون، غير أنني موقن بقوتي، أنا يا لمى جامد القلب، لا أتأثر بسهولة.

- لم أكن أتوقع أنك تملك هذه الشخصية.

- قلت مُبتسماً:

- أما أنا، منذ أن رأيتك يا لمى، توقعت أن وراءك قصة. اسمعي، ستحدثيني يوماً عن الماضي، عن أسرتك، عن والدك، وعن أخيك، خالد. هذا الأخير، على وجه الخصوص، أريد أن أعرف عنه كل شيء. سأسمع منك يا لمى كل ما عشتِه في طفولتك وحتى الآن، ففيما يبدو لي، أن بقاءك معي سيطول.

قلت جملتك الأخيرة، بنبرة غريبة، وأنت تركز عينيك في بؤبؤي لمى. داهمت لمى حالة من السكوت الغريب. أكملت عشاءك، ثم نهضت إلى الغرفة، تاركاً إياها غارقة في بحور أفكارها.

(5)

بعد مرور ثلاثة أيام، استيقظت من نومك ظهراً، عكر المزاج، ضيق الخلق، تشعر بشيء ما يجثم على صدرك.

نهضت جالساً، أسندت ظهرك إلى وسادة. حككت كتفك العاري بشدة، حتى احمرّ جلدك. تلفتت حولك بتأففات مُستاءة، تحاول جاهداً تذكّر متى وكيف نمت.

أزحت الغطاء برجلك، فانكشف لك جسدك العاري. شيئاً فشيئاً، بدأت تلمح تفاصيل ليلتك الماضية، وأنت ترى حاسوبك المحمول مقلوباً ومرمياً في طرف السرير، قريباً من قدميك.

كانت ليلة لذيذة، ومُنهكة في الوقت ذاته. خضت معارك عنيفة مع جسدك، أفرغت كل شيء على الفراش حتى سقطت مثل صريع. خائر الجسد مُنهك الاطراف، حتى غبت في نوم عميق. لربما كانت ركلات قدمك اليسرى هي من دفعت حاسوبك إلى حافة السرير، حاسوبك الفضي الذي يحمل شعار تفاحة، الذي نقل إليك عبر شاشته الصافية عوالم أخرى، عوالم دنيئة، بلا فلتر تنقيها من الدنس.

نهضت من سريرك بتثاقل، يجب عليك أن تستحم، ولكن الجو بارد قليلاً، ومع هذا يجب أن تستحم قبل أن يأتي الليل فيزداد الجو برودة. تبدو لك تلك اللحظة جميلة، وأنت تعيش لذة تفاصيلها. لكن بعد أن تنتهي، حتماً عليك أن تدفع ثمنها. ثمنها الذي يكون، في أبسط الحالات، استحمام بارد لا يُطيقه جسدك، وفي أسوأها، ألم في أسفل الظهر، يُصاحبه ضيق حاد في المزاج.

توجهت نحو الحمام، القابع بداخل الغرفة. ثم غسلت يديك ووجهك، واغتسلت.

بعد دقائق خرجت وجسدك يرتعش، فتحت الخزانة سريعاً، كنت قد أحضرت عدداً من ملابسك إلى الفندق قبل عدة أيام، ارتديت سروالاً قطنياً أسود، وبلوزة رمادية صوفية.

مشيت نحو نافذة غرفتك الواسعة، وأنت تضع فوق شعرك الرطب منشفة بيضاء، تزيح ستائر الساتان، ثم تُشرع نافذتك المُطلّة على أحد شوارع العليا الرئيسية. تستند بمرفقيك على حافة النافذة، تراقب بصمت، السيارات، وضجيجها.

الشوارع مُزدحمة، الناس عائدون من دواماتهم، بأجساد مُرهقة، وبطنون فارغة. لا شك أن كل واحد منهم متشوق للعودة إلى بيته، حيث أسرته، زوجته وأبناؤه. سيجلس معهم على الغداء في اجتماع حميمي، يستمع إلى ما يقصه عليه أبناؤه من مواقف طريفة، وأحداث خُلق في يومهم الدراسي. سيحادثهم هو أيضاً بمشقات يومه الطويل، سيُزيح همماً أثقل كاهله.

ولن ينتهي يومه عند هذا، سينام لساعتين، ثم سيستيقظ ليشرب القهوة بجوار زوجته، سيسمع منها حديثاً حلواً، ستدله، وتنسيه هموم يومه. ربما سيأخذ زوجته وأبناءه في رحلة مسائية، إلى الملاهي، إلى حديقة الحي، أو إلى أحد الأسواق التجارية.

هذا يومه، أسرة، منزل، عمل، أصدقاء، عبادة، صلاة. هو يعرف حقاً كيف يعيش. يومه مملوء بالأحداث، وأنت كل أيامك مملوءة بالفراغ.

تستيقظ كل يوم، تأكل وتشرب، تشاهد فيلماً، ربما تخرج لتمشى في الشوارع بلا هدى، ثم تخلد إلى النوم. صار الشيء الوحيد الذي يختلف في أيامك هي أوقات نومك، وأوقات استيقاظك، وحسب.

الملل يسيطر على مناخاتك، ولا يحق لك أن تسأل عن السبب. الحياة الخالية من الصلاة والذكر هي حياة صامتة، تشعر فيها أنك خلقت كما البهيمة، شهوة بلا عقل، ولا معنى حينئذ من العيش. حياة يسودها الفراغ، الهم، والضيق الداخلي. الحياة بلا صلاة، هي حياة بلا حياة.

ورغم مضي خمس سنوات على ركعتك الأخيرة، ورغم اعتيادك على فقدان الراحة، كان الشيء الوحيد الذي يقطع خيط الفراغ الطويل في حياتك هو ضيق حاد في الصدر، يتسلل إليك فجأة، من فترة إلى أخرى. يأتي عادة بعد سيئة تقترفها، شهوة تتذوق لذتها لحظة، ثم تدفع ثمنها لحظات.

في الفترة الأخيرة، وبعد تلك الحادثة تحديداً، صار هذا الضيق الحاد، يأتي أحياناً، بلا سبب، وبلا مقدمات. يشرع أبواب صدرك فجأة، يقتحمك، وينغص سعادتك. في السابق كان نتيجة ذنب ارتكبته، الآن لا يحتاج إلى مقدمات، أو حجة يبرر بها سبب مجيئه.

أغلقت النافذة، ثم تنفست بعمق، تحاول أن تشرح صدرك المكتوم. خرجت إلى الصالة حيث تجلس لى بملابسها المتسخة ذاتها، دافئة يديها في حضنها، تشاهد التلفاز بانسجام تام. ملامحها تزداد ذبولاً يوماً بعد يوم. تشعر بالأسف على حالها، وأنت تُبصر احمرار عينيها، والحزن الذي يُغرقها.

إنها تزداد حزناً كل يوم، خصوصاً إذا ما جاء الليل. ذات مرة نامت مُبكراً، ونسيت إقفال الباب، بل تركته مُوارباً. كادت عينك أن تخرج من محلها حين أبصرت تلك الفتحة الصغيرة، بين الباب والجدار. اعتراك الفضول، وقررت، أن لا تضيع من يديك تلك الفرصة، في تلك اللحظة تستطيع أن تأكلها بعينيك، كيفما تشاء، وحتى طلوع الفجر.

دخلت إلى الغرفة، كانت المصابيح مُضاءة. اقتربت من السرير فرأيت للحاف يغطي جسدها، فيما بقي رأسها مكشوفاً. اقتربت أكثر، تمعنت في وجهها الذي دفنت نصفه الأيسر

داخل الوسادة، كان هناك انتفاخ أسفل عينيها، واحمرار في أنفها، استطعت أن ترى دموعاً قليلة تبلل رموشها. إنها تبكي كل ليلة، مخنوقة، حاضنة وصادتها، أسيرة عبّراتها.

تُرى ما الذي يجعلها تبكي، تحديداً، حين يأتي الليل؟ هل تذكرها وحشته بوحشة تلك الليلة، التي غاب فيها خالد، وغاب بعده الأمل، والفرح، والأمان؟

تنظر إليها بأسى، أثناء جلوسها أمام التلفاز. إنها تنزف من عينيها فُقداءً. يبدو أن خالدًا يعني لها شيئاً عزيزاً، إنه، على ما يبدو، النَّفس والحياة والحُبور.

مشيت إليها، جلستَ على الأريكة، قريباً منها. أربكها اقترابك الشديد، فثبتت أنظارها على التلفاز، كأنها خافت أن تلتفت إليك. نظرتَ إلى ما كانت تُشاهده، رسوم متحركة مخصصة للفتيات، فتاة مُقاتلة، بزي أسود وشعر برتقالي قصير. تساءلت لماذا تحب مشاهدة القتال؟ ففيما تبدو لك، مُسالمة وناعمة جداً.

سألتها، وعينك على التلفاز:

- ماذا تفعلين؟

- انتهيتُ من ترتيب المكان، ففكرتُ في مشاهدة التلفاز.

التفتت إليها، صوبت أنظارك نحو عينيها:

- تبدين لي حزينة.

هزّت رأسها بحزن، من دون أن تنطق. خاطبتُها بحنان هادئ:

- لقد وعدتك أن أساعدك، ولكني، أنا بنفسني لا أعرف كيف. هل أعيدك إلى بيت أبيك؟ ولكنك تكرهين الجلوس مع زوجته، كيف أساعدك يا لَمى؟

نظرتُ إليك، فرأيت في عينيها خذلاناً وانكساراً. ماذا لو كان الأمل مُعلقاً في شخص غاب في ظلمة الليالي وذاب؟ ما أسوأ من الموت، إلا موت الأمل.

تعلقتُ عيناها في عينيكَ لثوانٍ، ثم رمت رأسها على ركبتيها، وراحت تبكي.

- لا أدري.

تهدت، إنها المرة الأولى التي تشعر فيها أن على قلبك همّاً ثقيلاً. لم تجرب في حياتك أن تحمل مسؤولية أحد. جاءت لَمى اليوم، لتذيقك ذلك الشعور، رغماً عنك.

مسحت على شعرها بهدوء، ثم نطقت، بتلك الجملة، التي أحيث فؤاد لى.

- سأجد لك خالد. سألتقطه من بين الجموع، وأحضره إليك.

رفعت رأسها، وقالت، بعد شهيق متفاجئ:

- ستبحث عنه؟!

- نعم، أنا جاد في كلامي، سأبحث عنه في كل مكان، سأطلب المساعدة لو احتجت إلى ذلك، وأنت يا لى، ستساعديني أيضاً.

أمسكت بكفها الصغيرة، ضغطت عليها، ثم ضحكت لها، ضحكة جميلة، تغوص خلالها عيناك. كنت مخططاً لإسعادها، وكفها عن البكاء. لم تعلم أنك كلفت نفسك بمهمة شبه مستحيلة، مهمة ستسلب وقتك وراحتك وسبات عينيك.

على الغداء، جلست لى أمامك على الطاولة، هذه المرة كانت بنفسية مرتاحة، وصدر منشرح، تبتسم ابتسامة خجولة، كلما وقعت عيناها عليك.

بدأتما تآكلان بسكوت تام، إلى أن قطعت لى خيط السكون، وهي تقول، مبتسمة:

- الجريش كانت أكلة خالد المفضلة.

سألته باهتمام:

- حقاً؟

هزت رأسها بفرح:

- نعم، كانت زوجة جارنا في الحارة تُعدّه لنا من وقت لآخر، وترسله إلى بيتنا.

شعرت بأنها تريد أن تقص عليك شيئاً من حكايا الطفولة، ابتسمت لها حائماً إياها على مواصلة السرد، فتركث ملعقتها على الطاولة وراحت تحكي.

"زوجة جارنا، يا فيصل، كانت بمثابة أم لي. ذات يوم، سرد لي خالد حكاية ولادتي، يقول إنه كان برفقة أبي في المستشفى، حتى بشرت إحداهن أبي بخبر سعيد، ولادة طفلة جديدة له. لم يكذب يفرح أبي، حتى أتاه الخبر الآخر، كصاعقة زلزلت كيانه. توفيت الوالدة، قالت الممرضة، بأسف شديد. أجهش أبي بالبكاء، يقول خالد: كانت المرة الوحيدة التي رأيت فيها دموع أبي. حملني أبي بين يديه، ثم خرج من المستشفى، يتبعه خالد. عاد إلى البيت، طرق باب الجيران وهو ينشج نشيجاً مُراً، فُتح له الباب، فمد ابنته إلى جاره، يقول، وهو يكاد يشرق بدموعه، توفيت زوجتي، اعتنوا بابنتي، أرجوكم. كانت جارتنا لم تُنجب بعد، فأخذتني إلى قريبتها، والتي كانت ابنتها الصغيرة لا زالت في مهدها. أرضعتني تلك المرأة مع ابنتها، وتولت جارتنا رعايتي والاهتمام بي. حين بلغت الخامسة من عمري، صرت أخرج مع خالد للعب، تزورنا جارتنا أحياناً، وترسل لنا حصة من طعامها يومياً. تأتي خادماتها كل أسبوع لتنظف لنا بيتنا، كانت تأمل بأفعالها تلك أن تنال الأجر من الله. صرت لا أناديهما إلا أمي، لم أعرف أمّاً غيرها".

- يا الله، حكاية جميلة يا لمي.

ابتسمت لمي بهدوء، وواصلت حكايتها.

"حكايات طفولتي يا فيصل جميلة، جميعها خُلق في حارتنا الصغيرة والتي كانت تعني لنا العالم كله. كنا أنا وخالد لا نُحب الجلوس في البيت، كان الشارع بالنسبة لنا ملاذاً وملجأً، نهرب إليه كل يوم، إذا ما ضاقت بنا جدران منزلنا. نتجول في الحارة حول البيوت، أو بين الدكاكين المطلة على الشارع. كنت أملك صديقات كثيرات بمختلف الأعمار، من لمياء التي تصغرني بعامين، وحتى أم عمر، العجوز السمراء المُنهكة. أم عمر امرأة مُسنة طيبة، ترندي دوماً شيئاً مثل شرشف أخضر بنقوش ذهبية تلفه حول جسدها. تجلس أمام طاولة، مُستندة على أحد جدران ممرات حارتنا، وتبيع عليها الحلوى والمُفرقات وألعاب الاطفال. كانت تُعطيني الحلوى مجاناً كلما رأيتني. ذات يوم، قالت لي أنت صديقتي، يا الله، كم كانت فرحتي عظيمة بهذه الصداقة الجديدة، مضيت ذلك اليوم، والسرور يملؤني، كان شعوراً مُختلفاً. ربما أكثر ما كان يميز حارتنا هو ذلك الأمان الذي يسودها، حينما كنت في الخامسة كنت أخرج وحدي أحياناً وأمشي بين الرجال والصبيان، أبتعد عن المنزل قليلاً، أحداث هذا، وألعب مع ذاك، أجلس بين الرجال، لا أحد يؤذيني بشيء. لقد كان لي أصدقاء رجال أيضاً، كنت أعرفهم بأسمائهم، ابتسم في وجوههم فيهدونني حلوى أو علكة، كانت صداقة لا تنسى".

سكتت لمي، وعادت تقلب ملعقتها في الطعام، بابتسامة خافتة. مع سكوتها، بدأ عقلك ينسج صوراً وتخيلات حول طفولتها، وسرعان ما ارتسمت في خيالك صورة واضحة لحارة متواضعة، يغطيها الليل، لا يُشتت ظلامه سوى مصابيح بيضاء خافتة، مثبتة فوق أبواب منازل شعبية وقديمة. تلك المنازل، يلعب أمامها أطفال حُفاة الأقدام بكرة نصف

منفوخة، ورجال طيبون، يجلسون على عتباتها، أو قريباً من المسجد، يُسلمون على القادم والرائح. رأيت أيضاً جيراناً متآلفين، أصدقاءً متأخين، لا تزال عادات تبادل الأطعمة والمشروبات قائمة بينهم. تبدو طفولتها بسيطة، بساطتها كافية بأن تجعلها كذكرى خالدة، لا عابرة. ماذا تقول أنت عن طفولتك؟ انظر إليها، إنها تبتسم وهي تُراقب صحنها الممتلئ بسرّحان، لا بد أن ذكريات الطفولة حاضرة في مُخيّلتها، لماذا لا تتذكر أنت من طفولتك شيئاً واضح المعالم؟

غرفة واسعة، ألعاب، جدران، معالم مُشوشة، هذا ما تبادر إليك، حين حاولت عبثاً تذكّرها، ذكريات فارغة، خالية من شيء يحيي الحنين.

بعد دقائق من الصمت، سألتك لمى:

- وأنت، كيف كانت طفولتك؟

عقدت حاجبيك، وهزّزت راسك نافياً:

- لا أدري، لا أتذكر أنني كنت أخرج إلى الشارع كثيراً، كنت أخرج مع والديّ فقط، كان لدي ألعاب ولكني، في أغلب الأحيان، كنت أعب وحدي. لم يكن لدي أخ مثلك.

- حقاً؟

كانت تعابير الأسف تكسو ملامحها، ولما لاحظت تغيّر تعابيرها، وتلاشي ابتسامتها، كان عليك أن تجعلها تعاود سرد حكاياتها، حتى ترى لمعة عينيها، وتلك الابتسامة، الطاهرة.

خاطبتها، بابتسامة واسعة:

- هيا اكلمي أنت كلامك، أريد أن أعرف أكثر عن طفولتك. ماذا كنت تفعلين أنت وخالد في المنزل؟

- حين يأتي الليل، نذهب أنا وخالد إلى الصالة، مع ما اشتريناه من مثلجات وحلويات، لنجلس أمام التلفاز، ونشاهد أفلام الكرتون.

- طوال الليل! وأين والدك ألم يكن ينهاك عن ذلك؟

- والدي كان يخرج كثيراً. لا نراه إلا وقت النوم.

تساءلت بدهشة:

- هل يترك طفليه وحدهما في المنزل؟

أومأت برأسها، ثم أردفت:

- قد تظن أنها أنانية منه، ولكنه بفعلته هذه جعلنا نعيش بسعادة عظيمة، كنا أحراراً. إن لم يكن لدينا دراسة، نسهر أمام التلفاز حتى أوقات متأخرة من الليل، لم أكن بحاجة إلى وجود أبي ما دام خالد بجانبني.

أخذت تقلب ملعقتها في الصحن، وترسم دوائر عريضة، وعيناها تلمعان. أخبرتك أن خالداً لم يكن مجرد أخ، وأن نضوجه بدأ من تاسعته، حين صار يصحح أخطاءها، ويراقبها أثناء اللعب، ويأخذ بيدها عن الغرباء. كان يحرم نفسه أحياناً من اللعب مع الأولاد في أماكن بعيدة حتى تبقى عينه عليها، وحين تنتهي صلاة العشاء، يأمرها بالدخول إلى المنزل، كان مهتماً وحريصاً ومسؤولاً. وليُخفف عنها فراق صديقاتها، يفتح لها التلفاز نهاية كل يوم، ويتركها تختار فيلمها المفضل، ثم يشاهده معها بكامل رضاه. لم تصدق، أبداً، غرابة الحكاية، وما إن أتمتها، حتى سألتها بدهشة:

- لا أصدق! كم كان عمره؟ تسع سنوات!

قالت بجدية:

- لم أكذب بحرف، كان يعلم أنه لو منعني من مشاهدة شيء أحبه سأبكي كثيراً.

نظرت إليها، والدهشة تطفح من عينيك. أي طفل يتحمل تلك المسؤولية العظيمة مثل خالد؟ قاطعت لى تساؤلاتك بنبرة ساخرة، يشوبها الحزن:

- كل ذلك ما كان ليحدث لو كان أبي موجوداً في المنزل. كان غيابه نعمة، وحين تزوج، لم يعد يغادر المنزل إلا وقت الدوام.

أطلقت تنهيدة طويلة، مشحونة بالوجع، ثم صارت تواصل سرد الذكريات.

"لو ترى كيف كانت أشكالنا يوم زواج أبي! ذلك اليوم، وقفنا أنا وخالد في الفناء الخارجي أمام الباب، لاستقبال أبي وزوجته الجديدة. حين دخلا، كادت أعيننا أن تخرج من محاجرهما، ونحن نرى أبي، الأربعيني، والشعيرات البيضاء النائثة في لحيته، بجوار امرأة شابة، بيضاء، جميلة الملامح. في تلك اللحظة، تساءلنا، كيف يمكن أن تتزوج أبي امرأة كهذه؟ لاحقاً علمنا أن زواجهما لم يكن غريباً ما دام متوافقين في الشخصيات وفي كل شيء. دخلت تلك الزوجة الجديدة، وكأنما دخلت وراءها اللعنة، لتسكن بيتنا إلى الأبد. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد خالد يفعل شيئاً، حتى حين فتح أبي غرفة أمي القديمة قائلاً

لزوجته: هذه غرفتك، لم يفعل شيئاً. صار موقفه دفاعاً لا هجوماً، والأغلب أن هيبة والدي هي السبب. دخلت الزوجة غرفة أمي فصرنا لا نراها كثيراً، تختفي هي وأبي دوماً خلف ذلك الباب الموصد. لم يتغيّر الوضع كثيراً في أول الأيام، حتى جاءت تلك الليلة، التي اشتعل معها فتيل الحرب. كنت جالسة أشاهد التلفاز، فجاءت هي وصرخت في وجهي، أمرتني أن أغادر وأترك لها التلفاز فهي تريد مشاهدة برنامجها المفضل. ليس هذا فحسب، بل قالت بأنها ستشاهد التلفاز متى شاءت، ولا يحق لي أن أشاهده إلا بعد موافقتها. ولأن التلفاز كان مصدر سعادتي الوحيد، ولأنني بلغت العاشرة ولم يعد أبي يسمح لي بالخروج واللعب، ذهبْتُ إلى خالد أستنجده، والدموع عالقة في عيني. غضب خالد كثيراً، لم يحتمل تلك السلطة التي بدأت هذه المرأة الغريبة بفرضها علينا. ذهب إليها، طلب منها أن تناوله جهاز التحكم، وكما توقعت، رفضت ذلك. حينها، حدثت مشادة كبيرة بينها وبين خالد، انتهت بحرب عظيمة، تشتعل في نفوس أطرافها".

- وماذا عن الجارة؟ ألا زالت تعتنني بكم؟

سألته، فهزت رأسها بخيبة:

- لا، انقطعت أخبارها شيئاً فشيئاً بعد زواج أبي، لأن أبي لم يعد يُغادر المنزل كثيراً فلم تستطع زيارتنا، وأنا صرت لا أخرج كثيراً، فلم أعد أراها إلا نادراً. كأني سمعت بعد وفاة أبي أنها انتقلت إلى بيت آخر، لا أدري، لقد انقطعت أخبارها تماماً.

- حسناً، وماذا حدث بعد ذلك؟

أطرقْتُ رأسها بحزن، ثم أكملت ما كانت عاكفة على سرده.

"بدأت تلك المرأة بالتسلط أكثر فأكثر، صارت أفعالها لا تُطاق. ذات يوم، وبعد مرور بضعة أشهر على زواجها، بدأت تتذمر من أعمال البيت. قالت لأبي بأنها متعبة، لا يمكنها تحمل أعباء المنزل وحدها، كانت تضع يدها على ظهرها، تتصنع في شكواها الألم، والعناء، والحسرة. طلبت من أبي أن يجعلني أساعدها، لم أمانع أنا في البداية، وافقت، ومشيت إلى المطبخ راضخة. ومن أول ليلة، رمت كل شيء فوق ظهري. أنتِ ستغسلين الأواني، وتنظفين المطبخ والصالة، وتمسحين الأثاث والجدران، وترتبين غرفة خالد، وأنا سوف أتولى الطبخ، وغسيل الملابس. هكذا قالت. كانت تصرخ في وجهي دائماً، حتى ألفت صراخها. ولكنها بدأت تضربني يا فيصل! كنت أحاول جاهدة أن لا أترك شيئاً على الأرض، أو بقعة على الأثاث، أو طبقاً غير مغسول، خوفاً من غضبها علي. عشت مهانة، لم أعد أضحك كما كنت. كانت تهددني بالعقاب الشديد لو فكرت في إخبار أبي، تخاف أن يكرهها، وهي التي لطالما جسدت أمامه صورة الحمل الوديع. كأنها نسيبت خالد! أو ظنت أنها ستخيفه بنظراتها المرعبة كما أخافتني بها ولن يجرؤ على فعل شيء. ذات يوم، صفعتني

بقوة، لأنني رفضت تنظيف الحمام، فركضتُ إلى خالد باكية. أذكر أنه ضحك ضحكة خافتة، ثم ضمّني إلى صدره بقوة، أخبرني أن لا شيء يستحق البكاء".

- ثم ماذا فعل؟

سألته باستغراب، فابتسمتُ لى، كأن لم يُخلق في الكون حُزن. جاءت بقصة جديدة، لا تقل عن سابقتها جمالاً.

"فتح خزانته الخشبية، وأخرج منها مجلة قصص جديدة، اشتراها لي من مصروفه المدرسي. كل دموعي جفّت ما إن رأيت تلك المجلة الوردية، وسرعان ما نسيت ألمي وأنا أتصفح مجلتي الجميلة، لكن خالد لم ينس. ذهب إليها غاضباً، ثم سمعتُ صراخاً حاداً، ووقفتُ بخوف، أطل برأسي من وراء باب غرفة خالد. رأيتَه يأخذ زجاجة عطرها ويكسرها أمام عينيها، غلا الدم في عروقها، كنتُ أراقب تعابيرها بهلع. ذهبتُ إلى المطبخ، ثم خرجتُ وبيدها عصا المكينة، هوثُ بها على كتف خالد، فاحتدّت المُشكلة، واشتد النزاع، هي ترفع العصا وتهوي بها على ظهره وكتفه، وهو يرجمها بكل ما تقع يده عليه. انتهى الشجار بعد أن أخذ خالد سكيناً جرح بها يدها، فنزفت وتألّمت كثيراً، ولم تعد قادرة على مواصلة الضرب. بعد تلك الحادثة، لم تجرؤ على ضربي، حتى إن خالد صار يهددها بإخبار أبي، فصارت تخاف منه كل الخوف".

فتحت عينيّك بانبهار تام. أن يتآلف أخوان صغيران بهذا الشكل، هذا يتطلب تضحية كبيرة من أحد الطرفين. لم تكن لى بتصرفاتها متعاونة دائماً، لم يخل سلوكها من الأنانية وتمجيد الذات. من أين لخالد ذلك الإيثار الذي جعله يضحى برغباته، وراحته، وهناء عينيّه ليقوم بدور المسؤول، أو يأخذ مكان الأب المهمل، المكان الذي لا يُوافق حجمه ولا قدراته؟

- تملكين أخاً عظيماً.

- أجل، حتى إنه كان يضحكني كثيراً!

تنهدتُ باشتياق، وراحت تستذكر بعض المواقف، المضحكة، والخالدة.

"زوجة أبي كانت مجنونة، وجنون خالد يفوق جنونها! تصور أن يجتمعا في بيت واحد! لا أنسى حينما سكب العصير على فستانها، أو يوم سرق حذاءها الجديد وخبأه خلف ثلاجة قديمة في فنانا الخارجي. يومها جلسنا على أرضية الفناء الباردة نضحك بهستيريا، ونتخيل تعابيرها المفجوعة. ضحكت من كل قلبي، وأنا أرى بطلي الأسمر، يقلد تعابيرها المضحكة بإتقان، وفي عينيّه لذة الانتصار والتشفي. لا أنسى أيضاً تلك اللحظات التي كنت أبكي فيها على عتبة الباب المفضي إلى الفناء الخارجي للمنزل، أسفل مصباح أبيض خافت الضوء كنت أجلس حزينة، أسند ظهري على الباب الحديدي وبين أحضاني دمية صغيرة،

يأتي خالد، ينحني إلي، يبتسم ابتسامة جميلة، يمسح دموعي، ثم يمد يده إلي، أمشي معه، نخرج إلى الشارع، نتجول بين الممرات، نُسلم على الناس، نلعب مع الأطفال. شرعان ما أنسى ألمي في اللعب والصراخ والضحك، لبت تلك الأيام تعود".

ارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة، أعادت الذكريات إليها بعض الحياة، وأشرق وجهها بنور داخلي قادم من بعيد، من عمق الروح.

خيم الصمت، وعادت لمي تأكل من جديد، وانغمست -كالعادة- في عراك مضحك مع الملعقة. أما أنت، كنت تبحث في ملامحها عن وجه خالد، تفكر في شخصيته الغريبة، وتحاول أن تربط بين وصفها له، وبين المواقف التي برز فيها سلوكه وتصرفاته، لتستخلص شيئاً يقودك إلى فهم شخصيته.

قد لا يكون قوياً جداً ولكنه حتماً صبور، شديد التحمل، يُقابل كل محنة بابتسامة، لا شيء يكسره بسهولة. استنتجت أيضاً أنه معتمد على نفسه، فهو يحب حل مشكلاته بنفسه، ولا يشتكى لأحد. تساءلت، أليس انتقامه بنفسه بدلاً من اللجوء إلى أبيه فيه كل مرة تُضرب لمي فيها دليلاً على اعتماده على نفسه؟ أم تراه لم يفعل بسبب خوفه من أبيه وجفاء العلاقة؟

سألت لمي بشيء من الشك:

- هل كان خالد يشتكى لأحد كثرة غياب والده عن المنزل؟

- لا أظن، خالد لا يشتكى أبداً.

- ولا حتى للجارّة؟

- جارتنا أساساً تعرف كل شيء، ماذا بوسعها أن تفعل؟ كانت، كلما رأت منزلنا مقلوباً على رأسه، تتنهد تنهيدة عميقة، ثم تدعو الله أن يهدي أبي.

كما توقعت، إنه لا يشتكى، يفضل أن يترك تلك الهموم تغلي في صدره على أن يلفظها ويرتاح. ولكن الشيء الوحيد الذي عجزت عن استيعابه هو كيف قرر ذلك الصبور أن يترك أخته الصغيرة، وهو الذي اعتاد أن يحميها بفكّه وساعديه، وحدها في المنزل؟

هل يوجد أخ في الدنيا يترك أخته مع امرأة يعرف جيداً من تكون، وأي وجه لإبليس هو وجهها؟ هذا مستحيل. يبدو خالد رجلاً منذ صغره، حتى أنك من خلال أحاديثها، أحببته كثيراً. تخيلته رجلاً شهماً، يرمي الدنيا وراء ظهره، ليقابل صغيرته بابتسامة صافية. كيف انسحب هكذا بسهولة؟

نظرت إلى لى، وهي مشغولة بالأكل، تفحصت مَحِيَّاهَا، الذي، رغم ارتياحه، كان الألم فيه واضحاً. نظرت إلى شعرها المبعثر، وحالتها الرثة. ماذا لو رآها خالد في هذه الحالة؟ كاد عقلك أن ينفجر، في محاولة تفسير هذا السلوك الغريب.

فكرت في أن تسأل لى، بحثاً لتفسير. لكنك خشيت أن تجرح شعورها، وتذكرها بخذلانه لها. أشحت بعينيك إلى التلفاز حين لم تعد لى قادرة على مواصلة الأكل بسبب هذا التحديق العميق، وآثرت السكوت، والحيرة تأكلك.

(6)

24 صفر 1437هـ

اليوم، يمر على لقاءك بلى عشرة أيام، كم كانت سريعة، لقد مضت بلمح البصر.

اليوم، سوف تخرج، أخيراً، إلى أحد الأسواق التجارية، لتشتري لها عباءة جديدة، وملابس، وأحذية تحمي قدميها الصغيرتين.

كنت تعلم كم عانت طيلة الأيام الأخيرة الماضية، وهي تغسل ملابسها، ثم ترتديها قبل تمام جفافها. كنت ترى رعشة أطرافها الصغيرة واصطكاك أسنانها، وحاجتها الملحة إلى دفء يغمر جسدها. تمنيتها أن تكسر خجلها لتأتي وتطلب مباشرة، لتشعرك بحاجتها إليك، لتسمع منها استغاثة صادقة، لكن هذا لم يحدث، لم يحدث أبداً.

فقررت اليوم أن تذهب بنفسك، قبل أن تصبح في عينيها ميت الرجولة. أخبرتها بأنك ذاهب إلى السوق، وودعتها قبل الخروج، ووصيتها بوصايا كثيرة، أهمها ألا تقلق لو تأخرت عليها بضع ساعات، وأن تُقفل الباب جيداً، ولا تفتح لشخص غريب. وأن تتأكد من هوية الطارق عبر (العين السحرية) قبل أن تفتح له الباب. الغريب أن الفندق كان آمناً جداً، أمن من أي شيء، لم خشيت عليها؟

لم تخش أبداً، ولكن كان عليك أن تثبت لها اهتمامك وخوفك.

نزلت إلى الطابق الأرضي، وقبل أن تخرج سمعت أحداً يُناديك، كان موظف الاستقبال، يسألك ما إذا كنت ستخرج اليوم أم ستُجدد إقامتك. لقد دفعت ليلة مجيئك إلى الفندق مبلغاً مُقدماً، قيمة عشرة أيام. اخترتَ عددها عشوائياً، كنت تعلم، من أول ليلة، أن بقاء لى معك لن يكون محض يوم أو يومين.

اقتربت إليه، وأنت تخرج من جيبك بطاقتك المصرفية، قلت، بعد تردد:

- لا، سابقى لى... لى...، لبضعة أيام قادمة.

أخرجَ قلماً ودفترأ، ثم بدأ يكتب، سألك:

- كم يوماً تريد؟

كم ستقول؟ أسبوعاً؟ أسبوعين؟ وإلى أين سيمتد بقاء لى؟ سحبت نفساً، ثم قلت:

- اجعلها أسبوعين.

مددت إليه بطاقتك، فتم الخصم. نزلت إلى المواقف السفلية حيث تقف سيارتك، المرسيدس السوداء، ذات الطراز الحديث. أخرجتها من المواقف، ثم رحلت تطوف حول الشوارع بلا هدى. كانت الساعة لم تتجاوز الرابعة عصراً، الوقت في صالحك، ولكنك لا تعرف سوقاً مناسباً يمكنه أن يجمع بين كل احتياجات لى. أمضيت ساعة كاملة في البحث، وسألت أحد المارة، حتى وصلت بعد صلاة المغرب إلى أحد أسواق الرياض البسيطة، والتي تتميز باشتمالها على كافة الاحتياجات المنزلية والشخصية. سوف تشتري حاجتك بسرعة وتذهب، لا تريد أن تضيع الكثير من الوقت في البحث والشراء.

بالكاد وجدت مكاناً فارغاً تركز فيه سيارتك، كان السوق مُزدحماً. تأملت لوهلة اشكال الباعة، نساءً ورجالاً، من أصحاب المحلات، وحتى الذين اتخذوا من الأرض، أو من سياراتهم ذات الصندوق الخلفي الواسع، مكاناً يعرضون فيه بضائعهم المتواضعة.

إنهم يملؤون الأرض، يتوافدون من كل أرض، ثم يقيمون هنا، بصورة عشوائية، يزاحمون الطرقات، ويتمردون على القوانين، ويحيلون الأرض غريبة، فاقدة لهويتها الأصلية. نظرت إلى هذا الخليط البشري المعجول، وتتخيل لو يحترق السوق بأكمله، وتحصد النيران أرواحهم، لو أن شيئاً ما يخمد نيران الكره في صدرك التي لم ولن تُخمد أبداً.

ترجّلت من سيارتك إلى السوق. كنت قد سألت لى عن مقاس ملابسها، لكنها لم تعرف سوى مقاس الأحذية وحسب. من أين لها أن تعرف إن كانت لم تشتري يوماً ملابسها بنفسها؟ حتى المقاس المطبوع على الملابس قد مُحي من فرط الغسيل. لذلك، قررت أن تحاول

تقدير مقاسها حسب ما تعتقد أنه مناسب لجسدها. وإن صعب عليك الأمر، فسوف تشري من كل قطعة عدة مقاسات مُتقاربة. كانت مهمة الاختيار صعبة، لم تعرف إن كانت تُحب البناتيل أم الثياب الطويلة، الملابس ذات الرسومات الطفولية أم الخالية منها، الألوان الهادئة أم الجذابة. في النهاية قررت أن تُنوع بين هذه الأصناف لتختار هي ما تريد.

أشترت لها مجموعة من البناتيل، قمصان شتوية، وبعض المعاطف الخفيفة. عباءة كتف، ملابس نوم، أحذية، ملابس داخلية، فرشاة شعر وربطات ملونة، وشرشف صلاة، كانت قد أوصتك به قبل أن تُغادر الفندق.

خرجت ويداك تمتلئ بأكياس كثيرة كبيرة الحجم، وضعت الأكياس على المقاعد الخلفية من سيارتك، أغلقت الباب، ثم التفتت إلى الوراء، إلى تلك الحشود التي تملأ السوق، وأخرجت هاتفك من جيبك، ورحت تضغط على رقم، صرت في الآونة الأخيرة، تحفظه جيداً. ثم مضت نصف ساعة، جاءت بعدها البلدية، على أثر شكوى شديدة اللهجة، اتهمت أولئك البساطين بتضييق الشارع وإعاقة المسير. نصف ساعة واحتلت الأرض فوضى عارمة، وهرع الجميع إلى الركض، إلى الرحيل، إلى لملمة بضائعهم المنثورة على الأرض، وإلى الصراخ والصراخ. تغير كل شيء فجأة، استحالت الخطوات البطيئة ركضاً مجنوناً، والأنفاس الهادئة لهثاً متسارعاً. استولي على بعض البضائع لم يسعف الوقت أصحابها في الرحيل، ثم ظللت المكان غيمة صمت، سكت الضجيج، وخمدت الضحكات، ولم تبق سوى ابتسامة صغيرة باردة، ترتسم على شفتيك.

الآن عرفت حقاً معنى النصر.

كانت لفي في استقبالك حين عدت إلى الفندق، وجدتها لحظة دخولك تقف في منتصف الصالة، تبتسم ابتسامة رقيقة هادئة، وعيناها تلمعان. سألتها وأنت تضع الأكياس على الطاولة ما إذا كنت قد تأخرت عليها، فهزت رأسها نافية، ولم تنبس بكلمة.

نظرت إلى الساعة المثبتة فوق التلفاز، العاشرة لإربع، تأخر الوقت، لحسن الحظ أنك أحضرت معك بعض الأجبان والمعلبات والمأكولات الخفيفة، قد تفي بالغرض.

- لفي، أحضرت لك كل ما تحتاجينه، جربي الملابس، وإذا لم يناسبك المقاس أخبريني، وسأشتري لك غيرها.

أشرت إلى الأكياس المتناثرة على الطاولة ثم ابتسمت لها، وانحنيت إليها بطريقة تُشبه الركوع. قلت، بلهجة غاية في اللطف:

- وإذا لم تعجبك، سأشتري لك غيرها، وإذا لم تحبي ألوانها، فسأشتري لك أيضاً. فقط أخبريني برأيك بصراحة، ولا تخجلي.

تعلقت عيناها بعينيك، فلامست فيهما خجلاً مُفرطاً، طفولي النكهة، يُشدك إليه. عيناها تلك، اللتان تبدوان مثل مغارتين من حُزن، استطعت أن تُبصر فيهما لآلئ من نور، وتقرأ عبرهما نشوة الفرح، والرضا، والسرور.

سُرعان ما أطرقت عينيها، فاستفقت من غيبوبتك اللذيذة. رأيتها تعبت بأطراف أكمامها بتوتر، تُحوّل نظراتها بين الأكياس والأرض، ثم ترفعهما إليك، وتأخذ عيناها باللمعان، شيئاً فشيئاً. سمعتها تهمس، بصوت أوشك على البكاء:

- شكراً يا فيصل، تكفيني عباة وقميص.

كانت ممتنة، بصورة أعجزت لسانها عن التعبير. لوهلة، غلفتك مثالية غريبة، وتساءلت في نفسك، ما إذا كنت تستحق شكراً، أو امتناناً من هذه الصغيرة. جلست القرفصاء، وأمسكت بكتفيها، مثل أول يوم رأيتها فيه. تأملت مُحياها، والذي علتة مسحة ألم. وتمنيت لو تضمها إلى صدرك، وتطوق جسدها الصغير بساعديك. ولكنك خشيت، في آخر لحظة، أن ترتكب في حقها خطأ عظيماً.

بللت شفتيك، ثم نطقت، بعتاب هادئ:

- لا داعي للشكر يا لمي، اعتبريني أحياناً لك، أو، أو صديقاً يحبك، إن كان صعباً جداً أن أضاهاي اهتمام خالد. أتدريين؟ أنا ممتن لك، لو أن المال يشتري لي أختاً صغيرة لدفعت كل ما أملك. أنتِ محظوظة كثيراً، إنني أمارس عليك الأخوة بكامل معانيها ومشاعرها العظيمة. لا تشكريني، فقد أهديتني شعوراً لم أشعر به من قبل، شعور الأخوة التي لم أتذوق طعمها يوماً. لمي، أمل أن يعجبك ذوقي في اختيار الملابس.

نهضت واقفاً، صلبت رُكبتك، ثم أردفت:

- تأخر الوقت، سأدعك ترتاحين. إن جعت فقد أحضرت خبزاً وبعض المعلبات، يمكنك تناولها، تُصبحين على خير.

ودعتها، ثم مشيت نحو الغرفة. استمرت تنظر إليك، ولم ينقطع ذلك الالتحام البصري، حتى اختفيت داخل الغرفة. أخرجت علبة السجائر من جيبك، ثم وضعت ثوبك على الشماعة في

زاوية الغرفة. ألقيت بنفسك على السرير، وسحبت حاسوبك الذي كان ينام في النصف الأيسر من السرير. سوف تقضي وقتك بمشاهدة الأفلام، حتى يغلبك النعاس.

لم يعد ذلك الالتحام البصري نادر الحدوث، لغة العيون صارت تنوب، أحياناً، عن المشاهدة، وعن كافة أشكال التعبير الأخرى في بعض المواقف التي تجمعكما معاً.

لقد اعتدت على قراءة تلك العينين البنيتين، إذا ما صافحتك نظراتها اللذيذة، أو حاولت أن تتكهن بما يجول في نفس صاحبتهما. في اليوم التالي، صارت تلك المغارتان، كما أطلقت عليهما، تحملان نظرة جديدة مختلفة كلياً عما عاهدته. نظرة ذات ألف سر ومعنى، تشبه نظرات الحب، لكنها ليست بنظرات حب، ولم تتمكن بسهولة من قراءة ما وراء تلك الأغشية الشفافة. في غضون ساعات، استطعت أخيراً اكتشاف ذلك السر، لتكتسب نظرة جديدة لم ينظر لك بها من قبل، وتضم، إلى قاموسك الخاص، بجانب نظرات الإعجاب والحب والحدق اللوم، نظرة جديدة تُسمى الامتنان، نظرة لم تجرب طعمها يوماً.

قالت لى، ظهيرة الاثنين، إنها رأت في عينيك اهتماماً لم تره سوى في عيني خالد. كانت مسرورة بملابسها الجديدة، وبشعرها الذي أمسى مرتباً ناعماً بعد تمشيطة. كم تأثرت، وأنت تسمع جملتها العميقة، التي ذاب لها قلبك.

ولكن لى بكت، بعد جملتها تلك، وكأنها رشت على جرحها الملح من غير أن تقصد. جلسَتْ على الأريكة، غطت وجهها بكفيها، ثم راحت تضغط على عينيها المحمرتين، كأنما تحاول بذلك إيقاف جريان دموعها. "أسفة فيصل" قالت، وهي تحاول حبس شهقاتها، التي بدت مثل فيح بركان.

جلسَتْ قريباً منها، سألتها بهدوء:

- على ماذا تعتذرين؟

- أنا أبكي كثيراً.

تحسست بأصابعك خصلات شعرها البنية، الناعمة، المنسدلة على كتفها. سألتها:

- وهل يجب أن تعتذري على كل مرة تبكين فيها؟

لم تسمع لها رداً، انحنت إلى الأمام، غرزت مرفقها في فخذها الأيمن ونصبت ذراعها، ثم أسندت جبينها على باطن كفها، انحنيت مثلها، شبكت أصابع يديك، ثم همست، بتردد، ورأسك قريب من رأسها:

- أنا أقدر حالتك، ما أصعب أن يواجه الإنسان مثل هذه الظروف، ويعيش تيهاً مثل هذا التيه. ولكن، أنسيّت وعدي يا لمى؟ ألم أقل لك إنني سألتقط خالدًا من بين الجموع وأضعه بين يديك؟

لم تهمس لمى ببنت شفة، كانت لا تزال على تلك الوضعية. بللت شفتيك بشيء من الضيق، يبدو أنها صارت لا تثق بك، ولا بوعودك البعيدة جداً.

أخرجت هاتفك من جييبك، ثم فتحت برنامج المفكرة، وقررت أن تكتب عن خالد كل شيء، ومع صباح الغد، سوف تبدأ بتنفيذ ما قطعته على نفسك.

- ما اسمه؟

- من؟

- خالد، ما اسمه الكامل؟

رفعت رأسها، كانت دموعها قد جفت، ولم يبق سوى قطرات قليلة عالقة بين أهدابها. صوّبت أنظارها إلى عينيك، كأنها تود أن تقرأ فيهما صدقاً و يقيناً. اومأت لها برأسك، ثم ابتسمت لها بحنو، فبهتت ملامحها، لم تكذ تصدق، وفي لحظة، كادت من هول الفرحة، أن ترمي جسدها بين أحضانك، لولا أنها انتبهت في آخر ثانية، وناءت بجسدها قليلاً. ولكنك رغم هذا شعرت بعناقها الشديد، كأنك ضممتها حقيقة لا خيالاً. أحسست بخفقان قلبها الشديد على صدرك، أحسست بلمسات أنفاسها الهادئة على رقبتك وكتفك، وملأت رائحة شعرها منخريك و دماغك.

في لحظة، سحبت نفساً عميقاً، وهمست لها بهدوء:

- أنا جازم على فعلها يا لمى.

- الله يحفظك يا فيصل.

ثم عادت تبكي مجدداً، لا قوة لها على دموعها.

- اسمه خالد أحمد، خالد أحمد عبد الرحمن ...

أجابث، وسط دموعها، ثم حاولت مسحها بسرعة. شرعت بكتابة اسمه الأول كاملاً مع اسم العائلة، وحينها، سألتك بفضول:

- أين ستبحث عنه؟

- سأذهب إلى مدرسته صباحاً.

- لا أظن أنه مازال يدرس فيها، مدرسته كانت في حيننا نفسه ولا أظن أنه ما زال هناك.

- ولكني قد أجد أحد أصدقائه أو شيئاً يدلني عليه!

هزت رأسها، ثم همست بخفوت:

- صحيح.

كتبت اسم المدرسة، كما أخبرتك به لى، وسجلت ايضاً اسم الحي، متبوعاً باسم الصف الذي يدرس به خالد.

- هل يمكنك أن تصفي ملامحه إذا سمحت؟

فتحتُ عينيها، كأنها تفاجأت بهذا الطلب. ثم هزت رأسها، واعتدلت في جلوسها، وراحت عيناها تسبح في الفراغ بحزن. بدأت تصف ملامحه، بنبرة يملؤها الشوق والحنين. أسمر، نحيل الجسد، صغير الملامح، ذو شعر أسود، ويرتدي دوماً نظارة طبية إطارها أسود. كانت تحرك يديها وهي تصف وجهه، كأنما تتحسس ملامحه في الهواء.

ثم ابتسمتْ بألم، لما وصفتْ تلك الغمازة الطويلة المحفورة في خده، كأنها تذكرتْ ابتسامته التي ترفع معها وجنتيه السمرواين، وترخي معها أسارير وجهه.

كم تأثرتْ بابتسامتها تلك، وتمنيتْ لو أنك تملك معجزة الغيب، فتكشف لها مكان خالد، أو لو أنك تملك فرح الأرض بكاملها، لتحيي به قلبها المكوم.

كتبتْ أو صافه كلها في المفكرة، وخطر في بالك، أثناء الكتابة، سؤالاً مهماً نسيت أن تسأله لى.

- هل لديه هاتف؟ هل تحفظين رقمه؟

أجابت بجواب بديهي، كنت تعلم جوابها مسبقاً.

- لو كان هذا يفيد لاتصلت به مباشرة. لقد أغلق هاتفه يا فيصل، أو ربما غير رقمه إلى الأبد. اتصلت به من هاتف أبي عشرات المرات، لم يجبني إلا في مرة واحدة، كانت عقب رحيله بيضعة أيام.

- وماذا قال فيها؟

سألتها والفضول يأكلك، فسيطر البكاء عليها، حتى رأيت وجهها المحمر، كأنما يذوب أمام عينيك.

- قال إنه بخير وسيبحث عن وظيفة يجمع منها بعض النقود، وأني يجب أن أصبر وانتظره حتى يعود.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف يترك أخته بهذه الطريقة؟ ماذا لو عاد الآن واكتشف بأنك غير موجودة ماذا سوف يفعل؟

- هذا لو عاد! قال إنه لن يعود إلا بعد سنة، لم يمض منها الآن سوى أربعة أشهر.

سحبتْ نفساً طويلاً، يرخي أعصابك المشدودة، ويعينك على مواسة لى. أمسكت بكفها الصغيرة، وخبأتها في حضن كفك الدافئ، الذي بدا هائل الحجم، يحيط بها وكأنه صدفة.

- سأذهب صباحاً إلى المدرسة، لا تقلقي، لا يزال هناك أمل.

نظرتُ إليك، ثم أرختُ عينيها إلى الأرض، وخرجت منها تهيبة صغيرة، لم تتكلم بعدها أبداً.

في السادسة من صباح الثلاثاء، خرجت بسيارتك إلى مدرسة خالد، اتجهت جنوباً، مستعيناً بخرائط جوجل، حتى وصلت إلى (غبيراء) ذلك الحي الذي أخبرتك عنه لى. لم تكن قد زرت هذا الحي من قبل، ربما لم تسمع اسمه مرةً في حياتك. شخص مثلك، لا يعرف من الرياض إلا وجهها الشمالي المشرق، الذي يضيء دائماً في صور المجلات، لا يليق به أن ينحدر جنوباً، نحو وهدات الفقر.

أمضيت ساعة كاملة في الطريق، وحين وصلت سألت شخصاً عند الإشارة، إن كان يعرف شيئاً عن المدرسة الثانوية، وفي دقائق وصلت، إلى المدرسة المنشودة.

تأملتها، كانت ذات بناء عريق وصارم، تأملت جدرانها التي رُصت عليها أحجاراً صغيرة بنية وأخرى سوداء، فاتحة وأخرى غامقة، كانت خليطاً من ألوان كثيبة غير متجانسة، تذكرك بما كانت عليه عمارات القاهرة في شوارعها القديمة. رفعت رأسك نحو اللوحة الخضراء التي علقت على ناصيتها، كان قد كتب عليها، إلى جانب اسمها، (أنشئت عام 1396هـ).

نزلت من السيارة، ثم دخلت من بابها الحديدي، الذي ملأ الصداً مفاصله، من غير أن تسلّم على الحارس. دخلت إلى فنائها الداخلي، ثم بحثت بعينيك عن غرفة المدير، لم تستغرق وقتاً، حتى وجدت غرفة بباب خشبي قديم، علقت فوقه لوحة صغيرة، كتب عليها غرفة المدير. تنفست الصعداء، ثم دخلت، وأنت ترجو أن يكون ذلك المدير طيباً ومتفهماً.

- السلام عليكم.

طرقت الباب، فرفع المدير رأسه. كان حنطياً بديناً مُهمل الذقن، يرتدي معطفاً بنياً ووشاحاً ثقيلاً لُف حول رقبتة. نظرت إلى كتلة الشحوم الزائدة في عنقه، ولوهلة، شعرت أنه يحمل وجهاً إضافياً أسفل وجهه الأساسي، منتفخاً وخالياً من الملامح.

- وعليكم السلام، أهلاً، تفضل.

أشار إلى الكرسي الموجود أمام المكتب، جلست عليه، قلبت عينيك في أرجاء المكان، ثم قلت، بعدم ارتياح:

- حقيقةً لقد جئت كي أسأل عن طالب يدرس أو كان يدرس هنا، هل تعرف طالباً يدرس في الصف الثاني ثانوي، أسمر نحيل يرتدي نظارة، واسمه خالد أحمد عبد الرحمن؟

عقد حاجبيه في محاولة للتفكير، ثم أجاب، بعد دقيقة:

- أجل أجل تذكرته، صحيح لقد جاءني هنا في بداية العام، كان يريد أن يأخذ ملفه.

- في بداية العام! متى بدأ العام الدراسي؟

- في الثامن من ذي القعدة.

- هذا قبل ثلاثة أشهر! هل تعرف إلى أي مدرسة انتقل؟

هز رأسه نافياً:

- لا والله.

كان عليك أن تشرح له أهمية الوضع، وشدة حاجتك لأي معلومة عن هذا الطالب. لذلك، حكيت له حكاية، حكاية جديدة مختلفة، اختلقتها من عمق المخيلة، وألبستها ثوباً حزيناً مؤثراً لا تعرفه لمى ولا غيرها.

خالد، ذلك الطالب الذي غادر منزله في يوم كئيب، تاركاً أسرته الصغيرة بلا رجل، تشكو ألم الفقد الذي أكل سعادتها وراحتها. وأنت، من تكون أنت؟ كنت ذلك الجار الطيب، الذي لامست توسلات جيرانه أحاسيسه ومروءته، فقرر بشهامة أن يساعد جيرانه، ويبحث لهم عن ابنهم الهارب. تأثر المدير بالقصة، رأيت الأسف يسود ملامحه، وسمعته يتنهد:

- آه من مراهقي هذه الأيام، لا يفكرون في عواقب الأمور.

- يجب أن تساعدني أستاذ إبراهيم، يجب أن أجد هذا الولد وأحادثه عل رأسه يلين ويعود إلى البيت.

فتح يديه، تعبيراً عن قلة الحيلة:

- والله لو كان بيدي لساعدتك، ولكن ماذا أفعل؟

أطرقت رأسك مُحبطاً، فسأل المدير:

- منذ متى هرب خالد؟

- منذ أربعة أشهر.

- هل بلغت الشرطة؟

- لا يا أستاذ، إن شاء الله لن تصل الأمور إلى هذا الحد. كما أنه هاربٌ برغبته، ليس مُختطفاً أو ما شابه، لن يعود إلا برغبته.

- للأسف، ليس للمدرسة مسؤولية تجاه هذا.

- ولكن يا أستاذ، أليس لديه أصدقاء هنا؟ ربما يعرفون أي معلومة عنه.

- بصراحة لا أعرف. هل أسأل لك عن أصدقائه؟

أومات له بلهفة:

- أجل، أجل، لو سمحت.

التفت المدير عن يمينه، حيث غرفة صغيرة متصلة بمكتبه، مكتظة بعدد من الإداريين البؤساء. نادى أحدهم، شرح له القصة، ثم خرج الإداري، وعاد بعد خمس دقائق برفقة طالبين نحيلين، بثياب بيضاء مصفرة، أحدهم كان مرتدياً معطفاً رمادياً وشماغاً ألقاه على رأسه بعشوائية، والآخر يعتمر قبعة صوفية.

- أستاذ إبراهيم، هذان الطالبان هما عبد الله ومحمد، إنهما صديقا خالد، يقولان بأنهما يعرفانه جيداً.

وقفت، بعد سماعك جملة الإداري، ثم مشيت سريعاً لتقف مباشرة أمام الطالبين، وجهين لوجه. نظرت إلى وجهيهما المسترخيين بعينين قلقتين، مما أوحى لهما بأن ثمة موضوعاً في غاية الأهمية.

- تجلسان مع خالد كثيراً، صحيح؟

تساءلت بقلق، بتخوف سائل يخشى من إجابة لا تُطابق تلك التي في عقله، فأومئا برأسيهما، وقال محمد:

- خالد كان يجلس في المقعد الذي بجانبني، وهو صديقي منذ أكثر من سنة، ولكن ما الأمر؟

- خالد هرب من المنزل، هل تعرفان هذا؟

- نعم، ولكنه سيعود قريباً، هكذا قال.

التفت محمد إلى عبد الله الذي هز رأسه مؤكداً كلامه، فخاطبته بضيق:

- لكن أسرته تحتاجه، تعرفان أن والده متوفى، وأن بيته الآن، أمسى بلا رجل. هل تعرفان إلى أين ذهب، وأين صار يسكن؟

التفتا إلى بعضهما، تلاحت عيناها ملياً، ثم أطلقا تنهيدة حزينة، ولم يفصحا بشيء.

قال عبد الله بنبرة كُره، كأنما يُحاول بها إخفاء حنينه:

- لقد ذهب بعد وداع جاف، وكأننا لسنا صديقيه.

نظرت إلى محمد بحيرة:

- ماذا قال في آخر مرة جلستم فيها معاً؟

- لقد رأينا خالدًا قبل شهر من انتقاله إلى مدرسة أخرى، وسأخبرك بكل شيء.

في الساحة، جلست، مع عبد الله ومحمد، على ثلاثة كراسٍ خشبية متقابلة، وجهين لوجه. ثم بدأ محمد يسرد الحادثة:

- كانت ليلة العاشر من شوال، حين سمعت صوت الجرس، في وقت متأخر من المساء. فتحت الباب، وتفاجأت بخالد واقفاً يحمل بيده حقيبة كبيرة، وكيس ثقيل بيده الأخرى. كان متعباً، وجهه أسود، صدره يعلو ويهبط وأنفاسه تشبه اللهث السريع. دفع خالد نفسه إلى البيت بسرعة، فسألته بدهشة، ما الأمر؟ أجابني بأن هناك مشكلة في بيته، وأنه سيبقى عندي اسبوعاً حتى تهدأ الأمور. لا أذكر كم كانت الساعة، ربما العاشرة أو تجاوزتها بقليل. أدخلته إلى البيت، فتحت له الملحق وأحضرت له وسادة ولحافاً. كنا في إجازة الصيف، لذا نمت بجواره. طوال الأسبوع كانت أحاديثه عادية، وتصرفاته طبيعية، لم يُبد لي أي تصرفٍ غريب، غير أنه في كل صباح، يخرج من البيت ولا يعود حتى الظهيرة. لم أسأله إلا في آخر ليلة له في منزلي. كنا مستلقيين على أرضية الملحق استعداداً للنوم، فسألته عما يدور في رأسه، فتصرفاته توحى بأنه ينوي القيام بشيء ما. أخبرني أنه سيغادر منزله سنة كاملة ليعمل ويجمع بعض النقود. عرفت أن خروجه المتكرر كل صباح كان لأجل البحث عن عمل. كان قراره نهائياً، صدمت لهذا الخبر، حاولت نصحه، ولكنه انقلب على شقه الآخر، ليولينني

ظهره، ويتمتم بهدوء: (أنا أعرف تماماً ماذا أفعل). في الصباح خرج من غير أن يخبرني، لم أعلم أنه ذهب إلى بيت عبد الله إلا لاحقاً. جلس في بيت عبد الله أسبوعاً كاملاً، أخبره برغبته الجازمة في الرحيل والسكن في مكان آخر، ثم اختفى، لم نعد نراه، ولم يعد يجيب على اتصالاتنا أبداً. بدأ العام الدراسي، لم يحضر خالد في الأسبوع الأول إلا يوم الخميس، جاء ليودعنا عند باب الفصل، حاملاً ظرفاً بنياً يحوي ملفه الدراسي. لم يقل شيئاً غير أنه بخير، وأنه وجد عملاً يناسبه، وأنه سينتقل الآن إلى مدرسة أخرى. كانت في دواخلنا أكوام من الاسئلة، ولكنه كان مستعجلاً جداً. عانقنا عناقاً سريعاً، أخذنا منه وعداً ألا يهمل اتصالاتنا، ولكنه أهمل.

قال جملة الأخيرة، وهو يضيق عينيه بحزن، أو ربما بحقد عظيم. سألته حزيناً:

- لماذا أراد أن يكتم عنكما كل شيء؟

أجاب عبد الله بحقد:

- لقد خاف أن نقوم بلحاقه، يظن أننا لا نستطيع العيش من دونه، هذا الحقيقير.

عم الصمت لدقائق، صرت تفرك كفك بحيرة، ترفع مقدمة قدمك اليمنى وتضرب بها الأرض مراراً وتنفخ هواءً. ماذا ستفعل الآن؟ لقد مسح خالد أثر خطواته الطويلة، لم يترك شيئاً، ورغم أن هذين الصديقين كانا يعرفان بما فيه نيته، إلا أن كلاهما ساعدها على الرحيل.

- ليتك يا محمد لم تسمح له بالرحيل، ليتك لم تسمح.

- وماذا كنت سأفعل؟

- لو أطبقت عليه بين فكيك. لقد خُلف وراءه حطاماً فوق حطام.

- لقد مضى كل شيء وانتهى.

- هذا ما يؤلمني، أن كل شيء قد انتهى.

سحبت نفساً عميقاً، ودعت الجميع ثم خرجت إلى سيارتك، وقبل أن تتركب، تذكرت شيئاً، فرجعت إلى مكتب المدير، وتركت على طاولته ورقة صغيرة، دونت فيها رقم هاتفك، وبعض المعلومات.

- مع أنني لا أتوقع هذا، ولكن، إن حصلت بعض المستجدات، أو عرفت أي معلومة عن خالد، اتصل بي.

غادرت المكتب، عائداً إلى لى، عائداً وفي يدك خيبة مغلقة، وأحزان جديدة، ونهر بكاء.

(7)

9 ربيع الأول 1437هـ

بكت لى بعد هذا الخبر، وكان سكيناً جديدة قطعت آخر خيط أمل أمام عينيها.

حاولت عبثاً تهدئتها، كانت تنسى قليلاً، ثم سرعان ما تزورها الدموع مجدداً. ومع هذه الحالة الكسيفة، مضى اثنا عشر يوماً جديداً، وجاءك اتصال في أحد الصباحات، من مدير المدرسة، يقول فيه إن الوكيل قد عاد من إجازة مرضية استمرت لأسبوعين، وأنه الوحيد الذي بوسعه أن يعرف مدرسة خالد الجديدة. " لقد حوّل ملف خالد الإلكتروني بنفسه، ومن جهازه المكتبي، لذلك فبحث بسيط لا يتجاوز الدقائق يمكن أن يكشف مدرسة خالد الجديدة" قال المدير في مكالمته الأخيرة، فتنفست بارتياح، وأسرعت بالنهوض لتغسل وجهك وترتدي ثيابك على عجل.

كانت تجربة جديدة أن تعيش حياة موظف يستيقظ باكراً كل صباح، يغادر فراشه الدافئ ويركب سيارته وعصافير النعاس حوله لا تزال تحوم. كم تكره حياة الموظفين، إنها مملة للحد الذي لا يطاق، ولو كانت على الأقل، تقطع خيط الفراغ.

في السيارة، حين تجاوزت الساعة التاسعة صباحاً، كانت الشمس ترسل خيطاً ليس برفيع إلى عينيك الذابلتين، حتى خلتها تتقصدها وحدها، من بين أعين السائقين، الخدرة والمغمضة فرط النعاس. ورغم هذا، مكثت ترمش ببلادة مسن صار في سنواته الأخيرة صديقاً للطبيعة، يهجر الغرف الدافئة لينام فوق السطوح، وما عاد شيء في الدنيا يثير اهتمامه.

توقفت أمام إشارة، مسحت عينيك بكفك. كان مضنياً أن تدرك أن وراءك مهمة شاقة، لا تحتل التأجيل وسيظل صوت ضميرك ملحاً إذا ما تهاونت في إنجازها. أو فكرت، لثانية، في إلغائها من قائمة مسؤولياتك لتبقى خالية إلى الأبد.

ربما سيكون عليك من الآن فصاعداً أن تعيش يوم الموظف الحكومي البائس، تغلق كل الأجهزة قبل العاشرة، وترفض كؤوس الشاي التي تقدم بعد صلاة المغرب، وتخلد باكراً. ما زالت هناك زيارة أخرى إلى مدرسة خالد، ربما أكثر من زيارة، وما زالت هناك مسؤوليات، تنتظرك حتى آخر الطريق.

في مكتب الوكيل، أجلسك على كرسي جلدي، ثم قدم كأساً من الشاي، واستأذنتك في دقيقتين من البحث، فشكرته بابتسامة لطيفة.

- سمعتُ أنك عدت من إجازة مرضية، الحمد لله على سلامتك.

هز رأسه بابتسامة، بينما لا تزال عيناه تفتشان في شاشة الكمبيوتر. حاوطت بكفيك كأس الشاي بينما أطرقت أنظارك إلى الأرض، لم تمضِ خمس دقائق، حتى جاءك الجواب، اسم مدرسة خالد الجديدة، متبوعاً باسم الحي.

وضعت كأس الشاي على الطاولة بسرعة، رغم أنك لم ترتشف منه رشفه واحدة. أخرجت هاتفك من جيبك، شرعت في كتابة الاسم في صفحة المفكرة التي عنونتها بـ"خالد"، ثم قفزت من كرسيك بحماس شديد، شكرت الوكيل، وخرجت تتأمل المفكرة المفتوحة، والتي أمست زاخرة بالتفاصيل.

لم تكن تتوقع أن المهمة ستتيسر هكذا، هذه الخطوة الأولى، تحققت. تبقى عدة خطوات لا تعرف عددها، ولا إن كنت ستمشيها بصورة نمطية أم ستقفز قفزة طويلة تبلغ بها الهدف بلا خطوات.

تأملت شاشة الهاتف بابتسامة منتصر، قرأت اسم الحي، يبدو الاسم مألوفاً، أين يقع هذا الحي؟ هل هو بعيد؟ لا بأس، ستبحث عنه في خرائط جوجل، لم تعد هناك مشكلة، ما دمت تعرف اسم المدرسة.

في صباح الغد، ستذهب لتسأل عنه هناك. تذكرت أنه يجب عليك أن ترسم خطة واضحة مثل خريطة تعرف بواسطتها أين أنت، وفي أي اتجاه ستخطو الخطوة القادمة.

ركبت السيارة، وقدها، قاصداً الفندق. لا بد أن تفرغ نفسك اليوم للتفكير في هذه الخطة. ابتسمت بابتسامة خافتة، حينما تذكرت طقوسك الغريبة في التفكير، كلما رغبت في نسج خطة أو حل عقدة.

تغلق على نفسك في غرفة النوم، ثم تمشي أمام السرير مُطرق الرأس مثل حاج يسعى بين الجبلين.

أمضيت الظهيرة كلها في نوم عميق. وبعد العصر استيقظت لتجلس في الصلاة أمام التلفاز، وفي يدك كوب الشاي الذي تعده لك لى. كانت تعد الشاي لأجلك فقط، رغم أنها لا تشربه إلا لماماً.

لم تخبرها بعد بالمعلومة التي تلقيتها هذا الصباح. في الوقت الذي جئت فيه إلى الفندق، كانت لا تزال نائمة. الآن، هي جالسة بجوارك، ضامّة ركبتيها، ملقياً يديها في حضنها، عيناها على الطاولة، أنفاسها هادئة، تشبه أنفاس وليد في شهوره الأولى، مسترخٍ على صدر أمه، مستسلم إليها.

ناديتها فاستفاقت، وسرعان ما غيرت وضعيتها الأولى، التي طاب لك تأملها بها، وصلبت ظهرها لتجلس جلوساً مستقيماً. التفتت إليك، من غير أن تتكلم. فخاطبتها، بعد ثوانٍ من الصمت والتلاحم البصري:

- لقد ذهبت اليوم إلى مدرسة خالد، أخبرني وكيل المدرسة باسم مدرسته واسم الحي الذي توجد فيه. لقد عرفت اسم الحي الذي لا شك أن خالداً، يا لى، يسكن فيه.

لم تقل شيئاً، كانت مذهولة، تطفح الدهشة من عينيها، مضت تفتش عن صدق، في عينيك، اللتان غاصتا خلف ابتسامة عريضة.

- صحيح يا فيصل؟

أجبتها بعشر إيماءات سريعة، فشهقت شهقة صغيرة، وتساءلت، بدهشة:

- يعني أنك قريب من الهدف، لن يكون إيجاده صعباً، صحيح؟

نظرت إليها، سكتت قليلاً، في لحظة، استحالت ابتسامتك الواسعة إلى ابتسامة خافتة، ظلت تتقلص حتى اختفت تدريجياً.

هذا أكثر ما كنت تخافه، الأمل الأعمى، الذي لا يرى كيف أن السقف قريب.

أطلت النظر في عينيها، شيء ما في تلك الأغشية الشفافة كان يضيء، يلمع مثل سطح نهر. لا تدري كيف تملكك جرأة من نوع غريب، لتخاطبها بأسلوب جديد:

- اسمعي لى، سيفعل فيصل كل ما في وسعه، كل ما في وسعه. سيسلك الطريق الذي يظنه صحيحاً، وحتى الوصول، ستعديني أنك لن تبكي، حسناً؟ لا أريد أن أراك تبكين أو حتى تتساءلين بحزن لماذا تأخر الأمر. ثقي دائماً بأنني أسير إلى الأمام، حتى لو اخترت الطريق الأطول، هناك حتماً سبب لاختياري له. تأكدي أنني أعرف تماماً أين أحط قدمي، وتأكدي، أن كل فعل يصدر مني، هو في النهاية لمصلحتك أنت. هل فهمت؟

نظرت إليك نظرة كسيرة، وبضعف حيلة، همست:

- فيصل افعل ما تشاء، أنا واثقة بك.

أخذت بيدها، مسحت عليها مراراً:

- ثقي بي، سأجده عما قريب يا لى.

أغمضت عينيها، وحين فوضت أمرها إلى الله، همست بهدوء:

- إن شاء الله.

بحلول العاشرة مساءً، تناولت عشاءً خفيفاً، ثم ذهبت مبكراً إلى غرفة النوم.

فتحت النافذة لتترك الهواء البارد يعبث بستائر الساتان، وأشعلت سجارة وحيدة، سوف تساعدك في التفكير.

لقد وجدت خالد، أخيراً، صار هذا الولد بين يديك. سوف تذهب إلى المدرسة غداً، وتستدعيه إلى مكتب المدير. لن تفاجئه بالحقيقة المؤلمة، ستحاول أن تبسط له الأمر حسب استطاعتك. الخبر المؤلم، سيكون أقل إيلاماً إن رُف بهدوء وتأن، إن الرصاصة التي تُطلق بقوة أقل، لا تحفر جرحاً عميقاً. تساءلت، كيف بوسعك أن تجعل الحقيقة أقل حدة وأخف وقعاً؟

مشيت نحو النافذة، أسندت مرفقيك على الحافة، تأملت كل شيء، صفوف السيارات، أضواء الشارع البرتقالية الساطعة، الناس، كل شيء كان ينطق بالحياة. اليوم، غالباً، سيكون آخر يوم لك هنا، ستودع لى، ثم تعود إلى قصركم في شمال الرياض. ستستقبلك أشياء عدة لا بد أنها اشتاقت إليك، صرير الباب الأسود الثقيل، والظلام والسكون الكئيب.

استنشقت نفساً آخر. ثرى، هل ستكون لى بخير؟، تساءلت، ثم اعتراك شعور غريب، حالة من التخوف والشك.

تقول لى إن خالداً هرب بحثاً عن وظيفة، وتضجراً من البقاء مع زوجة أبيه في بيت واحد. أليس من السهل أن يترك البيت مجدداً مثلما تركه أول مرة؟ أن يشتعل شجار جديد، في ليلة مظلمة، ثم يصرخ في زوجة أبيه، ويركض إلى الطابق العلوي، ويللمم حقيبته ويخرج؟

وماذا لو فعلها مجدداً؟ عقدت حاجبيك، في محاولة لتخيل اللحظة، بتفاصيلها السوداء. ستؤخذ لى مجدداً إلى مكان آخر مهجور، يشبه المكان الذي وجدتها فيه، وهذه المرة، لن تكون بانتظارك. ستنتظر نهايتها على يد الجوع أو البرد، أو على يد ذئب بشري، تروقه صور الصغيرات المتوسلات الباكيات.

إنها طفلة، وخالد يبدو حنوناً وصبوراً وشهماً، ولكنك بعد فعلته تلك، لا تثق به. لذلك، صرت تفكر أن تسلك طريقاً آخر، رغم صعوبة الأمر. أغلقت النافذة، بعد أن ألقيت آخر ما تبقى من سجارتك في الهواء. بدأت تتجول في أنحاء الغرفة مخبئاً كفيك خلف ظهرك، تحاول، بصعوبة، أن ترسم في عقلك معالم الخريطة.

وبعد ساعة تقريباً من هذا التفكير الطويل، كنت قد رسمت آخر خطوطها، خريطة كاملة في عقلك، واضحة ولا تبدو متشابكة الخطوط. نظرت إلى الساعة، الحادية عشرة مساءً، لا بد أن تخذ الآن إلى النوم، وغداً، في تمام السادسة، سوف تبدأ تنفيذ الخطة.

(8)

الاثنين، 10 ربيع الأول، 1437هـ

في الساعة السابعة صباحاً، كنت تخطو أولى خطواتك في حي الخالدية.

هذا الحي، الواقع في جنوب شرق الرياض، القريب من غبيراء، لا يختلف كثيراً عن جاره الآخر، بيد أنه يبدو أكثر ضجيجاً. لاحظت، أنك لا تكاد تزور شارعاً في هذا الحي، حتى ترى جداراً ملأته الكتابات والخرابيش السوداء، ولا تكاد تلمح جداراً حتى تقرأ عليه جملة أو كلمة لا تعرف لها معنى أو اشتقاقاً. هذه الكلمات، التي ينقلها الأولاد من الأولاد، لا توجد إلا في قواميس الفقراء، وحدهم من يفهمون ما ترمي إليه هذه الكلمات.

وبين شارع وشارع، وجدت نفسك أخيراً أمام المدرسة المنشودة. ركنت سيارتك، ثم دلفت إلى مكتب المدير. لم يكن شكله مختلفاً، التصميم هو نفسه غير أن الجدران صارت صفراء تميل إلى الأخضر الفاتح، والكرسي الجلدي انتشرت فوقه تمزقات دائرية انكشف منها اسفنجه القديم. كان المدير بديناً أيضاً مما جعلك ترسم في عقلك الصورة التي يجب أن يكون عليها جميع المدراء: جسد بدين، ووجه دائري بلحية خفيفة مُهملة.

- السلام عليكم.

ردّ السلام، بلهجه هادئة. سارعت في الجلوس على الكرسي، سحبت نفساً عميقاً، كان يرمقك بحاجبين مُقطبين، يسألك بعينيه عن سبب مجيئك. سألته إن كان يعرف طالباً بهذا الاسم، فسكت قليلاً، ثم هز رأسه:

- أظن أنني سمعت بهذا الاسم هنا.

- هل لك أن تتأكد لي ما إذا كان حاضراً أم لا؟

نظر إليك ملياً، عاقداً حاجبيه، كأنه يحاول التكهّن بما في نيتك. رفع سماعة الهاتف، ثم قال:

- سأسأل المراقب.

ثوانٍ قليلة، ثم أنهى مكالمته. نظر إليك، أخبرك بأنه موجود، ثم أخبرك باسم الفصل.

سألك ما إذا كنت تريد استدعاه هنا. ابتسمت له ابتسامة شكر، وخرجت سريعاً حتى لا يسألك سؤالاً آخر. في الساحة الداخلية، بجوار مكتب المدير، وقفت وقفة مائلة، ظهرك مستند على جدار أبيض، ساقاك متقاطعان، يداك مكتفتان، والأفكار تملأ عقلك المُشوش.

خالد في الأعلى، لا يفصلك عنه سوى عدة أمتار وسقف غير مكتمل، يستطيع، لو أطل برأسه من الأعلى، أن يراك واقفاً في الساحة. من السهل أن تستدعيه إلى مكتب المدير لتتلو عليه الحقيقة الفاجعة، لتخبره أن صغيرته المدللة أمست مُهانة، وأنك وجدتتها في الشارع، وأن بيت الغريب، صار آمن عليها من بيت والدها. كم هي سهلة هذه الجمل،

تستطيع قولها بدم بارد، تستطيع، أيضاً، أن تحوّر لها لتبدو أكثر تقبلاً وأخف وقعاً. ولكنك لا تريد للأمور أن تأخذ مجرى آخر غير الذي خططت له ليلة أمس.

لمى طفلة، إنها بحاجة إلى رجل تستظل به، وخالد مراهق نحيل العود، يحتاج هو بنفسه، إلى ظل. هناك حتماً شيء بداخل رأسه، دوافع مجهولة، مجنونة، حملته إلى القيام بهذا الفعل، وإلى التخلي عن لمى. ترى ما الذي يدور في هذا الرأس يا خالد؟

في تلك اللحظة تساءلت، عن طريقة تكسب بها صداقة خالد، تجعله بها يبوح لك بما لم يبوح به إلى صديقيه، عبد الله ومحمد. في ليلة البارحة خططت أن تصبح صديقاً لهذا الولد، وأن تخوض معه رحلة، تلج بها إلى داخله، وتفهم بها ما يدور في خلجات ذلك الصدر. ستكون مغامرة في عالم غيبي، حيث ذات خالد المخفية، يكتشفها بطل، بطل يمتلك أساليب التأثير، وأسلحة الإقناع، وكماً من مهارات العلاج السلوكي التي لا يستهان بها. ارتسمت ابتسامة باردة على شفطيك، لقد حان الوقت، لأن يطبق طالب علم النفس، شيئاً مما تعلمه في دراسته، على نفس مراهق صغير، ليصبح المراهق صديقه، الذي لا يخبئ عنه سراً ولا جرحاً.

لن تتخلي عن لمى، أبداً، حتى تصبح صديقاً لخالد. همست بهذه الجملة داخلياً، واتسعت ابتسامتك أكثر، وشعرت بنشوة التحدي، وإصرار العمل.

كنت واثقاً من نفسك، مؤمناً بقدراتك، لقد استعددت لهذا جيداً، ولم تترك سؤالاً بلا جواب. ترى، أكان خالد يكتفم وجعه عن العالم خوفاً من أن يُستغل؟، لا بأس، أنت الوحيد الذي يستطيع كسب ثقته، ثقته التي تجعله يعتقد بأنك خلقت لتكون بلسماً على جروح الأشقياء. هل كان يكتفم وجعه حباً في الاعتماد على نفسه في حل مشكلاته؟ لا بأس، سيلجأ إليك، حين يبلغ الألم أقصاه. قد لا يعتقد أنك تمتلك العلاج، ولكنه حتماً سيرى المسكنات بين يديك، مسكنات ألمه الحارق.

اليوم، ستتحدى قدراتك، ستجرب المغامرة بتفاصيلها، وستثبت لللى، أن هناك من يهتم بها، تماماً، مثل أخيها.

انتبهت إلى طالب يمشي في الساحة، ناديته، فتوقف، ثم اقترب إليك. سألته عن اسمه وفصله، كان في عمر خالد نفسه، غير أنه من فصل آخر. سألته عن خالد، أخبرك بأنه يعرف هذا الولد، ولكن لا توجد بينهما أي علاقة. أخرجت محفظتك السوداء من جيبيك، ثم قلت، بجدية بالغة:

- اسمع يا مساعد، سأطلب منك خدمة، وسأعطيك، مقدماً، مئتي ريال. إن أتممت المهمة، فسأعطيك ثلاثة أضعافها. قد تكون المهمة سهلة، ولكنها غالباً، تتطلب منك مهارةً وصبراً. مبدئياً، هل أنت موافق؟

لم تخف عليك دهشته الشديدة، وارتبأكه أيضاً. أجابك، بجواب متوقع:

- يعتمد ذلك على نوع المهمة التي ستطلبها.

- لا تقلق، إنها مهمة إنسانية. ستذهب إلى الطالب الذي ذكرت لك اسمه قبل قليل، وستعرف منه، بطريقتك الخاصة، عنوان سكنه. قد يخبرك بسهولة، وقد لا يخبرك إلا بعد أن تصبح صديقاً له. حاول أن تكسب صداقته، ثم اسأله فيما بعد، من بين أحاديثكم، عن عنوان سكنه. إنه يا مساعد يتيم هارب عن أسرته، وأنا، بصفتي جاره، أريد أن أجلس معه وأحادثه. عليه يقتنع بكلامي ويعود إلى بيته. لقد استنجدت أسرته بي، وأريد أن أقنعه بالعودة، وهذا لن يتم هنا في المدرسة. يجب أن أزوره في بيته، ويجب أن تساعدني في هذا.

فكر قليلاً، ثم وافق بعد تردد. أخرجت من جيبك ورقة وقلماً، دونت اسمك، ورقم هاتفك، ثم أعطيته إيها. أمليت عليه عدة وصايا مهمة، أولها، أن يخفي عن خالد الأمر، وأن يكتفم علمه بقصة هروبه عن المنزل، وألا يوضح له أنه جاء في مهمة، هدفها معرفة عنوان بيته. أخرجت من جيبك مبلغاً دسسته في جيب مساعد الأمامي فطار فرحاً، ولم يكذب يصدق ما حوله. أعدت عليه، بابتسامة، عبارتك الأولى:

- إن أتممت المهمة، فسأعطيك ثلاثة أضعافها. في أمان الله.

(9)

17 ربيع الأول 1437هـ

مضت سبعة أيام، اتصل بك مساعد خلالها مرتين، وأحرقت أنت فيها هاتفه بعشرات الاتصالات.

كان يجيبك، كلما سألته عن آخر المستجدات، بأنه يحاول، وقلبك يشك أنه يفعل.

لم تتوقع أن يتأخر الأمر بهذه الصورة، أسبوع كامل، ولم ينجح حتى في كسب صداقة خالد. كيف يمكن أن يكون الأمر صعباً إلى هذه الدرجة؟ إنه لا يتطلب سوى ابتسامة لطيفة، يتبعها سلام ثم جلوس، ثم أحاديث طويلة وضحكات، تنتهي بصداقة وثيقة. قلوب المراهقين مفتوحة لأقرانهم، ومساعد، إن اشتهى هذا، فسوف يفعله. سيكون الأمر سهلاً عليه.

تساءلت، ألم تغره المئات الستة التي وعدته بها؟ هل يجب عليك أن ترفع المبلغ أكثر؟ ولكنه بعدما وعدته بها طار فرحاً، ثم ضرب صدره المعبأ بالهواء، وأطلق الأيمان والوعود. كان واثقاً، وكان الأمر بين يديه. لم يتكاسل إذاً عن إتمامه؟

التقطت هاتفك، فتحت برنامج الواتساب، وكتبت له رسالة:

- مساعد لم يعد هناك وقت، سأعطيك أسبوعاً آخر، ستكون آخر مهلة.

كنت على وشك إرسالها، ولكنك، في آخر لحظة، مسحتها كلها، لقد خفت فجأة.

تخيلت أن يتسرع مساعد بسؤاله، فيفضحه استعجاله. سيشك خالد أن في الأمر إن. لقد خططت أن يكون كل شيء طبيعياً، لا بد أن تجري كل خطوة وكأنها صدفة. مساعد هو أداة مساعدة، ولكنه يستطيع، بحركة واحدة، أن يهدم كل شيء. لذلك، فكرت في رسالة أخرى، ثم كتبت:

- مساعد لا تستعجل، خذ وقتك، المهم ألا يشك خالد بالأمر.

مسحت وجهك بكفيك، تنهدت، وألقيت الهاتف على الأريكة. الساعة تشير إلى السادسة وعشر دقائق مساءً، لم تجلس بجانبك، في الصالة، هادئة كعادتها، ساكنة مثل جماد.

التفاعل الوحيد، الذي صرت تراه منها، هو أن ترفع رأسها فجأة مفتوحة العينين فاغرة الفم كلما رأتك تتحدث بالهاتف مع مساعد. لقد طلبت منها أن لا تسأل، وها هي لم تسأل، ولكن عينها لا تكفان عن السؤال. الأسئلة التي تسألك إياها بعينيها ملحة أكثر، موجعة أكثر، صادقة أكثر. لا تملك لها جواباً، سوى أن تشيح بأنظارك بعيداً، كان هذا، هو الهروب الوحيد.

18 ربيع الأول 1437هـ

رسالة واتساب جديدة، يضيء بها هاتفك.

التقطت هاتفك الملقى على السرير، قرأت محتوى الرسالة، يقول مساعد إنه جلس اليوم مع خالد، واستطاع أن يكلمه قليلاً. سارعت في الرد، كتبت إليه:

- عن ماذا كلمته؟

- سألته عن حاله، ثم سألته عن الاختبار وعن بعض المواد. كان يحادثني باقتضاب، وكأنني هم على قلبه. لقد حاولت أن أفتح معه مجالاً للحديث، ولكنه دائماً ما يغلق في وجهي الأبواب. حتى هذا الحديث القصير لم يفتح إلا بعد محاولات طويلة وعناء. أقسم أنني يا فيصل كلما رأيتك ابتسمت في وجهه، ولكنه حتى الابتسامة يرفض أن يبادلني بها. للأسف نحن في فترة الاختبارات والوقت قصير، ورغم هذا، أحاول دائماً الجلوس معه بعد انتهاء الاختبار، ألقى عليه التحية، يرد رداً مختصراً، ثم يحشو فمه بلقمة كبيرة حتى لا يتكلم معي، وأبقى أنا صامتاً، أراقبه كالأبله.

- يا الله يا مساعد. هل ستستسلم بهذه السهولة؟ انظر، لقد تقدمت خطوة إلى الأمام. في البداية كان لا يرد عليك سوى السلام، الآن استطعت أن تجعله يجيب على بعض الأسئلة، لاحقاً، ستجعله يبادرك هو السؤال.

- لا أعتقد يا فيصل، بصراحة منذ رأيت هذا الولد في مدرستنا وأمره يدهشني كثيراً، طالب جديد، غريب في المدرسة، وحيد، لا أحد يعرفه، ولا ينوي أن يبادر هو بتعريف نفسه إلى أحد. لا يهتم حقاً إن بقي مجهولاً، غريباً أو منبوذاً حتى. لا يبالي إن لم يكن له صديق سوى الأرض، التي لا ينفك يتأملها، طوال اليوم.

- لا بأس، ربما كان خجولاً، الأمر صعب بالنسبة له. مدرسة جديدة، وحي جديد. ربما لم يرتح لأشكال الطلاب، ففضل أن يبقى وحيداً. مهما كان، لن يستمر برفض عروض الصداقة التي تأتيه منك، خصوصاً لو رأى بأنك شخص تستحق. امنحه أماناً يا مساعد، لا بد أن يثق بك، إنها مسألة وقت فحسب.

- إن شاء الله، سأحاول.

ثم ابتسمت، وكتبت له:

- لا تنسَ المكافأة.

أرسل إليك رسالة، مذيّله بوجه ضاحك:

- وكيف أنساها؟

16 ربيع الثاني 1437هـ

منذ أن بدأ الفصل الدراسي الثاني في السابع من ربيع الثاني، وأنت تسأل مساعد يومياً عن أحدث الأخبار.

لا تتجدد الأخبار يومياً، لا تقرأ مقابل انتظارك الشديد إلا خبراً تافهاً لا يرقى أبداً لما كنت تتوقعه.

"جلست مع خالد اليوم" "حدثني بهواياته" "لقد سألتني أي التخصصات الجامعية أفضل". هكذا كانت رسائل مساعد التي يحاول بها إيقاف تدفق رسائلك الملحة، فلم تعد تطيق الصبر أكثر. اتصلت به، ما إن رد، حتى سألته، بلهجة غاية في الصرامة:

- هل تفعل حقاً ما أطلبه منك أم تكذب علي؟

أخبرك بعد أن أملى عليك أعذاره المعتادة، أن قلب خالد أشبه بصندوق محكم الإغلاق، مرمي في قاع محيط يتجاوز عمقه المئة متر ويغطيه التراب. منطو على نفسه، لا يحب أحداً، يشك حتى أنه يحب نفسه. في الفصل، يجلس في الزاوية، ولا يفصح عما في داخله. إذا سأله أحد، فإنه يجيب بكلمة واحدة، وغالباً ما تكون، نعم أو لا.

لم يكن العذر مقنعاً بالنسبة لك، لو كنت مكانه، لاستطعت بسهولة، أن تجعله يتكلم. مساعد لا يعرف، مساعد جاهل، مساعد لا يجيد التعامل مع الكتومين.

السيئ في الأمر، أن لا أحد يجيد هذه المهمة كما تجيدها أنت، ويمكنك أن تكلف أي شخص إلا نفسك.

لم يعد لديك وقت، لقد خصصت لكل مهمة وقتاً تقديرياً، أعطيت لكل خطوة عدداً من الأيام بحسب صعوبة إنجازها. خلال مدة لا تتجاوز الشهرين، ستكون لمتى في بيتها، مع خالد.

هذه الخطوة، كانت أسهل خطوة، لذا لم تعطها أكثر من أسبوع. ومع هذا، فقد مر أكثر من شهر لم تحصل خلاله على أية نتيجة. ضاقت بك الحيلة، الأيام تتفلى منك، الأسابيع تمضي كأنها أيام دون أن تحقق خلالها شيئاً يذكر.

همست لمساعد، بعد تنهيدة مُتعبة:

- مساعد، اسأله عن عنوانه.

- هكذا فجأة!

- ألم تقل بأنك استطعت أن تفتح معه حديثاً قصيراً؟ إذاً اسأله، لا داعي أن تنتظر حتى تكوّن معه صداقة قوية.

- وإذا سألني عن سبب سُؤالي؟

- اجعله وكأنه سؤالاً عابراً كالأسئلة التي تسأله إياها كلما جلست معه.

سكت قليلاً، شعرت أنه يفكر في شيء.

- ما رأيك أن أقول إنني أود زيارته في بيته لنذاكر دروسنا معاً؟!

- لا يا مساعد لا! لا أظن أنه سيحب هذا. قد لا يخبرك بعنوانه لهذا السبب.

- لماذا؟

- لا أعلم، ولكنني أتوقع كل شيء. اجعل سُؤالك من باب الفضول وحسب. لا توضّح له أنك تريد أن تعرف لسبب.

- حسناً يا فيصل، لقد فهمت.

- سأتصل بك بعد غد، أريد هذه المرة أن أسمع أخباراً جديدة.

جاءت جملتك الأخيرة صارمة، شديدة اللهجة. ثم أنهيت المكالمة، متأملاً أن تجد خيطاً يقودك إلى عنوان خالد.

18 ربيع الثاني 1437هـ

تناولت غداءك بشهية مسدودة. منذ أن بدأت هذه المهمة وبالك مشغول بها، ومزاجك ضيق لا يسع لأي مداعبة أو مزحة. ذهبت إلى الحمام، غسلت يديك ووجهك، ثم رجعت إلى الصلاة، فتحت التلفاز، استلقيت على الأريكة، وضعت منفضة السجائر قريباً منك، وعلبة السجائر، وعبوة بيبسي كنت تشربه مع الغداء. صرت تدخن، كروتين يومي متكرر، وتصفح هاتفك، لا شيء يبدو مُلفتاً. بعد دقائق، جاءتك رسالة من مساعد، سارعت في فتحها، وقرأتها، كانت كلها مخيبة للأمل.

- لقد سألت خالد، وأظن أنك تعرف ماذا حصل. لم أحصل منه على جواب. المرة الأولى، كانت يوم أمس. جلست معه قبل بدء الطابور الصباحي، تحدثت معه، ألقىت عليه بعض النكات، لقد استطعت أن أجعله يضحك. ثم سألته عن أشياء كثيرة، طموحاته، هواياته، أستاذ يحبه، مادة يفضلها. جعلت عنوانه آخرها. لن أخفي عليك أنني ما إن سألته حتى تغيرت ملامحه تغيراً ملحوظاً. حاول أن يتملص من سؤالتي هذا فوقف حاملاً حقيبتته وتحجج بأنه سيستعد للطابور الذي سيبدأ بعد قليل.

لم أيأس، في الفسحة أعدت عليه السؤال، ففاجأني بسكوته التام، لقد تجاهل سؤالتي تماماً، ولم يتكلم حتى غيرت الموضوع. في اليوم التالي، سألته أيضاً، أتبعته سؤالتي بجملة قصيرة، رغبة في زيادة الألفة: (أحب يا خالد أن أعرف عنك كل شيء، لا أحب أن يخبي عني أعز أصدقائي شيئاً ما) فابتسم، وأخبرني أنها خصوصيات، بل طلب مني، متوسلاً، ألا أسأله هذه السؤال مجدداً. لقد أخرجت منه يا فيصل، لا أظن أنني سأسأله هذا السؤال مجدداً، أنا أسف.

كانت مشاعر مساعد، التي قرأتها عبر الرسالة، مُحبّطة، ومُحيطة أيضاً. شعرت وكأن عينيك تشربت كل خيباته التي سطرها في رسالته، فأصبحت هي أيضاً، خائبة ذابلة، مشبعة بالحزن.

نهضت جالساً، ألقىت ذراعيك على ركبتيك، وأطرقت رأسك. كم كنت غيبياً، حين اعتقدت أن الأمر بهذه السهولة. كنت غيبياً، لم تحسن التفكير، لقد كان عليك أن تتوقع كل الاحتمالات، حتى أسوأها، لقد أسرفت بالتفائل.

إلى متى ستشبح بأنظارك إلى الفراغ كلما وقعْتَ على عينيّ لَمْي؟ ماذا لو طال الأمر أكثر، كيف سيستطيع قلبك تحمّل هذا العذاب، الذي يعصره ببطء؟

لمت نفسك، ألف مرة، على هذه الأسئلة التي لم تضع لها جواباً.

وبينما لا تزال، غارقاً في خيبتك. داهمتك فكرة مجنونة، لتخلق لك أملاً من نور. التقطت هاتفك، وهرعت تكتب إليه:

- مساعد سنسلك طريقاً آخر.

أجاب، بعد ثوانٍ:

- ما هو؟

- ستتبعه عندما يخرج من المدرسة، ستري أين يذهب.

- أنت جاد؟ ماذا لو كان يذهب بسيارة؟

- لا أظن، ليس لديه سيارة.

- كيف عرفت؟

- مساعد ألم أخبرك بأنني جاره، وقد استنجدت أسرته بي؟

- صحيح، نسيت.

- لا بد أنه يسكن قريباً من المدرسة. هل ستفعل هذا من أجلي؟ هيا، لن يكون الأمر صعباً.

رجوته أكثر من مرة، فوافق على مُضض. كان متخوفاً من هذه الخطوة، كارهاً لفعالها، ولكنك أمضيت وقتاً في طمأنته، حتى استسلم أخيراً لإلحاحك المزعج الطويل.

21 ربيع الثاني 1437هـ

ظهيرة الأحد، جاءتك رسالة جديدة، يقول فيها:

- فيصل، خالد يغادر بسيارة، لا على رجليه!

فتحتَ عينيكِ بدهشة، أسرعت تسأله بلا تصديق:

- حقاً!

- أجل، لقد لحقت به وهو يمشي على رجليه حتى وصل إلى الشارع الرئيس. هناك، وقف مدة ينتظر، ثم رجعت أنا إلى المدرسة. لم يكن بوسعي انتظاره طوال تلك المدة، ولكنه حتماً كان ينتظر سيارة!

لم تستطع كتابة شيء، اتصلت به سريعاً، ثم أسمعته تنهيدة متعبة.

- أرجوك، قل شيئاً غير هذا.

قال بتضجر:

- فيصل، إن كنت تريد أن تنصحه بالعودة إلى أسرته فأمسكه من يده إذا خرج من المدرسة وتحدث إليه. أو لا داعي لهذا. أنا سأمسكه وسأجبره على العودة و.....

قاطعته، بلهجة حادة، رفعت معها سبابتك في الهواء، كأنما تخاطب جسداً خفياً:

- إياك، إياك.

سكت مساعداً. فنطقت بغضب:

- إن لم تساعدني، فلا تهدم كل ما بنيته.

أطلق تنهيدة حزينة:

- آسف يا فيصل، ولكن لا أستطيع الاستمرار بهذا، هل أساعدك في شيء آخر؟

نظرت إلى الجدار حزيناً، لاحت في بالك فكرة، رغم اليأس. سألت مساعداً:

- مساعد هل تعرف في حيكم شققاً قريبة من المدرسة، تؤجر للعزاب؟

(10)

22 ربيع الثاني 1437هـ

يوم الاثنين، في الساعة الثامنة مساءً، أوقفت سيارتك، أمام بيت صغير بابه أبيض.

كان الجو بارداً اليوم، السماء السوداء تحجبها بعض الغيوم. أخرجت رأسك من النافذة تنفدها، رجوت ألا ينزل المطر اليوم، فليدك مهمة طويلة لا تريد تأجيلها.

اليوم، طلبت من مساعد أن يخرج معك، لتبحثا سوياً عن شقة خالد.

من المرجح أن خالد يسكن في شقة، لأنه وحيد، ولأن لمى أخبرتك بالمبلغ الذي ورثه من أبيه، وهو يكفي لشقة جميلة، بل فاخرة في حي الخالدية.

هناك، انتظرت مساعد لخمس دقائق، حتى خرج أخيراً، مرتدياً معطفاً ثقيلًا، ووشاحاً رمادياً. ألقى السلام، ثم ركب بهدوء. تأملت هيأته البسيطة، وثوبه القصير الذي ارتفع مع جلوسه حتى وصل منتصف ساقيه. مساعد يبدو بسيطاً في كل شيء. تأملت وجهه الحنطي، انتبهت إلى جرح قديم يستقر فوق حاجبه، وآخر في خده، قريباً من أذنه. ثم انتبهت أيضاً إلى ثالث يستقر فوق شفته العلوية، تغطيه شعيرات شاربه الخفيفة. خمنت أنه دائماً ما يقع في المشاجرات، وقد يكون، هو من يفتعلها بقصد.

خلال لحظة، ندمت لاختيارك مساعد ليكون صديقاً لخالد. خالد الهادئ الكتوم المنطوي، تعرفه جيداً، قد يجامل، ولكنه لا يمكن أن يرغب في مصادقة هذه النوعية من الفتیان. لوهلة، صرت تلوم نفسك ثانية، كيف لم تدرس الشخصيتين وتقارنهما معاً؟

- ما شاء الله، سيارتك جميلة.

قالها مساعد، وهو يتحسس بيده جلد المقعد. استفتت من سرحانك، وصرت تنظر إلى الأمام، فالتفت إليك، وقال:

- فيصل، سأسألك عن أمر يحيرني، لماذا لا تتبع خالد بسيارتك، من غير أن يراك، لتعرف مكان سكنه؟ لماذا أفعلها أنا؟

التفتت إليه، ثم نظرت إلى الأمام، شغلت السيارة، وقلت:

- لقد فكرت بهذه. لا، لا أريد أن أخاطر. لو رأي خالد، سيفشل كل شيء.

قال، بتعجب:

- كيف تخطط أنت؟ أخبرني.

أجبت ببرود، من دون أن تنظر إليه:

- لا تسأل. هذا ليس من شأنك.

سكت، وجلس هادئاً، مكتوف اليدين، يراقب الطريق بسكون.

في مكالمتك الأخيرة سألته عن مجموعة شقق مخصصة للعزاب، تقع في مكان ليس بعيد عن المدرسة. حينما سألته عن مكانها، قال، إنها تقع في شارع يقابل (شارع الباكستانيين). استنكرت هذا الاسم، فأعاده عليك مرتين وهو يضحك. تساءلت بدهشة، هل صارت الشوارع تسمى بجنسيات ساكنيها؟ فأخبرك مساعد، أن أغلب الناس هنا يسمونه بهذا الاسم. هم لا يعترفون باسمه الحقيقي أصلاً.

هناك، حينما وصلت، تلاشت الدهشة تماماً، حيث كان شارعاً فريداً، على يمينه تصطف عمارات متجاورة، مخصصة لمحلات السباكة والكهرباء. هناك، يقف جموع من العمالة الآسيوية، على أرض تكاد تغطيها العلب والكراتين، ودوائر من المستنقعات الراكدة. كانوا خليطاً من هنود وباكستانيين وأفغانيين، لكن الجنسية السائدة، كانت باكستانية. ولهذا، أدرك أهالي الخالدية، أن الشارع كان جديراً بهذا الاسم.

تأملت الشارع، الناس. الملابس المصفرة الرثة، الوجوه الشاحبة، اللحي الطويلة، النحاسية اللون. الأوشحة السوداء التي لفت على الرؤوس، الأجساد العريضة، الطويلة، القوية، المفتولة. لم يكن المنظر مألوفاً لديك، تخلو الأحياء التي تزورها عادةً، من شارع باكستانيين مشابه.

حوّلت عينيك الى الشارع المقابل، تبدو العمارات فيه راقية، وإن لم تبدُ كذلك إلا مقارنة بعمارات الشارع المقابل.

أوقفت سيارتك، نظرت إلى العمارات، التي علقت على بعضها لوحات متشابهة، كتب عليها، بالخط العريض: (شقق عزاب، للإيجار). تفحصتها بعينيك، لا بد أن خالداً يسكن أحدها، وحده أو مع صديق. إن لم يكن هنا فأين يسكن؟ هذه شقق مناسبة، جميلة رغم بساطتها، قريبة من المدرسة، ولا تظن أن إيجارها قد يرهق ماديته البسيطة.

التفتت إلى مساعد، سألته بحيرة:

- والآن، كيف سنبحث هنا؟

- نسأل حراس العمارات.

أجاب بذكاء، فابتسمت له، ومددت يدك، فركت بها شعره الكثيف:

- أحسنت، لم تخيب ظني.

نزلت من السيارة بمعيته، أشرت إلى العمارة الأخرى:

- أنت ابحث في تلك، وأنا في هذه.

هز رأسه بطواعية، وذهب يركض. التفتت إلى باب العمارة المفتوح، سحبت نفساً عميقاً، ثم دخلت، بتردد. تأملت المكان، الأرضية بلطت برخام أبيض مطفي تزيينه خطوط رمادية، والجدران بيضاء كذلك. لا يوجد مصعد، تبدو العمارة أكثر تواضعاً من الداخل. صعدت ثلاث درجات قبل أن تستقبلك ثلاثة أبواب، واحد على اليسار، واثنان في الواجهة. تساءلت، أيها لغرفة الحارس؟ ثم وجدت نفسك تتوجه مباشرة إلى الباب الأيسر.

طرقته مرة، مرتين، واصلت الطرق بشدة، حتى فُتح الباب، فتفاجأت برجل أسمر، يرتدي ثوباً أبيض واسعاً، أوحى لك بأنه سوداني. كان وجهه صارماً جداً. سألته، بتوتر:

- أنت الحارس؟

هز رأسه، ثم سأل:

- ماذا تريد؟

- في الحقيقة أنا أبحث عن فتى غادر منزله ولم يعد. وأشك أنه يسكن في إحدى هذه العمارات. أريد أن أسأل، هل يسكن هنا شاب صغير، في حدود السابعة عشرة، أسمر، نحيل، يرتدي نظارة، اسمه خالد؟

عقد حاجبيه الكثيفين، في محاولة للتفكير، ثم أجاب:

- لا، لم أر شاباً بهذه المواصفات.

شكرته، فهز رأسه، وعاد إلى الغرفة.

خرجت إلى الشارع، رجوت أن يكون مساعد قد حصل على نتيجة. التفتت إلى عمارة قريبة، يبدو أن مساعداً لم يبحث بها، لقد ذهب في الجهة الأخرى. ذهبت إليها، دخلت، كانت تشبه العمارة الأولى، بالتصميم نفسه، ضيقة من الداخل، كئيبة وذات إنارة خافتة جداً.

طرقت الباب الأقرب إلى المدخل، لا بد أن هذه غرفة الحارس، الحراس عادة لا يأخذون إلا الغرف الأقرب إلى الباب. انتظرت طويلاً، أعدت الطرق مجدداً، نظرت إلي ساعتك، هل ينامون مبكراً؟ تساءلت. وما بين لحظات طرقت وانتظار، فُتح الباب، أخيراً، فظهر شاب حنطي، يرتدي فانيلا داخلية مصفرة وبلا أكمام، يديه وأكتافه كلها عارية. يستر نصفه السفلي سروال قصير جداً. تقززت من بشاعة منظره، لا بد أنه كان نائماً، لاحظت ذلك من عينيه المحمرتين، وشعره المبعثر، الذي لا ينفك يحكه كل ثانية.

- عذراً، أظن أنني أخطأت في الغرفة.

هز رأسه بتفهم، وعيناه خدرة، أثر النعاس. سألته:

- بالمناسبة، أين هي غرفة الحارس؟

أشار إلى الباب المقابل لغرفته، شكرته، فهز رأسه مرة أخرى. قطبت حاجبيك باستنكار، وددت لو تسأله كيف ينام هكذا والجو بارد؟ لكنه سرعان ما أغلق في وجهك الباب.

تلوي فمك مشمئزاً، ثم تتساءل بسخرية، شقق عذاب، هل يمكن أن تفتح الباب حسناء فاتنة جميلة؟ التفتت إلى الغرفة المقابلة، خرج هذه المرة حارس مصري، فسألته عن خالد، كان الجواب، كما توقعت، لا. خرجت تجر أذيال الخيبة، رأيت مساعداً من بعيد، يركض إليك. هذا الصغير النشيط، لا بد أنه قابل أثناء بحثه هذه العينات من الشباب، ترى بماذا شعر؟ أم إن الأمر عادي بالنسبة له؟

ما إن اقترب إليك، حتى أبطأ من ركضه. قال، وهو يهز رأسه:

- لم أجده يا فيصل.

- بكم عمارة بحثت؟

- عمارتين، لا توجد غيرها أصلاً.

ثم سكت، يتنفس قليلاً، فجأة انتبه إلى شيء، قال، وهو يشير بسبابته:

- هناك عمارة أخرى، فلنبحث بها.

- لقد بحثت بها. مساعد شكراً على المساعدة، شكراً جزيلاً.

ابتسمت له، فhez رأسه بابتسامة صغيرة، وسأل:

- والآن، ماذا سنفعل؟

- سنبحث في مكان آخر، ولكن ليس اليوم. لا بد أن هناك عمارات أخرى.

- ولكني لا أعرف غير هذه!

- سنسأل أحداً. هيا لنذهب.

ركب السيارة معك، أوصلته إلى بيته، وشكرته مرة أخرى، بحرارة.

كانت لحظة مظلمة تلك التي عدت فيها إلى الشقة، والساعة تشير إلى التاسعة والربع.

في الصالة، تفاجأت، وأنت تلقي بشماغك على الأريكة، بلمى، نائمة على الأريكة الأخرى، مستلقية على شقها الأيمن، وجهها إلى ظهر الأريكة، وظهرها متجه إليك، مسترخية وغائبة في حلم بعيد. لم تكذ تصدق عينيك، وحين التفتت إلى التلفاز، اكتشفت السر، لقد استلقت وهي تشاهد أحد أفلام ديزني المشهورة، ثم غلبها النعاس، وغرقت في نوم عميق.

بلا شعور، صرت تقترب منها كثيراً، انحنيت، تأملتها، كانت نائمة فعلاً، مستغرقة في النوم رغم حالتها الفوضوية. لاحظت أن عباءتها قد ارتفعت قليلاً، إلى الركبة أو أسفلها بقليل، فأنكشفت ساقها البيضاء. توترت قليلاً، لم تستطع أن تغض عينيك، وأنت ترى تلك الساقين البيضاءوين، النحيلتين، الناعمتين. فجأة، انقلبت لى على ظهرها، صار وجهها إلى السقف، فارتفعت العباءة أكثر، وظهرت ركبتيها كاملتان. استحالت نظرتك العابرة إلى تأمل طويل، ثم إلى تفحص دقيق. بشرتها بيضاء، صافية، رقيقة، ملساء، مثل ورقة ناعمة، أو نهر بياض. أطلت النظر أكثر، دوختك صورة ساقها، تخيلت العباءة ترتفع أكثر، وأكثر، وأكثر...

سحبت نفساً، تراجعت إلى الورا، أغمضت عينيك، ثم زفرت زفيراً طويلاً. لا، لن تفعلها، أدرت جسدك إلى الورا، لن تسمح لثانية أن تسلب معها كل شيء، لن تجعل هذه البراءة الطاهرة، تنجسها أيادي الشياطين.

انسحبت إلى غرفتك سريعاً، كانت دوخة قصيرة، ولحسن الحظ، أن جزءاً في عقلك استفاق، قبل أن يذوب كما ذاب كل شيء فيك، بصورة ساقيةا.

استلقيت على السرير، لعنت نفسك ألف لعنة، ثم سحبت حاسوبك المحمول، المرمي في أقصى السرير. ستشاهد أي شيء، أي شيء بوسعه أن يخمد هذا الاشتعال.

(11)

23 ربيع الثاني 1437هـ

يومٌ جديد، وموعد جديد مع مساعد، ومحاولة أخرى في سبيل إيجاد خالد.

خرجت من غرفتك متأخراً، وفي طريقك إلى الباب، رأيت لى، وحزن جديد يستوطن عينيها، يمتد منها إلى الأعلى، ينتشر في الصالة، في الجدران، وحول كل شيء. ما إن نظرت إليها حتى ضاق صدرك، ثم في لحظة، تداعت في خيالك ليلة الأمس، وتشكلت صورة ساقيةا البيضاء في رأسك، واضحة جداً، تبدو حتى أوضح من الطبيعة. أغمضت عينيك، سحبت نفساً عميقاً، حاولت طردها من خيالك، ثم خرجت سريعاً وأنت تلعن نفسك.

في السيارة، لم يفارق حزنها مخيلتك، شعرت بهمها يهبط على صدرك، وكرهت أن يطول بقاؤها أكثر، وهي بتلك الحال.

وصلت إلى بيت مساعد والساعة تقارب التاسعة وأربعين دقيقة. ناديته ببوق سيارتك، فخرج بعد ثوانٍ، مرتدياً ثوباً أسود، ومعطف، وقبعة صوفية.

ركب السيارة، أغلق الباب وهو يرتجف، جلس ساكناً لثوانٍ، ثم التفت إليك، قال، وهو يضيق عينيه متوسلاً:

- الجو بارد جداً، فيصل، ما رأيك أن نؤجلها ليوم آخر؟ لقد أقنعت أبي بالخروج بصعوبة، حتى إنني لم أتأكد من كونه راضياً.

سكتت قليلاً، ضاق صدرك من كلامه.

- مساعد أعرف أن الجو غير مناسب للقيام بهذا، حتى أنت، أشعر بأنك لست في مزاج جيد، ولكني، لا أستطيع التأجيل أكثر.

سكتت قليلاً، ثم اقتربت منه، قلت، بجدية بالغة، وصوت أقرب إلى الهمس:

- هناك من ينتظر أن يسمع مني خبراً يا مساعد، هناك من أرهقه الشوق.

سكتت قليلاً، انتظرت أن تسمع منه جواباً، لكنه سكت. فاعتدلت على المقعد، وشغلت السيارة، وانطلقت إلى الشارع الرئيس. هناك، سألت أحد العمالة في الشارع، ممن يعرفون هذا الحي جيداً، عن شقق قريبة للعزاب، غير التي كانت في ذلك الشارع. فذلك على ست عمارات في الحي، متفرقة وليست قريبة جداً من هنا. فتحت مفكرة الهاتف، وكتبت أسماء الشوارع كلها، رغم أنك لا تعرف مواقعها.

عدت تتأمل الأسماء، هناك عمارتان في الشارع نفسه ولكن العامل قال إنهما الأبعد من هنا. التفتت إلى مساعد بابتسامة عريضة، خاطبته، بفرح واضح:

- ست عمارات! هناك أمل يا مساعد.

ابتسم بابتسامة خافتة. سألته عن مواقع الشوارع، ثم وصلت، بعد دقائق، إلى الشارع الأول.

كان صاحباً، تصطف على جانبه عشرات المطاعم صغيرة، لذلك، كانت السيارات تملأ المواقف. بالكاد وجدت مكاناً تركن فيه سيارتك، كان بعيداً، في آخر الشارع. أرسلت عينيك تتأمل المسافة بين العمارة المقصودة ومكانك هذا، وتساءلت، هل ستمشي على رجلك كل تلك المسافة؟ التفتت إلى مساعد، الذي كان مسنداً رأسه على النافذة، مكتفياً يديه، يبدو ساكناً، ولكنك لاحظت رعشات يديه الخفيفة، فكرهت أن تأمره وهو بتلك الحالة.

نزلت مُجبراً، أقفلت السيارة، دسست المفتاح في جيب معطفك، ثم مشيت على رصيف طويل، مُرقع، مكسور في بعض أجزائه، نظيف في أماكن، متسخ في أخرى.

شعرت بأنك تعبر جسراً اختلطت عليه آثار الشعوب، جسراً طاف حول العالم كله قبل أن يستقر هنا في شارع من شوارع الخالدية.

أيقن صاحب كل محل أن الجزء الصغير الذي يحتله محله من الرصيف هو ملك له، يزيّنه بما يريد ويشوّهه كيفما يريد. حين رأيت قطعت كرتون كبيرة وُضعت على الرصيف أمام باب المحل عرفت أنك مررت أمام مخبز تيميس لباكستاني لا شك أن محله يعج بمثل هذه

الكراتين. وحين رأيت أرضية الرصيف البازلتية السوداء استحالت مبلطة بالفسيفساء البنية، عرفت أنك أمام مطعم شامي. وكلما مررت في بقعة شممت رائحة مختلفة، رائحة شواء، أرز، دجاج، مقلبات وزيت قديم. تعجبك بعضها، تتقزز من الأخرى.

وصلت أخيراً إلى العمارة، ووقفت أمام باب أسود حديدي، وسط جدار متسخ، غطته الملصقات الدعائية. كان موارباً، دفعته، فرأيت ممراً مظلماً، ينتهي بجدار، وباب على اليمين. دخلت، فاجأتك رائحة كريهة، سارعت بتغطية أنفك وفمك بطرف الشماع. ما هذا المكان؟ شعرت بغثيان، وأنت ترى الأرضية، الفاتحة، التي بلطت بلاطات مرقعة، استحالت سوداء. كانت أكياس القمامة، والكراتين، والعلب، تغطي الأرض.

هل يمكن أن يسكن خالد هنا؟ تساءلت، ثم تذكرت شيئاً، لقد قررت أن تتوقع كل الاحتمالات، حتى أسوأها. ليس شيئاً مستحيلاً أن يسكن خالد في عمارة مثل هذه، ربما أراد أن يوفر ماله لشيء أهم.

مشيت رافعاً أطراف ثوبك، دخلت من الباب الأيمن، تأملت المكان، بدا جميلاً مقارنة بمظهر العمارة الخارجي. كانت هناك أبواب كثيرة، بدأت في الباب الأول، هذه المرة، لحسن الحظ، لم يخطئ حدسك.

طرقت الباب بهدوء، فخرج الحارس، كان نحيلاً أصلع وحليق الذقن. في تلك اللحظة، نطق لسانك بشكل تلقائي، عبارات، صرت تحفظها جيداً:

- السلام عليكم، عذراً على الإزعاج، ولكنني أبحث عن شخص خرج من المنزل ولم يعد. فأردت أن أسأل، هل يسكن هنا شاب أسمر، نحيل ...

قاطعك بسرعة، قائلاً:

- لا

واصلت، بشكل آلي:

- في حدود السابعة عشرة، يرتدي نظارة ...

- لا يا أخي، لا.

قالها بملل، سكتت قليلاً، شعرت أنه غير مهتم بما تقول. أكملت، بإصرار:

- اسمه خالد محمد؟

سألك، بنبرة ملولة، متضجرة:

- سعودي؟

- نعم.

قال، بغلظة مقصودة:

- لا، لا يوجد سعوديون هنا، لا نؤجر للسعوديين.

ثم أغلق الباب بسرعة، ليسد في وجهك كل فجوة.

تسمرت لثوان قليلة، في محاولة لاستيعاب الأمر. اتسعت عيناك، ما هذا المزاج السيئ؟ شعرت بالإهانة، أحسست بالدم الحار يرتفع إلى صدغيك، وتصوّرت، في لحظة، أنك لست إلا شحاذاً يطرق الأبواب الخلفية يتسوّل من أصحابها إجابة.

اشتعلت نيران الحقد في صدرك، ولكن، لسبب تجهله، غلفك العجز، وشعرت أنك ضعيف ومكبّل عن فعل شيء. أطلقت شتيمة نابية في وجه الباب، ثم عدت إلى السيارة غاضباً، تكاد خطواتك الثقيلة أن تحفر الأرض. كانت إهانة الحارس الأجنبي مُرّة، جارحة، ويرتفع ألمها ليغدو ظاهراً وواضحاً على الوجوه. مشيت خافضاً رأسك كأنما تخشى أن يكون هناك من يقرأ الوجوه، فتبوح له ملامحك بما قد حصل. حين ركبت السيارة، أفرغت غضبك على الباب، ففز مساعد خائفاً، يسألك بعينين قلقتين:

- بسم الله، ما بك؟

- لا شيء.

أجبت، ثم أشحت بوجهك بعيداً. ربما لم يكن مساعد مخطئاً حينما طلب تأجيل المهمة، كان الأمر أصعب مما تتصور.

- هذه العمارات ليست للسعوديين. هل يمكن أن يسكنها خالد؟ مستحيل. كيف لم أعرف أنا هذا؟

- فيصل، ماذا حدث؟

سحبت نفساً، وشغلت السيارة:

- لا شيء، لا شيء. سنواصل البحث. هيا دلني على الشارع الآخر.

بعد دقائق، وصلت، مستعينا بمساعد، إلى العمارة التالية. أطفأت السيارة، التفتت إليه بملل، قلت، بلهجة أمرية:

- هذه المرة دورك أنت، انزل.

هز رأسه موافقاً، أغلق معطفه جيداً، مط قبعته الصوفية ليغطي أذنيه، ثم فتح الباب، واختفى.

بقيت تنتظره بملل، شغلت التكييف الساخن وأرخيت رأسك على زجاجة النافذة، ثم أغلقت عينيك. عاد مساعد بعد قليل، استفتت على صوت باب السيارة وهو يفتح، والهواء البارد الذي دخل فجأة. اعتدلت في جلوسك، سألته بيأس، فجاء جوابه، متوقفاً.

فتحت مفكرة الهاتف، قرأت أسماء الشوارع، حسبت العمارات المتبقية، أيقنت أنك لن تجد خالد يسكن أحدها. تساءلت، لماذا تضيع وقتك على أشياء كهذه؟ اعتراك شعور مفاجئ بمدى سخافة ما تفعل، وشعرت، أن وقتك الذي يمضي دوماً بلا فائدة أثمن من أن تضيعه على هذه التفاهات.

أحسست أن مكان خالد لن يعرف أبداً، وأن لمي لن تكف عن البكاء، وأن حزنها المديد سيمتد أكثر فأكثر، وسيغمر أرواحكما على الدوام.

في هذه اللحظة، تحول الأمر إلى قرار، ستواصل البحث مجدداً، لا شيء، فقط ليتحول الإحساس إلى يقين.

في العاشرة والنصف، أوقفت سيارتك، في الشارع الأخير. شطبت على أربع عمارات وبقيت اثنتان، ولا يزال اليأس سيد الشعور.

أطفأت السيارة، ونظرت إلى مساعد تحته على النزول. لم يبدُ راغباً في هذا، لقد بحث في ثلاث عمارات وأنت لم تبحث سوى في واحدة. يبدو أنه مل من طرق الأبواب والانتظار، ولربما أخطأ مرة في تحديد باب الحارس فكلفه ذلك الكثير من الاعتذارات والإحراج.

لم تشأ أن تجبره على ذلك. كما أنه يبدو وكأن النعاس قد بدأ يداعب جفنيه، كان جسده مسترخياً مع هواء المكيف الساخن، ومستسلماً تحت دفء لذيذ. ضاقت بك الحيلة، كيف

ستنزل بعد تلك الإهانة؟ بدأت نفسك تراودك بالاستسلام، لكن، جاء تأنيب ضميرك موجعاً، فكرهت أن تستسلم في آخر الطريق.

قلت لمساعد:

- اسمع، سأنزل أنا الآن، سأبحث في هذه لكن في العمارة الأخرى، ستبحث أنت.

لم تسمع له رداً، نزلت، دخلت إلى العمارة، فعلت الشيء نفسه، طرقت الباب، ثم صرت تمشي في المكان ذهاباً وإياباً، واضعاً كفيك خلف ظهرك.

رغم أنك طرقت بشدة، تأخر الرد هذه المرة أكثر من المُحتمل. نظرت إلى ساعتك، مضى على وقوفك هذا ما يقارب العشر دقائق، ولم تحصل على أي استجابة. طرقت الباب بشكل أقوى، قررت أن تسلط كل الحقد الذي أوغره ذلك الحارس الأجنبي في صدرك على باب خشبي لا يملك حولاً ولا قوة، حتى سمعت صوتاً من وراء الباب، فتوقفت خشية أن ينكسر.

تنفست قليلاً، ووقفت في انتظار أن يُفتح الباب. تخيلت أن يكون هذا ليس هو الباب الصحيح بعد كل هذا الطرق والانتظار، ستضحك كثيراً، ولا تعلم ماذا سيأتي بعد هذا الضحك.

فُتح الباب أخيراً، ظهر رجل أسمر، تسبقه بطن كبيرة، قضى الشيب على نصف شعره بينما قضى الصلع على النصف الآخر. كان مذهولاً، خائفاً، ما إن رآك حتى سأل بدهشة:

- خيراً إن شاء الله؟ ماذا هناك؟

ابتسمت بسخرية:

- أنت الحارس؟

- نعم، ماذا تريد؟ ولم كل هذا الطرق؟

- اعذرني يا أخي، ولكن هناك أمراً ضرورياً.

شرحت له القصة باختصار، أمليت عليه مواصفات خالد، تلك الكلمات الثلاث، التي جف لسانك جراء ترديدها: أسمر، نحيل، عمره سبعة عشر عاماً. ما إن سمع الحارس العمر، حتى قال، بسرعة:

- لا، لا يسكن هنا أحد بهذا العمر.

ثم عاد إلى غرفته، وأغلق الباب. شعرت، بعدها، أن كل أبواب الدنيا أغلقت في وجهك.

ثُرى لماذا لا يشعر أحدٌ بعظمة المشكلة؟ لماذا لم يتعاطف أحد مع قصة الفتى الهارب المفقود ويبيد بعض الاهتمام؟

رجعت إلى مساعد بأسى، ركبت السيارة، لم تلتفت إليه، لم تخبره بما حصل. تحركت ماشياً إلى العمارة الأخرى، كان بابها في الجهة الخلفية، فاضطرت لدخول الحارة الهادئة، وركنت سيارتك بجوار الباب. كانت الساعة تشير إلى العاشرة وأربع وأربعين دقيقة. التفتت إلى مساعد، رمقته بنظرة مُرعبة، وهمست:

- انزل.

قرأت على وجهه تعابير كثيرة، خوف، قلق، توّسل، تعب، كره وغضب صغير. أردت تخويله حتى ينزل، فتحت عينيك على وسعهما، وأشرت بهما إلى باب العمارة. لم تشفق عليه أبداً، كان عليه أن يثبت استحقاقه للمكافأة.

نزل، انتظرته لمدة ست دقائق، حتى خرج، ثم صار يمشي ببطء غريب متجهاً نحو السيارة. فتح الباب، جلس بهدوء غريب، وأغلق الباب بقوة. وحين سألته عما حصل، لم يجيبك، ولم ينظر إليك حتى. تفحصته بدهشة، كان ساكناً، على وجهه ظلمة غريبة، عيناه تنضحان بالحزن. شعرت بأنه على وشك البكاء. ماذا حدث له يا ثُرى؟

نظرت إلى باب العمارة، فكرت قليلاً. خمنت أنه وقع على عصبي من ذوي الأمزجة العكرة جداً فسكب جام غضبه عليه. ضيقت عينيك أسفاً على حاله. المسكين، لا بد أن أحدهم صرخ في وجهه. حز في خاطرك أن أجبرته على مهمة لا يطيقها.

مرت دقائق قصيرة، شعرت فيها أن هذه آخر مرة ستخرج فيها مع مساعد بحثاً عن خالد. لقد أجبرته على الخروج في جو بارد، من غير أن يتأكد من رضا أبيه. ثم أجبرته مرة أخرى على النزول، وطرق الأبواب في آخر الليل وإزعاج النائمين فلاقي من التوبيخ ما لاقى حتى سيطر عليه الحزن وصار وجهه مسوداً وهو كظيم. لا تظن أنه سيحب تكرار هذه الرحلة معك، حتى المئات الستة لن تخفف ألم جرحه النازف.

- فيصل، أعدني إلى البيت.

قالها بلهجة أمرة، وفي نبرته غضب صغير. هززت رأسك موافقاً. في طريق العودة، اعترته نوبة عطاس متكرر، فعلمت أنها بداية لزام شديد، لا شك أنك سبب في مجيئه.

ودعت مساعداً أمام باب بيته وداعاً أخيراً، وأيقنت، أنها آخر مرة تراه فيها.

(12)

29 ربيع الثاني 1437هـ

لا تدري على وجه الدقة كم يوماً مر، بعد محاولتك الأخيرة مع مساعد.

منذ ذلك اليوم وأنت حبيس غرفتك، تقضي البيات الشتوي بهدوء، مثل دب اعتزل العالم في كهفه البعيد.

لم تكن الانفلونزا التي أصابتك ذلك اليوم ورافقها حمول شديد سبباً لوحدها. بل هو عجزك عن شرح الأمر للمي، وهو أيضاً ضعفك أمام صورتها والحزن يعصرها، واليأس يخطف آمالها أملاً بعد أمل. لا شك أنك ستفضل البقاء في الغرفة، لأول مرة، تكون عزلة التعيس خير له من مجابهة العالم، لأن هناك كائناً ينتظره خارج الغرفة، كائناً صغيراً، يساوي العالم بل أكثر، يقابله دوماً بسلاحه الوحيد، بالدموع التي تصهر قلبه.

تقضي حالياً أكثر من نصف يومك في نوم ثقيل، النصف الآخر يمضي في الاستلقاء ومتابعة الأفلام الأجنبية تحت إضاءة خافتة. لم تنس أن تملأ ثلاثتك الصغيرة ببعض الأطعمة والمشروبات، كانت هي الصديق الوحيد الذي يسلي وحدتك.

ورغم أنك أغلقت بابك منذ ذلك اليوم، لم تتجرأ لمي على طرقة أبدأ. بات سكوتها هذا يثير تساؤلك، أذهلتك قدرتها على الصمود، وتمنيت أن تكسر خجلها لتطرق الباب، لتخبرك كم شعرت بالوحشة بدونك، لكن شيئاً لم يحدث.

جاء يوم الاثنين محملاً بكآبة لا تطاق. لم تنم ليلته نوماً متواصلاً فاستيقظت في حلول الخامسة والنصف عصراً، وجسدك محموم، يستنجد تحت ثلاثة قمصان صوفية، وأنفاسك مكتومة أسفل غطاء ثقيل. أزحت الغطاء ثم نهضت تتنفس بعمق، كان نور السماء الأزرق يملأ الغرفة، باعثاً فيها كآبة تكتم الأنفاس.

رفعت خصلات شعرك المبللة بالعرق، تحسست جيبيك الساخن المحمر، ثم نزعت قمصانك الصوفية وبقيت بفانيلة قطنية داخلية بلا أكمام. بهدوء، صرت تدلك ذراعك اليمنى التي

تخشبت من فرط ما بذلت من مجهود طويلة ساعات الليل. ثم عاودت الاستلقاء مجدداً، مثل طريق.

لم تنهض لتستحم، تعرف أنك لم تنته بعد، ستفعلها مجدداً مثلما فعلتها ثلاث مرات مسبقاً. في داخلك شهوة في أوج اشتعالها، وجسدك الخامل لا يملك إسكاتها، والضيق في صدرك يزداد أضعافه كلما أظلمت الغرفة أكثر فأكثر.

بقيت على حالتك تلك ما يوازي ساعة. حتى سمعت، أو توهمت، طرقةً خفيفاً على الباب. اعتدلت جالساً، نظرت إلى الباب بعينين مدهولتين. ثوانٍ قليلة، وعاد الطرق مجدداً، فعرفت أنها لى.

نهضت تفتح لها باب الغرفة بتثاقل، تأملتها ملياً، كانت بعينين محمرتين، ووجهها يزداد ذبولاً يوماً يوماً. لم تنطق بحرف، ولكنك رأيتها تتراجع إلى الوراء، ثم تقف بجوار الباب، وهي تعبت بأطراف أكمامها، وعيناها إلى الأرض. علمت أن بداخلها محيطات من كلام، فخرجت إلى الصالة، وجلست على الأريكة تاركاً إياها على وقوفها وصمتها. لم تمضِ ثوانٍ حتى جاءت إليك، وجلست على الأريكة نفسها، مخبئة يديها بين فخذيها. سألتك بحزن:

- هل هناك خبر عن، عن خالد؟

هزرت رأسك نافيةً، فسألتك مجدداً وهي على وشك البكاء:

- هل وجدته في المدرسة؟

تنهدت، حاولت أن تشرح لها الأمر، ولكن شيئاً ما أخرج لسانك.

فجأة، قفزت إلى ذهنك، تلك الصورة اللعينة، صورة ساقى لى، وشعرت أن شيئاً بداخلك، أوشك أن يفقد صبره. أطلقت عينيك تتفحص ملامحها الصغيرة، الغارقة في الحزن. لم ترَ لى يوماً بهذا الوضوح، بهذا القرب وبهذا الجمال أيضاً.

كانت لى جميلة، ربما لم تكتشف أنها كذلك إلا اليوم. لبشرتها بياض عذب تخالطه حمرة فاتحة، تتركز على خديها. شفتاها صغيرتان، رقيقتان، وأنفها كذلك، صغير، هو أول ما يحمر عند بكائها. توحى عيناها الناعستان بأنها طفلة بريئة، ناعمة، تُبكيها النظرات الحادة ويخدشها النسيم.

حين اقتربت إليها أكثر، رأيتها تبتعد قليلاً، وصارت تنظر إليك بدهشة وتعجب. يا الله، كم كانت ضعيفة، ضعفها هذا حولك إلى شيطان قديم كنت تعرفه جيداً، كان يوماً ما يمثل

وجهاً آخر لك. كم ستبكي لى بعدها، كم ستبكي لو فعلتها، ستظل صورة الرجل ذي الأكتاف العارية الذي استحال شيطاناً عالقة في مخيلتها إلى الأبد.

فجأة، بكت لى، بكت حقيقة لا خيالاً، دفنت رأسها في حضنها، ثم -حمداً لله- رجعت إلى رشك. سمعت صوت حُرقتها ينبعث من رأسها المدفون، وهي تبكي بكاءً موجعاً. ما الذي جرى لها؟ تساءلت مذهولاً، ثم مضيت تلعن الشيطان، تحمد الله، وتبكي داخلياً.

حين غلفك العجز، تنهدت، وصرت تربت على ظهرها بلا حيلة. همست لها بهدوء:

- لى، اسمعيني لحظة، لا أستطيع أن أجلب لك خالد بتلك السهولة. يجب أن أتكلم معه بصفتي صديق، أريد أن أهمس في أذنه بعض الكلمات، قبل أن أدعك تذهبين معه.

أردت أن تواصل شرح الموضوع، لكن شيئاً ما عقد لسانك. نهضت مسرعاً إلى الغرفة، أخرجت بنطالاً وقميصاً صوفياً وارتديتهما على عجل. تناولت المفاتيح وعلبة السجائر، وخرجت بسرعة، تاركاً إياها غارقة في خيبتها.

لم تعرف لى، أبداً، ما الذي أصابك في تلك اللحظة.

منذ غادرت الفندق وأنت تتساءل بخوف، ماذا لو صار الشيء الوحيد الذي يجب أن تحمي لى منه هو نفسك حين تهيج؟

لم تتصور يوماً أن لى النحيلة، الضئيلة، الهشة، قد تحرك في داخلك شيئاً. سبعون يوماً مضت على وجودها معك، كانت كافية لأن تدرك أن حمايتها من كل الشرور الخارجية أسهل بكثير من حمايتها من نفسك، وأن الشيطان حين يستيقظ في داخلك، يصبح أقوى بكثير من أي مشاعر أبوية حانية.

شعرت اليوم بحاجة ماسة إلى أذن تسمعك، إلى شخص تستشير، إلى صدر تفرغ فيه شيئاً من همومك وتلتمس منه مساعدة أو مواساة. لم يكن والدك هو الرجل الأنسب لمثل هذه المشكلات، ولكن في هذه اللحظة، أنت أحوج ما تكون إليه.

سلكت الطريق المؤدي شمالاً، وقبل السابعة بقليل، دخلت، إلى حارة هادئة، خافتة الإنارة، ساكنة لا يسمع بها صوت. تطل عليها من الجانبين مجموعة قصور فاخرة، جميلة الواجهة،

هائلة الحجم والمساحة، ينام أصحابها في بحر من العسل لا يراه سوى المحرومين.

يقطنها الكثيرون، ما بين خدم وحشم، سائقون وطباخون، عمال وحراس، أعداد كثيرة يصبح أصحاب البيت من بينهم شيئاً لا يذكر. ورغم كل هذه الأعداد الهائلة، فإن من يرى هذه البيوت لأول مرة، يخالها بظلمتها، ووحشتها، وسكونها القاتل، مهجورة.

أوقفت سيارتك بطريقة عشوائية ثم نزلت، تجر خطاك الثقيلة نحو الباب. ما إن رأيت ذلك الباب الأسود الحديدي حتى شعرت بجبل ثقيل يرقد على صدرك. لا يمكنك أن تنسى صوت صريره المميز، كنت تسمعه في كل مرة تعود فيها إلى البيت بعد سهرة مخمورة قضيتها في أقاليم الثمامة، ولطالما كان رديفاً للحظات سيئة ومشاعر مكتئبة.

فتحت الباب بسرعة، تجنباً لأي صرير يأتي جالباً معه ذكرى قبيحة. كانت مصابيح الفناء الخارجي مضاءة، تبدو مثل نقط ذهبية على الأرض تحيط بمساحتين دائريتين، يغطيهما العشب الأخضر والأشجار المشذبة صغيرة. لمحت عثمان من بعيد، مساعد والدك الشخصي، والذي يقيم هنا منذ أكثر من عشر سنوات. سلمت عليه، سألك عن أحوالك فابتسمت له مجاملة، ورميت إليه مفتاح سيارتك، كي يتولى إدخالها بنفسه.

في الصالة، حين دلفت، كان أحدهم بانتظارك. منى، زوجة أبيك، تفاجأت بمجيئك كثيراً. رأيتها تضع كوب القهوة الذي كان بيمينها على الطاولة، وتقول بدهشة:

- فيصل! أخيراً جئت! ما هذا الغياب؟

ابتسمت بسخرية ثم خاطبتها وأنت تجلس على الأريكة:

- ألسنت كثير الخروج من البيت؟ ألم تعتادي على طبعي؟

- بلي ولكن ليس بهذه الصورة! في البداية توقعت أنك مع فهد، لاحقاً عرفت من والدك أنك استأجرت فندقاً تقيم فيه لكنني إلى الآن أجهل السبب. ما السبب؟

- أريد أن أرتاح قليلاً لوحدي.

- وماذا قلت لوالدك؟

- هو لم يسأل أساساً عن السبب. حينما أخبرته، سكت قليلاً، ثم قال: "كما تريد" وأغلق الهاتف. اتصل بي بعدها مرتين فقط ولم يسأل ما إن كنت سأعود أم لا.

قلتها بشيء من الضيق، فأشفقت منى على حالك. قالت مواسية:

- أعرف أن أباك مقصرٌ في اهتمامه، ولكنك تعرف بأنه مشغول، وأنت يا فيصل لست طفلاً يضيع بدون اهتمام، في هذا العمر، يجب أن تكون أنت من يسأل عنه. دعك من هذا، أليس شيئاً جميلاً أن تعيش حراً طليقاً بلا قيود؟ ألم تخبرني عن فهد، وكيف أنه يكره صرامة والده وشدة اهتمامه وخوفه عليه؟ ألسنت أحسن حالاً منه؟

هذه منى، منذ عرفتُها وهي لا تنفك تقدم هذا النوع من المواساة، وتعيد على مسمعيك الجمل ذاتها.

- منى كفى أرجوك، لقد سمعت منك هذه الأسطوانة حتى حفظتها. ويبدو أنني مهما شرحت لك الأمر لن تفهمي أبداً. أغلقي الموضوع رجاءً. بالمناسبة أين هو؟ أريد أن أحادثه في موضوع مهم.

- كان معي قبل قليل، قال بأنه سيجري مكالمة سريعة ثم سينزل ليشرّب القهوة.

- مكالمات مكالمات! وهل وجدنا من هذا الرجل إلا المكالمات؟

قلتها مقهوراً، وفي ظرف ثانية، سمعت صوت خطواته المألوفة يتناهى إلى أذنيك. وقفت سريعاً ما إن دخل إلى الصالة، عضضت شفتيك بندم عميق، وتمنيت لو أنه لم يسمع شيئاً من جملتك الأخيرة. تقدم بخطواته إليك حتى صار جسده قريباً جداً، أرسل إليك نظرة مليئة بالعتاب، ثم همس فجأة بسخرية:

- جئت مبكراً يا فيصل!

قالها بحدة، ثم انسحب سريعاً إلى الأريكة، ليجلس بجوار زوجته، ويشيح بعينه إلى التلفاز. كان تجاهله مرّاً، ابتلعت مزيجاً من الإهانة والألم والدموع وأنت تنظر إلى منى التي أشفقت عليك، حين رأت في عينيك توسلاً مفضوحاً. قالت بأسى، مخاطبة زوجها:

- أبا فيصل، هذا ابنك الوحيد جاء يزورك! تعوذ من الشيطان.

أشاح بوجهه بعيداً، ثم قال، بعد تنهيدة طويلة:

- وهذا ما يحرق قلبي، أنه ابني الوحيد. يغيب شهوراً ولا يسأل ثم يريد منى أن استقبله بالأحضان. دعيه يذهب فأنا لا أفخر به ابناً. فليتعلم كيف يكون ولداً صالحاً حتى أكون له أباً صالحاً.

ابتلعت غصة في حلقك، وسحبت نفساً عميقاً قبل أن يصبح الهواء ضئيلاً ومعدوماً. اقتربت إليه، جلست على يساره قريباً منه، وأمسكت بيده بين يديك الاثنتين، تدفنها في

حضنك.

- أبي، أنا لم أذهب بعيداً، فقط قررت أن أنعزل قليلاً، كنت أعالج نفسي!

- ثلاثة شهور يا فيصل! أليس لديك عائلة؟ أليس لديك أب؟

- بلى، ولكن وجودي في البيت لم يعد يعني شيئاً. ما الفائدة من بقائي هنا إن كنت لا أراك إلا مرتين في اليوم، مرة عند الغداء وأخرى عند العشاء؟

التفت إليك، شعرت أن محاولتك باستعطافه قد بدأت تثمر قليلاً. سألك بهدوء:

- أليس هذا أفضل من ألا يرى أحدنا الآخر أبداً؟ تختار العزلة يا فيصل رغم فراغك الطويل وأختار أنا أن نحافظ على ساعتين على الأقل في اليوم نجلس فيهما معاً رغم انشغالي والتزامي بمئات المسؤوليات. أسألك بالله، من الظالم هنا؟

أنت! نطقت بهذه الكلمة داخلياً، وبقية عالقة بين شفتيك، تتمنى لو تخرج. تساءلت، أي ظلم يتحدث عنه هذا الرجل وهو لم يجلس معك يوماً ما جلوساً كافياً متواصلاً بسبب انشغاله بالمال؟ وهو الذي انفصلت عنه والدتك بسبب انشغاله بالمال؟ وهو الذي لم ينجب منها سوى ابن واحد فقط، بحجة انشغاله بالمال؟ أي ظلم يعرفه هذا الرجل؟

- ولكن الساعتين لا تكفي! كما أنها تتحول دائماً إلى جلسة محاسبة ونقاش حيث تحاسبني على حررتي وعلى نومي الطويل وعلى كل شيء. أتظن أن هذا هو الاهتمام الذي أنشده منك؟

أخذ الندم يتمكن منه شيئاً فشيئاً، وحين رأته بتلك الحالة، قررت أن تواصل التأييب والعتاب، لعله يشعر.

- أيام كثيرة مضت علي كنت أعود فيها إلى البيت في الثامنة أو التاسعة ليلاً أبحث عن أحد لأجد الظلام يستقبلني وكأنني عدت في آخر الليل. أين أهل البيت؟ لا حياة في هذا البيت، وأنا محكوم علي بالسجن فيه، محروم من السفر لوحدي أو مع أصدقائي، ومربوط بأهلي الذين لا أراهم إلا لماماً. أليست جلستي هنا لا طائل وراءها ولا هدف؟

- حسناً، سأحاول أن أخصص جلسة إضافية نجلس فيها معاً لنشرب القهوة في ساعة من المساء، هل هذا يرضيك؟

همس بهدوء، فشعرت في تلك اللحظة برغبة في البكاء. دائماً ما يقدم واحداً من الحلول السريعة في كل مرة تشكو له فيها عن غيابه وسرعان ما ينساها حين تنتهي الجلسة

وينزوي إلى غرفته. نظرت إلى منى التي تجلس في أريكة قريبة وتبتسم برقة، كانت تكبرك بخمسة أعوام فقط ولكنها لطالما كانت أختاً رقيقة وأذناً تشكو إليها ولساناً يواسيك. أشرت إليها بعينيك وأنت تخاطب أباك بسخرية:

- وفي النهاية ستحضر الجلسة منى وحدها، وسنجلس معاً وحدنا مثل كل مرة، أنا أشكو لها وهي تقدم بعض المواساة!

- فيصل!

كما توقعت، لقد صرخ بصرامة. ولكن هذه المرة انقلب حاله فجأة، التفت إليك بكامل جسده، وأمسك بذراعك، وهمس بضعف:

- اسمعني فيصل، الشغل فوق طاقتي، أعدك أن أمنحك بعض الوقت، ولكن أرجوك، لا تغب عن عيني كل هذا الغياب.

- إن شاء الله لن أقصر في حقك. سأزورك مثلما أزور أمي، مرة كل ثلاثة أيام. هل هذا يرضيك؟

نظر إلى عينيك حزيناً، لم يعجبه ما تقول، ولكنه استسلم لرغبة ابنه الوحيد. رغم غيابه الطويل عن المنزل، رغم عدم اكتراثه بوجودك أحياناً، رغم شموخه وجبروته، إلا أن شيئاً واحداً يكسره، هو رغبتك بالهجرة والانعزال. بعد قرارك الذي كسره، لم تتجرأ أن تستشيريه بأمر لى، قبلت رأسه وخرجت سريعاً ذابل الروح، وكانت السيارة هي المكان المثالي الذي استكملت فيه موجة البكاء الداخلي.

(13)

سلكت طريق العودة إلى الفندق. وقبل هذا، كنت قد أصدرت قراراً جديداً، لن تبقى لى معك بعد اليوم. مسألة أن تكون وحيدة، ليس من ورائها رجل يحميها، تفتح أمامك أبواب الرذيلة على مصاريعها.

وصلت في حلول الساعة والنصف. فتحت باب الجناح وحاولت قبل هذا أن تضبط أعصابك وتكون هادئاً أكثر من أي وقت مضى. كانت الصالة خالية، لمى في غرفتها بلا شك. اقتربت من بابها متردداً. طرقته بهدوء شديد، ناديتها، ففتحت بعد ثوانٍ. لا تزال عيناها مثل قطعتي جمر، مما أوحى لك أنها لم تقض وقتها بشيء غير البكاء. ابتلعت ريقاً يسيراً في محاولة للكلام، ثم خاطبتها بتردد:

- لمى، اسمعيني.

ترددت في المواصلة، سكتت قليلاً، ثم أردفت:

- هيا معي، سأخذك، لا أستطيع أن أبقى هنا أكثر.

فتحت عينيها باتساع، طفرت منها دمعة، ثم سألتك بحزن:

- إلى أين؟

- سأخذك إلى الشرطة، هناك سيجدون لك حلاً.

- شرطة!!!

قالتها بعينين مرعوبتين، ثم ظلت تتراجع إلى الغرفة ببطء. خمنت أنها تخطط للهروب وإقفال الباب فسبقتها يدك التي أحكمت قبضتها على ذراعها النحيلة، حتى كادت تعصرها. انفجرت أمامك باكية، فازدادت صرامتك، أضعافها.

- أتهربين؟! هل تظنين أنني لن أستطيع إمساكك؟

صرخت في وجهها صرخة أخافتها كثيراً، وغلفتك قسوة مفاجئة، كانت نهاية اكتئاب شديد وبكاء لاتزال أثاره على مَحْيَاك. سحبتها من ذراعها إلى الصالة وسط بكائها المفجع، ثم أمسكتها من كتفيها، وخاطبتها، بقسوة:

- افهميني، بقاؤك معي مستحيل. سأخذك إلى الشرطة وهم سيتولون أمرك. أنا لست مكلفاً بإبقائك معي، ولست مهيباً لذلك أيضاً. أي شاب في مكاني لن يفعل غير هذا.

- فيصل لا أرجوك! لقد قلت بإنك وجدت مدرسة أخي فلماذا لا تأخذني إليه بدلاً من الشرطة؟

سحبت نفساً طويلاً:

- اسمعي لى، ساكون صريحاً معك. أنا متعب هذه الفترة، أعاني من اكتئاب سببه الأول عجزى عن إنجاز ما أود إنجازة. بإمكانى الذهاب غداً إلى مدرسة خالد وإخباره بكل شيء لكن قبل هذا سأقضي ليلاً طويلاً حافلاً بالهموم، سأظل أتقلب وأفكر وسأجبر نفسى على التريث والمحاولة من جديد، وهذا يعنى مزيداً من الإحباط والاكتئاب. لأن نفسى الكسولة الخاملة لا تجيد سوى تضييع الأيام ثم البكاء على ضياعها. أرجوك دعيني أذهب بك، قد أنسى وترتاح نفسى.

- وماذا عنى أنا؟

سألتك بحزن يذوب له القلب، وكأنها تذكرك بوعدك القديم. أغمضت عينيك، وتجاهلت كل أحاسيسك، ونطقت:

- أنا لست مكلفاً بك، الشرطة ستتولى الأمر.

انخرطت لى في بكاء موجه، ثم تساءلت، وسط أنينها المر:

- لكن، أين سيأخذونى بعدها؟ من سيبحث لى عن خالد؟

فكان تساؤلها عميقاً، أشعل فى قلبك تائيباً لن يهدأ. يجب عليك، من الآن فصاعداً أن تحاول إيقاف هذه الآلة اللعينة التى يسمونها الضمير، تلك التى تعصر القلب وتكويه، حتى يغدو رماداً.

سحبت نفساً طويلاً، تجاهلت أحاسيسك وضغطت على كل مشاعرك وهمست:

- حسناً، هل تخبرينى بما حدث فى تلك الليلة؟

لم تجبك، كانت غارقة فى البكاء، مخفية وجهها بكفيها، الذى غدا باحمراره وسخونته، مثل قاع بركان. هل ستسكت لها مثلما سكتت سابقاً؟ لا، هذه المرة، يجب أن تعرف.

انحنيت إليها، أمسكت بكتفيها الصغيرين وخاطبتها بهدوء:

- حسناً يا لى، هل نعقد اتفاقاً بيننا؟ تخبرينى، مقابل ألا أذهب بك إلى الشرطة. هل توافقين؟

هزت رأسها موافقة، مسحّت بذراعها عينيها وأنفها، ثم سارت بجوارك، إلى حيث أخذتها إلى الصلاة.

جلست لى أمامك على الأريكة، تكلمت، فانسابت إلى أذنيك حكاية جديدة، زاخرة بالتفاصيل.

"في تلك الليلة، كنت جالسة وحدي في غرفتي الصغيرة التي اعتدت على الانزواء فيها ومواساة نفسي على رحيل خالد. نادتني زوجة أبي من الصالة، فذهبت إليها والساعة تقارب العاشرة ليلاً. عرضت علي أن أذهب معها إلى حفلة صديقتها، وحين استنكرت أنا الخروج في هذا الوقت، أخبرتني أنها سهرة ليلية. وافقت بسرعة، لم أخرج قبلها من البيت لأكثر من شهرين وكانت هذه فرصة لأرى الناس وأرواح عن نفسي. كنت مسرورة مرتين يا فيصل، الأولى لأنني سأخرج من قفصي أخيراً والثانية لأنني اعتقدت أن زوجة أبي ستصبح حنونة معي وستغير من معاملتها القاسية. ارتديت أجمل ما عندي ثم خرجنا وكان السائق الذي استأجرته زوجة أبي بانتظارنا. علمت في الطريق أن الحفلة ستكون في استراحة، ولكن لم أعلم بأنها بعيدة جداً. أمضينا ساعتين تقريباً في طريق طويل، حتى وصلنا إلى تلك المنطقة المهجورة بحلول الثانية عشرة. نزلت وراءها، طرقتُ هي باب الاستراحة الحديدي ثم رنّت الجرس، ففتح الباب، وظهر شاب حنطي طويل القامة. اقتربت زوجة أبي منه وسط ذهولي واستغرابي، همست له بصوت خافت، ثم التفتت إلي، وقالت، هيا بنا. همّت بالدخول ثم توقفت فجأة، رجعت إلى الورا خطوتين وكأن هناك نداء خفياً يناديها، قالت، بتصنع واضح جداً، أنها نسيت حقيبتها في السيارة، وطلبت مني أن أدخل، ريثما تحضر حقيبتها وتعود. سألتها عن هذا الشاب، قالت لي إنه ابن صديقتها، وإن هناك قسمين بداخل الاستراحة، أحدهما للرجال وآخر للنساء. تصور أنها طلبت مني أن أدخل مع الشاب إلى الاستراحة وهو سيدلني إلى قسم النساء، ريثما تعود هي بالحقيبة!"

- وهل صدقتِها؟

هزت لى رأسها نافية، وغمرها بكاء عميق. قالت بأنها ليست بهذا الغباء، ولكن، حتى الذكاء لا يفيد أحياناً. مسحت دموعها بسرعة، وحاولت جاهدة أن تواصل سرد الحكاية، وهي على حافة الانهيار.

- طبعاً لم أصدقها يا فيصل، قلت لها سأنتظرك وندخل معاً، فرمقتني بحدة واستحالت نبرتها صارمة. قالت بأنه ليس هناك داع للخوف، فأخبرتها أنني أخجل من الدخول وحدي. صرخت في وجهي صرخة أفزعنتني كثيراً، حينها التفتت إلى الشاب، ووجدته واقفاً يتفحصني ويأكلني بنظراته. خفت كثيراً، استجمعت قواي وصرخت أنا في وجهها رافضة طلبها، ثم حاولت الابتعاد عن الباب، وما إن خطوت خطوة واحدة حتى سحبني الشاب من ملابسي بقوة إلى الداخل وأغلق الباب!!!

فتحت عينيك مذهولاً، وأجهشت لى بالبكاء، فنهرتها بحدة:

- لا تبكي، أكملني بسرعة، ماذا حصل؟!

مسحت دموعها بسرعة، وقاومت بكاءها، وعادت إلى الحكاية.

"جرّني إلى الداخل ثم أغلق الباب، شعرتُ في تلك اللحظة أن روعي سُحبت من جسدي واستقرت في يده. بكيت بسرعة في حين لم أستوعب بعد ما قد حصل. طلبت منه أن يدعني أخرج، ولكنه استهزأ بطلبي، وأخبرني، أن تلك المرأة هي من أحضرتني إليه. كاد قلبي أن يسقط من هول الموقف، توسلتُ إليه بكل جوارحي فلم يأبه لي، ناديت زوجة أبي من وراء الباب، لكنها رحلت إلى الأبد. جرّني الشاب بيده بقوة عنيفة، كنت بين يديه مثل ريشة، وذراعي النحيلة تحت قبضته الثقيلة لم تكن شيئاً يذكر. مشيت أهرول خلفه مُجبرة، حتى ذهب بي إلى الجهة الخلفية من الاستراحة. هناك، أول ما انتبهت إليه كان صوت الأغاني الذي كان عالياً، ثم رأيت مجموعة فتيات و....."

بترث جملتها الاخيرة، قبل أن ترمي رأسها علي ركبتيها، وتتكوم على نفسها، ويمضغها البكاء. حينها انقبض قلبك، هرعت إليها سريعاً وتقرفت أمامها، رفعت رأسها بيدك، ثم أمسكتها من كتفيها جيداً في محاولة لتثبيتها على الأريكة. كان وجهها مبللاً بالدموع والمخاط، وكان وجهك مصدوماً سرقه الخوف لونه.

- لى، لى اسمعيني، هل فعلوا لك شيئاً؟ هل أصابك شيء؟

هزت رأسها بالنفي، مسحت وجهها بكمها، واستغرقت دقيقتين حتى استطاعت الحديث مجدداً.

"لقد هربت! حين ترك الشاب يدي في لحظة ركضت بأقصى سرعتي، لم يتوقع أن أفلت منه بهذه الصورة، فركض خلفي مثل المجنون. دخلت إلى غرفة قريبة وأغلقت الباب الحديدي بالمزلاج، ثم سقطت على الأرض وقلبي يرتجف. لم تمض ثوان حتى سمعت خبطاً عنيفاً على الباب، يتبعه صراخ وشتائم ولعنات. صار جسدي ينتفض مع كل خبطة، وقلبي أظنه بلغ حنجرتي حقيقةً لا مجازاً. فجأة، فُتحت النافذة التي أمامي، فتحها الشاب نفسه، كان غاضباً جداً وكأنما أفلتت من يديه ألماسة ثمينة. كان شكله مخيفاً، عيناه شاخصتين، يصرخ، يشير بيده على رقبتة تعبيراً عن القتل، يهدد، ينتفض غضباً. حاول بعدها كسر الباب بحديدة ثقيلة لكن محاولته لم تفلح. اختفى صوته بعدها، جلست أنا في الزاوية ضامةً ركبتي إلى صدري، ثم عم الظلام فجأة، قطع الشاب الكهرباء انتقاماً مني، وبكيت حينها كما لم أبك من قبل، ثم سيطر النعاس علي، ونمت في مكاني."

سكتت قليلاً، اعترتها حالة سكون غريبة، وجفت دموعها على وجنتيها.

- يا الله، ماذا حدث بعدها؟

سألته، فواصلت حديثها بعد أن ابتلعت غصتها.

"لا شيء. استيقظت ظهراً، نظرت عبر النافذة فلم أجد أحداً. كان الجو دافئاً والمكان هادئاً جداً، لم أسمع أي صوت. توقعت أنهم ينصبون لي فخاً حتى أخرج، لذلك لم أخرج. بقيت حتى حلول العصر ولم أسمع أي صوت، حينها، بدأت أحتاج دورة المياه، وبدأت معدتي تتضور جوعاً، وصبرت حتى لم يعد بوسعي الصبر أكثر. حينها وقفت أمام النافذة وبكيت وناديت، هل من أحد؟ فلم أسمع سوى صوت حفيف الأشجار. فتحت الباب وخرجت بتردد، ثم أخذت أفتش في المكان. بعد دقائق علمت أنني صرت وحيدة في استراحة كبيرة وخالية. لم أبك لأن كل همي كان أين أجد شيئاً أكله. وجدت في المطبخ طعاماً بسيطاً وبعض الفاكهة فصرت أكلها وأعود إلى الغرفة للنوم، بقيت على هذه الحالة الكسيفة أربعة أو خمسة أيام، علمت خلالها أن أحداً لن يأتي، وأنني سأبقى هنا حتى أموت. فكرت بعدها بالخروج! كنت أمل أن يراني أحد وينقذني، وفعلاً، خرجت ذلك اليوم ظهراً، أغلقت الباب من ورائي ومشيت حتى رأيتك. في البداية عاهدت نفسي ألا أخبرك بالأمر حتى لا تستغل الوضع خصوصاً أن المكان مهجور. كذبت عليك يا فيصل، ولكن مع مضي الوقت، لم يعد هناك بد من قول الحقيقة".

انتهت القصة، أطرقت لى رأسها، فيما صوبت أنت عينيك عليها، تبحث عن تفسير.

- قصة موجهة يا لى، تفاصيل القاهرة جداً. لماذا فعلت بك زوجة أبيك هكذا؟

سألته وأنت تضيق عينيك بضيق، وبلوعة الحزن أجابته:

- هي لا تريدني أن أبقى معها في المنزل، ولأنها حقودة جداً وغازبة فقد قررت أن تتخلص مني بتلك الطريقة. لا أدري من أين عرفت هؤلاء الشباب، ربما كانوا فعلاً أبناء صديقاتها، فهي تصاحب الكثير من النساء من مختلف الأعمار والجنسيات، ولم تبقى امرأة في حينها ذلك، تشبهها في أخلاقها وتصرفاتها، إلا وتعرفت عليها. أو ربما رأتهم في مكان ما وخططت معهم لهذا الغرض! دائماً ما كانت تقول لي عندما أغضبها أنها سترميني لكلام الشوارع، الآن فقط علمت ماذا كانت تقصد.

لم ترفع لى رأسها أبداً، كانت حزينة ومكسورة، وأنت، كنت في أحلك لحظات الحزن، تهوي الهموم على صدرك، وقلبك يبكي.

- وجودك معي يا لى يؤنّبني، يؤنّبني على اللا شيء، وكأنني ارتكبت في حقل خطأ لا أعرفه. هل جئت لتذكيرني بأخطاء كنت قد ارتكبتها في الماضي؟

لم تنبس لى بكلمة، فشعرت بغصة فى حلقك. ابتعدت عنها ووقفت، أدت إليها ظهرك، ثم ذهبت سريعاً إلى الغرفة.

مرت ثلاث ساعات، وأنت لا تزال على حالتك هذه، منغلقاً على سرك.

جالس على سريرك، ساكن، واضع يديك فى حجرك، تسبح بأنظارك فى الفراغ، وسحابة سوداء كئيبة تطفو فوق رأسك.

فى عقلك الأسود فوضى أفكار، تفكر بكل ما سمعته قبل قليل، بكل حادثة وتفصيل، وكل جملة ذكرتها لى، تدور فى رأسك ألف مرة.

كانت نفسك كئيبة جداً، وصدرك مثل حجرة ضيقة ظلماء. فكرت فى فهد، كم تمنى زيارته والحديث معه، لاشك أنه الآن مثلك، يجلس وحيداً يراكم فى صدره هملاً وحزناً. نظرت إلى شاشة الهاتف وفكرت بالاتصال عليه، لعله لم ينم، لكنك تذكرت كم أقل الخط فى وجهك، فقررت هذه المرة، أن تحاول زيارته بنفسك.

فى لحظات من الحياة، تبدو استشارة الآباء مستحيلة، فيما تمنح استشارة الأصدقاء كثيراً من الأريحية التي لا يتبعها خوف أو ندم. حين استيقنت بهذه الحقيقة، زاد الإصرار فى داخلك، وخرجت قاصداً بيت فهد.

يسكن فهد فى حي السلي، ومنذ حكاية طرده من المنزل، وهو يعيش وحيداً فى بيت جده، فى ملحق صغير، وحيداً مع حزنه، وحيداً مع ندمه، ووحيداً مع خطيئته التي لا توبة لها فى عين والديه. منذ ذلك اليوم، كفله أبوه من الحبس، وأعادته إلى البيت، بصق فى وجهه عدة بصقات، ودعا عليه. شتمه كثيراً ثم أخذه إلى بيت جده، وهناك، صادر محفظته ومفتاح سيارته، وكاد أن يمنع من السجائر، لولا أن ابنه تشبث فى رقبته وتوسل إليه. صار فهد يعيش وحيداً فى ملحق صغير خال من أي وسيلة للترفيه، إلا التلفاز الذي يخلو من قنوات الأفلام، وهاتفه الذي يرسل منه إليك هذه الأخبار، ليشعل فى قلبك ندماً حارقاً ثم يدعو عليك.

وصلت إلى بيته فى حلول الحادية عشرة والأربعين دقيقة مساءً. لحسن الحظ أنه لم ينم بعد، عرفت هذا حين سمعت صوت خطواته القادمة يتسلل من أسفل الباب الزجاجي، إلى الحارة الهادئة.

فتح الباب، ما إن رآك، حتى تفاجأت بشكله الذي تغير كثيراً، وتفاجأ هو بمجيئك غير المتوقع. نظر إليك باحتقار، وقال بغضب:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لحظة، أريد أن أستشيرك في أمر ما.

- لست أخصائياً اجتماعياً.

قالها بعنف ثم حاول إغلاق الباب، فدفعت الباب بقوة ثم رميت نفسك إلى الداخل. قلت سريعاً:

- اسمعني قليلاً، سأخبرك سرّاً!

- سر؟

قطب حاجبيه الكثيفين، فسكنت قليلاً وسحبت نفسك، ثم قلت:

- معي فتاة، تسكن معي في الفندق، منذ شهرين ونصف!

- فتاة!!

ابتسمت ابتسامة صغيرة، تعرف جيداً ما يثير اهتمامه.

- أدخلني أولاً وسأخبرك بكل شيء. هيا فالجو بارد.

سكت قليلاً، ذهب إلى الملحق على يمين الباب، فمشيت وراءه ساكناً. هناك، حين دخلت، تفاجأت بحالة المكان، كل شيء كان يوحي بالحالة الكسيفة التي صار يعيشها فهد. كان الملحق صغيراً، تغطيه سجاده حمراء ومساند للظهر على طول جدرانه. على يمين التلفاز، توجد مدفأة كهربائية قديمة، وعلى الأرض، صينية تحوي منفضة للسجائر وإبريق شاي، وبعض الصحون المتسخة.

قريباً من الجدار كان يضع فهد فراش نومه وبطانيته ووسادته الصغيرة. جلست مستنداً على إحدى المساند فيما جلس فهد مقابلاً لك قريباً من فراشه. كان شعورك المشمئز من المكان يصارع شعور الرحمة والشفقة في داخلك، ليفوز الثاني، حين تأملت عيني فهد الذابلتين أسفل حاجبيه العريضين، وهالاته السوداء، وإهماله لذاته. بشرته البيضاء تكسوها ظلمة الحزن، ووجهه أمسى لا يرى خلف شعر كثيف يغطي ذقنه وخديه، وسرواله القطني الرمادي به ثقوب، أثر حروق خلفتها أعقاب السجائر.

- لم أنت ساكت هكذا؟ هيا تكلم.

قالها بعصبية، فقلت بهدوء:

- أولاً قل لي، كيف حالك؟

- كيف حالي؟

قالها بتعجب، ضحك ضحكة عالية، ثم تنهد طويلاً، وقال:

- آه، لو تدري كيف حالي!

عاد يسأل سؤاله القديم، الذي سألك إياه ألف مرة، ولكن، هذه المرة، جاء سؤاله بنبرة هادئة وعينين ضيقتين، وحقد دفين:

- لماذا كذبت؟

- غريزة حب الحياة يا فهد!

عاد يصرخ مجدداً:

- غريزة حب الحياة! هل انتهت كل تبريراتك؟

قلت بصوت عالٍ:

- وما ذنبي إن قبضت عليكم الهيئة وأنتم مخمورون في أقاصي الثمامة؟

اتسعت عينا فهد حتى خلته أصيب بالجنون. قام يضرب ركبتيه بكفيه، ثم صرخ بعصبية:

- يا الله! عاد مجدداً يقول ما ذنبي!! ألم تكن معنا أيها الحقيير؟

تنهدت، ثم قلت بتوسل:

- فهد أرجوك أغلق هذا الموضوع. لقد وبختني ألف مرة، وصلتني أيضاً رسائلك وشتائمك ولعناتك كلها عبر الواتساب وقرأتها أكثر من مرة ألم يكفك هذا؟ لدي موضوع أهم يا فهد، أرجوك اسمعني، وثم، إن كنت تعيش في جحيم، فأنا الجحيم يعيش في داخلي. أمر بحالة اكتئاب شديدة جداً لا أدري ما سببها، وهذه الفتاة، كانت هماً جديداً لم أحمل مثله في حياتي.

ثم رويت له الحكاية كلها، كلها، مختصراً بعض التفاصيل غير المهمة. لاحظت أنه صُدم فور سماعه بالقصة، وخصوصاً حينما حكيت له قصة تلك الليلة، مثلك تماماً. غلفه صمت عجيب لا تدري ما سببه، ومضى ينظر إلى الأرض، ويفكر بطريقة غريبة. سألته بحزن:

- والآن ما رأيك؟ ماذا أفعل؟

لم تسمع منه رداً، فسألته مجدداً:

- هل أذهب بها إلى الشرطة أم لديك حل آخر؟ أنا خائف من أن أضعف أمامها أو يغلبني الشيطان في أي وقت، وفي الوقت ذاته، أخاف عليها من مصير مجهول مع الشرطة، لا أدري إلى أين سيأخذونها. هي وحيدة يا فهد، ليس لديها أقارب، لا تملك سوى عم واحد فقط يسكن في مكة، كما أخبرتني في أحد الأيام. لقد قضيت وقتاً طويلاً في التفكير لكي لا تُترك هي مع زوجة أبيها وحدها ولا أستطيع الاطمئنان عليها. هل يُعقل أن أقضي أياماً عديدة في التخطيط والعمل ثم بلحظة واحدة أهدم كل ما بنيت؟

لم تسمع له رداً. هز كتفيه، كان سلبياً جداً في موقفه معك. سألته مجدداً، فأجاب بضيق:

- لا أعرف يا فيصل، ما أدراني أنا؟ المشكلة محيرة فعلاً، ولكن إن كرهت بقاءها معك، فإذهب بها إلى الشرطة، لا أعتقد أن هنالك حلاً آخر.

لا أعرف، هكذا ببساطة يجيب فهد. بعد هذه الجملة غادرت ملحق فهد مُحبطاً، وشعرت بالوحدة كما لم تشعر من قبل.

وحين ركبت السيارة، جلست تقلب في الهاتف بضيق، فانتبعت إلى رسالة واتساب غير مقروءة، لاحظت أنها من مساعد، وأنها وصلت ظهيرة اليوم، وأنه يقول في بدايتها:

فيصل، لقد أخبرني خالد بمعلومة مهمة جداً، لا شك أنك ستستطيع معها الوصول إلى خالد!

لم تكن رسالة وحسب، كانت خيطاً متيناً، خلق لينتشلك من حافة الاستلام.

الفصل الثاني:

« خالد »

(1)

الخميس، 2 جمادى الأولى 1437 هـ

مجدداً، ها أنت تسلك ذاك الطريق، المؤدي جنوباً، صوب بيت مساعد.

الليل هادئ، عقلك هادئ، خالٍ من أي فكرة، ويداك ثابتتان. السكينة هابطة على كتفيك، صمت الليل في جوفك.

في البارحة لم تنم جيداً، كان عقلك مشغولاً، واقعاً تحت مئات الأفكار، واليوم يبدو مثل كرة مثقوبة فارغة، منكمشة وصغيرة. في البارحة كان صوته واضحاً في رأسك، يطن في أذنيك، واليوم، فصمت الليل في جوفه.

تقود بثبات، بسرعة متزنة، كما لو أن الطريق كان خالياً. تدلف إلى حارة صغيرة، متواضعة، ذات بيوت متشابهة. تتوقف أمام باب أبيض، لا يختلف كثيراً عن جيرانه، ثم تنادي مساعد بيق سيارتك العالي. يخرج، بعد دقيقة، بهيأته ذاتها، المعطف الأسود، الوشاح، القبعة الصوفية، وابتسامة جديدة لا تشابه ذلك الحزن الذي تربع على وجهه في آخر مرة. يفتح الباب، يسلم، ويركب بهدوء. تسأله عن أحواله مجاملة، فيجيب بهدوء، ثم تصمتان، وتعود السكينة مجدداً، لتهبط على صدرك.

- فيصل، أنا قلق بعض الشيء.

قال مساعد، بنبرة غير مريحة. فسألته:

- مم؟

تبدلت ملامحه، ثم قال بجدية:

- على خالد.

قطبت حاجبيك باستنكار، فسألك:

- هل تعرف حي الفيصلية؟

- سمعت به. ليس بعيداً من هنا، صحيح؟

هز رأسه، ثم استأنف:

- هل تعرف ماذا يعني أن يعمل خالد هناك؟ وفي ورشة سيارات؟

سكنت، اعتراك الضيق والقلق. لقد قضيت ليلك كله رازحاً تحت أكوام من الأسئلة، تائهاً بين ألف فكرة متشعبة. ألا يجب أن تعرف أولاً لم يعمل خالد هناك، قبل أن تعرف ماذا يعني ذلك، وماذا يترتب عليه؟

بللت شفتيك بضيق، أزحت عينيك عنه، كأنما تهرب من حقيقة مؤلمة. همست:

- مساعد دعنا لا نستبق الأمور، حينما نجده سأسأله أنا عن كل شيء.

- ماذا! وهل تتوقع أنه سيجيبك عن كل شيء؟ هل يعرفك جيداً؟

التفتت إليه، أجبته بهدوء شديد:

- هذا ليس من شأنك. بالمناسبة، إذا وجدنا خالد اليوم فسينتهي دورك. سأعطيك ما تستحقه، ست مئة ريال. والآن، هيا دلني على الطريق.

رفع كتفيه بإحباط:

- أنا لا أعرف مكانه تحديداً، لقد أخبرني بأنه يعمل في ورشة سيارات في الفيصلية وحسب. ولكنني أعرف شارعاً في الفيصلية يمتلئ بورش السيارات، هل تريد أن نبحث هناك؟

أومات موافقاً. ثم اتجهت شرقاً، إلى حيث يكون.

ما إن دخلت، إلى ذلك الحي، حتى فتحت عينيك على مصراعيها، مفجوعاً بغرابة المنظر، مستهجنناً قبح المكان. وما إن ألقى نظرة سريعة على كل شيء، ومسحت بعينيك الأرجاء كلها، حتى أحسست بغم يتجول في صدرك، وشعرت برغبة في البكاء.

لقد كان شعور الاكتئاب، الذي يطبق على الصدر حتى يغلق فيه آخر مجرى للأوكسجين، شعورك المألوف، وصديقك الصدوق، الذي بات اليوم لصيقاً جداً.

يبد أن البكاء، البكاء المسموع، يبدو جديداً. لم البكاء؟

لم تكن ممن لم يروا البيوت الفقيرة، العمارات القديمة، والشوارع المكسورة إلا عن طريق التلفاز. لم تكن ممن لم يتعدوا يوماً حدود قصورهم الرحبية، ليروا الحياة خارجها، كيف تكون، وكيف تبدو، إذا ما قورنت بها. لم تكن ممن لم يبصر مرة مشهد الفقر، الذي يخطف من القلب ارتياحه، إلا حين يشاهد فيلماً وثائقياً.

إذاً لم البكاء؟

لقد مررت مرةً بشارع قديم، رأيت العمارات القديمة كيف تبدو بألوانها الباهتة، البيضاء المائلة إلى الصفار، أو تلك التي اتسخت حتى استحالت سوداء. رأيت الأرصفة المكسورة، الشوارع ذات المستنقعات المائية التي خلفتها الأمطار، والبيوت القديمة الشعبية. لقد رأيت من قبل، وعرفت من قبل، لم البكاء إذاً؟

ربما لأنك رأيت الألوان الفاتحة، الألوان البسيطة، وقد جاء الدور اليوم، لأن ترى اللون الأسود.

حي الفيصلية، إذ ترى عمارات غريبة، لا تشبه عمارات القاهرة في شوارعها القديمة، لا تشبه إلا نفسها فقط. لا تحب مطر الشتاء، هو لا يغسلها ككل البنائيات، بل يرسم خطوطاً رمادية وبنية على طول واجهتها، أو يذوّب معه دهانها الرديء فتصبح كلوحة فاسدة ملطخة وقبيحة. بعض جدرانها مكسورة، يظهر منها هيكلها الداخلي ولا زالت تُسكن. ألوانها متنافرة، غريبة، وبعضها لم تصبغ أصلاً. وعلى واجهاتها العتيقة، تنتأ عشرات المكيفات الصحراوية الصدئة.

حي الفيصلية، إذ ترى المطاعم الصغيرة تبيع طعاماً لا يؤكل، وتري الأرصفة المكسورة تحمل في هذه الساعة من اليوم ما لا تحمله جسور لندن عشية رأس السنة، بشر وبشر، جنسيات وجنسيات، أجساد متلاحمة لا ترى بينها فُرجاً.

حي الفيصلية، إذ يكون عادياً أن ترى شيئاً أسود مكموماً على الرصيف وبعد تأمل طويل تكتشف أنها امرأة جالسة في خشوع، تتسوّل، في شوارع الفقراء. وإذ يكون طبيعياً جداً أن ترى اثنين يجلسان على الرصيف يتناولان الشطائر وتحت قدميهما تقبع بركة مجاري قدرة. حي الفيصلية، إذ تستعد لغثيان طويل، ونفسية مُتأزمة، ونوبة بكاء لا تخرج، واكتئاب أشد مما عانيته سابقاً وأطول.

شعرتَ بنفسيتك تهاوت، حتى كادت أن تبلغ الحضيض، أو أدنى. أطرقت رأسك، وأنت تقف عند إشارة، في أحد الشوارع، وصرت تضغط على صدغيك، بنفسية مُكتئبة. شيئاً فشيئاً بدأ الضعف يملكك، لا يمكن أن تفعل شيئاً هنا، هذه الأماكن لا تناسبك، إنها تحتاج شخصاً يعرفها ويألفها، شخصاً عاش فيها دهرًا حتى اخشوشن جلده.

لكن، قبل أن يهزم قوتك المصطنعة ضعف حقيقي، تذكرت شيئاً. أنت الخيط الوحيد الذي تشبث به لى، وآخر نقطة ضوء، تومض أمام عينيها بالأمل. أنت طوق النجاة، الذي تمتد إليه ألف يد هزيلة. كيف تستند لى عليك، إن كنت ضعيف البنية، ركيك الأساس؟ أتريد أن تشعرها اليوم، بأن من تستظل به كل يوم، يسقط ويتهاوى؟

لا، لقد جاءتك فرصة جديدة، ومكان أخيها صار معروفًا. لا يجب أن تضعف، أنت من يجب أن يمنح الأمن والأمان للآخرين.

سحبت نفساً عميقاً، لا لن أضعف. رددتها عشر مرات، ثم نظرت إلى مساعد، الذي كان يتأمل النافذة، غائباً داخل فكرة ما. ربما يتساءل مثلك، عن سبب تسول المرأة العجوز في هذا الحي، أو يستنكر على الشابين جلوسهما على إطلالة بركة المجاري القذرة. الصورة وصلته، هذا ما لا شك فيه، ولكن من المؤكد، أنها لم تبد له بتلك الدرجة من القتامة.

انعطفت يمينا، بعد دقيقتين، إلى الشارع المقصود. كان أشدها ازدحاماً، يضم عدداً من ورش السيارات المزدحمة، وتصطف على طولها أعداد هائلة من السيارات. بالكاد وجدت لك موقفاً صغيراً أمام إحدى الورش. أطفأت السيارة، ثم نزل مساعد، كان قد قرر أن ينزل هو أولاً.

غاب لبرهة، قضيتها بجلسة هادئة وخشوع طويل. وبال لا يستطيع أن يتكهن شيئاً واحداً مما سيحصل. ثم رأيت مساعداً يهرول عائداً إلى السيارة، لم يترك لك فرصة للتساؤل. فتح الباب، وقال بسرعة:

-هيا هيا، انزل.

- ماذا؟!

سارعت في تعديل جلستك، فقال بابتسامة واسعة، وأصبعه يتجه صوب إحدى الورش:

- لقد وجدته، إنه هناك، يعمل في تلك الورشة.

تسارعت نبضات قلبك بشدة، سألته، غير قادرٍ على التصديق:

- هل وجدته بهذه السرعة!

هز رأسه ضاحكاً، تراجلت من السيارة بسرعة، ومشيت حتى وقفت أمامه مذهولاً. لهذا الولد من اسمه نصيب، لقد نفذ ما وصيته به مع خالد، وإليه وحده يعود الفضل في إيصالك إليه. ابتسمت ابتسامة واسعة، ووضعت يدك على كتفه:

- مساعد شكراً، شكراً جزيلاً.

التفتت إلى ما أشار إليه قبل قليل، ابتسمت ابتسامة أوسع، وأشرقت في جوفك الأظلم شمسٌ بيضاء. التقطت محفظتك السوداء، أعطيته ما كان يستحقه، ثم طلبت منه أن يعود إلى بيته، بواسطة سيارة أجرة. لم يكن أمراً صائباً أن يأتي مساعد معك ليريك أي تلك الشخص هو خالد، لأن معرفة خالد بوجود علاقة بينك وبين مساعد لا يبدو شيئاً في صالحك.

راقبته طويلاً حتى أشار إلى سيارة أجرة، ثم اختفى بداخلها. سحبت نفساً طويلاً، وسألت نفسك، والآن ماذا؟

الآن أنت وحدك، تقف في أول الطريق وحدك، الهدف أمامك يناديك، ولكنك وحدك. لا أحد معك سوى خواطرك وأفكارك، وصوتك الداخلي القريب، الذي يرتفع إلى أذنيك، محثاً ولحوحاً.

سحبت نفساً أطول، وأطول، لا بد لخلاياك أن تمتلئ أوكسجيناً. مشيت بهدوء، قاطعاً فوجاً كبيراً من العمالة، سمراً وبيضاءً، عرباً وعجماً، تحوم كلماتهم على اختلاف لغاتها حول أذنيك ورأسك. وصلت، أخيراً، إلى الورشة المنشودة. كان الضجيج عالياً، ورائحة زيوت التشحيم تفوح في المكان. تجولت عيناك بين وجوه كثيرة مختلفة، سمراء غالباً، حتى استقرت أخيراً، على ظهر شخص، كان منحنياً يتفحص سيارة. تأملته بتركيز، معطف بني، بنطال أسود، ظهر صغير، نحيل، وقامة قصيرة. هذا خالد، هذا هو، قلبك يقول إنه هو.

اقتربت منه، وقفت خلفه مباشرة، أحسّ بوقوفك لحظة، فالتفت. رأيت، تفاجأت بشدة، فتحت عينيك كلها، ولم تنبس بكلمة. رأيت وجهاً أسمر، متعباً، صغيراً، عينيه ناعستين، تلمعان خلف نظارة طبية صغيرة، يعلوها حاجبان مرسومان، وأسفلها، يمتد ظلان رماديان من بؤس. كان مظلماً، مظلماً جداً، ظلام الدنيا كله في وجهه، وجوع الدنيا بأكملها في جسده الهزيل.

لماذا يبدو هذا الولد بهذا الشكل؟ ارتفعت مشاعر الدهشة والحيرة إلى وجهك، وتداعت إليك صورة لى، ببياضها الصافي وعينيها الواسعتين، والاحمرار الرقيق في وجنتيها.

هل يمكن أن يكون هذا أخوها؟ في ثانية، استرجعت في عقلك تلك المواصفات التي أخبرتك بها لى عن أخيها خالد، وصرت تقارن بين الصورتين، صورة نقلتها لك لى، وهي تصف ملامح أخيها راسمة إياها في الهواء، وصورة تراها أمامك، لم تتخيلها، ولا يمكنك تخيلها.

لقد رسمت في خيالك وجهاً آخر، وجهاً لا يبدو كئيباً هكذا.

- مرحباً، هل أخدمك بشيء؟

قالها، وهو ينظر إلى عينيك، بعينين كأنهما فوهتان من ظلام. سألته بتردد:

- أنت خالد؟

- أجل، هل تعرفني؟

أجل! هل قال أجل؟ تسمرت نظراتك عليه، فاستنكرها كثيراً. عاد يسألك مجدداً، ويردد، كيف أخدمك؟، فنظرت إليه نظرة آسية. كم تمنيت احتضانه، والبكاء على كتفه، نيابة عن لى، لتحبي قلبها الكسير، وتخفف شيئاً من لوعة اشتياقه. سحبت نفساً، ثم مدت يدك، بطريقة تمثيلية متقنة، وقلت:

- مرحباً، أنا فيصل عبد الرحمن، كاتب صحفي في إحدى الصحف المحلية، أكتب فيما يتعلق بالمشكلات الاجتماعية، ولي عدة مقالات في هذا المجال. قررت هذه المرة، أن أكتب مقالاً عن المعاملة التي يتلقاها العامل الوافد هنا، والتي تتجاوز حداً من السوء لا يطاق. اخترت هذا الحي الذي يزدحم بالعمالة كي أسمع فيه القصص مباشرة وأدونها، وأنقل الصورة تماماً كما أراها أمام عيني. سألت فور مجيئي أحد العمالة عن عامل يمكنني أن أسمع منه قصته ويفيدني في الأمر، فأخبرني عن شخص، اسمه خالد، خالد ال...! أنا صدمت فور سماعي بالاسم، سعودي! ويعمل هنا! عرفت أن علي أن أبدل موضوع المقال إلى موضوع أغرب وأشد حساسية، أن أكتب عن المعاملة التي يتلقاها المواطن (السعودي) هنا، إذا ما وصل إلى حال يشبه فيه حال الوافدين. كثيرٌ منا يحتقر العمالة بسبب أعمالهم البسيطة والتي دون المستوى، فماذا لو كان من أبناء وطننا من يعمل مثلهم، في أعمالهم نفسها، هل سننظر له نظرة الازدراء ذاتها؟ وماذا لو انقلبت الدنيا يوماً، وأصبحنا نعمل مكانهم، نيابةً عنهم، كيف ستكون نظرتنا لأنفسنا؟

أملت عليه كل ما كتبت له ليلة أمس، ثم سكتت، منتظراً منه أن يسمعك جواباً. لكنه لم يجب، فسألته مجدداً:

- هل ستساعدني يا خالد؟ إن الأمر لا يتطلب سوى أن تجيب عن بعض الاسئلة التي سأسألك إياها.

- وعن ماذا ستسألني؟

- سأسألك عن نظرة الزبائن لك، كيف تبدو؟ سأسألك عن المعاملة التي تتلقاها منهم، وعن كل العقبات التي تواجهك أثناء العمل. ما رأيك؟

عقد حاجبيه يفكر، كان يصوب نظراته الحادة عليك مثل سهم. ظل كذلك، ثم التفت إلى السيارة ببرود، وقال:

- حسناً، سأفكر.

عاد لينحني أمام السيارة، يتنقل بين أجزائها ليتفحص هذا وذاك، ينهمك بعمله، ويتصرف بتلقائية كأنه لم ير صحفياً يسأله قبل قليل. تأملته كله، من رأسه حتى أخمص قدميه، وسألت نفسك عشر مرات، ماذا يمكن أن تقول للمي إن عدت إليها؟

كيف تصف لها شكل أخيها، وهو يبدو اليوم بوجه خلت منه كل معاني الحياة؟

أتقول لها إن بطلها الأسمر، كما كانت تسميه، والذي كانت تحسبه صلباً لا يكسره شيء، قد أمسى محطماً وما هذه إلا بقاياها؟

أو تخبرها، أن هذا الأسمر صار محط شفقة ورتاء، يعمل طويلاً، ظهره منحني، يدها متسختان، ترتجفان دائماً من البرد، ويصرخ في وجهه من يصرخ؟

كانت تحكي لك، بألم المشتاقين، عن بطولاته الصغيرة التي كانت بعينها عظيمة. عن إنجازاته وشجاعته وتمرده، أتكسر فؤادها اليوم بحكاية ذله وكسافة حاله؟ زفرت زفرة ثقيلة، مشحونة بالوجع، واخترت الصمت، ستصمت صمتاً طويلاً، وستدع الأيام تسير كيفما تسير.

- كاتب صحفي إذناً، هذه هي الخطة؟

يسألك فهد مستفهماً، وسيجارة وحيدة تشتعل بين أصابع يده الجافة، التي تتدلى من فوق ركبته المكشوفة. تنظر في عينيه بجدية، وتجيبه بصراحة:

-أجل. اخترت أن أكون كاتباً صحفياً حتى لا يستنكر وجودي في مثل تلك الأحياء. في الحقيقة، لم ترد فكرة الصحفي على بالي إلا حين عرفت مكان عمل خالد قبل أن أعرف مكان سكنه. كانت ليلة الخميس حافلة بالتفكير والأرق، عرفت أن علي تغيير الخطة والتفكير للقيام بشيء أفضل ونتائجه مضمونة أكثر. كنت أنوي أن أعرف عنوان بيته ثم أقابله في الحارة وأخلق معه حديثاً عن أي شيء، وأكرر هذا أكثر من مرة حتى يألّف وجودي ثم أصبح قريباً منه، أجلس معه كثيراً، أشغل في قلبه حيزاً واستميل قلبه وروحه كي يحادثني بما لم يتحدث به لأحد. سأجعله، بطريقتي الخاصة، يخبرني بقصة هروبه من المنزل وتركه لأخته وسأحته أنا على الذهاب إلى المنزل لرؤيتها، وسأكون حينها عالماً بما سيحدث. سيُفجع قلبه ما إن يكتشف امر اختفائها، سيفعل ما يفعل ولكنه في النهاية، سيلجأ لي. وبعد أن أحضر له أخته، بطريقتي الخاصة، سيكون ممتناً لي، سنكون قد بلغنا في بحر الصداقة عمقاً لم يبلغه أحد، وسأكون أقرب إنسان إلى قلبه. بعد هذا كله، سيكون لي الحق في زيارته، وتوصيته على أخته، ومنعه إذا ما حاول تركها من جديد، بصفتي صديقه الأقرب أو ربما، أخوه الأكبر. هكذا كانت الخطة، وبعيداً عن كل مبالغاتها، اكتشفت مؤخراً أنها قد تستغرق وقتاً طويلاً، أقصد عند محاولة كسب صداقة خالد. قد لا يتقبل صداقتي مهما حاولت أن أكون طيباً ولطيفاً معه، أو قد نصبح صديقين ولكن يأبى أن يخبرني بأسراره، هناك احتمالات عدة، لذلك قررت أن أسلك طريقاً أسهل. الصحفي الخلق، الذي يسأل من يقابله بنية توثيق الحالة وكتابة التقرير ليس إلا هي أفضل طريقة لمعرفة قصة خالد دون الدخول في طرق طويلة لا تُعرف نهايتها.

-لحظة لحظة، يعني أنك ستمثل دور الصحفي كي تسأل خالد عن بعض الأمور ثم ينتهي دورك؟! ماذا عن الصداقة؟ وإذا عرفت منه قصته كيف ستجبره على الذهاب إلى المنزل ما دامت علاقتكما سطحية؟ وبعد هذا كله، كيف ستعيد لى إليه بهذه السهولة؟

- الخطة كانت هكذا يا فهد، كنت سأسأله عن قصته وسبب عمله في هذا المكان، وشيئاً فشيئاً، سأبدأ في محاولة خلق الأحاديث الظريفة معه وسأكون لطيفاً وبشوشاً وودوداً. بعد أن اقترب إلى قلبه أكثر وأكثر، سأسأله عن ماضيه، سأصنع خيطاً يقودنا إلى الحديث عن الماضي، وسأفتح له كل المجال ليتحدث إلى رجل يعرف بأنه يستحق الثقة. لقد كنت أفكر أن أصبح، بمهاراتي التي فطرت عليها، الصدر الحنون الذي يسند خالد رأسه إليه، وبصراحة، أشعر الآن بمدى سخافة هذه الخطة واستحالة نجاحها. فهد، هناك أسئلة في رأسي لا أجد لها جواباً، لماذا يعمل خالد في وظيفة كهذه؟ هو ليس فقيراً، لديه ما ورثه من أبيه هو ولدى، وهو مبلغ جيد جداً يكفيه كشاب لا يملك إلا أختاً واحده يعولها، ويستطيع به سد حاجته حتى ينهي دراسته الثانوية ويجد وظيفة أرقى. أساساً كيف استطاع أن

يتوظف هناك وهو السعودي الوحيد؟ فبحسب علمي، هذه الورش يملكها أجنب، لم أعهدهم يرغبون بتوظيف السعودي. كيف استطاع خالد أن يفعلها؟

نظرت إلى عينيه تبحت عن تفسير، وحين رأيت في وجهه حيرة أكبر، واصلت حزينا:

- بصراحة لم أرتح لشيء هناك أبداً، لا للحي القذر جداً، ولا للناس، ولا حتى لوجه خالد. لم أكن أتوقع أن يكون الوضع بهذا السوء، أن أنوي تنفيذ المهمة يعني أن علي أن آتي إلى هذا الحي باستمرار، فتخيل أن أمر بهذا الزحام وأعبر بين ذلك الخليط المعجون من الآسيويين والأفارقة بشكل شبه يومي؟! يا الله، يعجز عقلي أن يتخيل فداحة الأمر.

- لماذا تصر إذا على تكرار المحاولة؟

نظرت إلى عينيه بجدية:

- وماذا بوسعي أن أفعل إذا؟

- سلمه أخته بسرعة، اذهب بها إلى والدتك ودعها تجلس هناك ثم أخبره أنك وجدتتها وحيدة، وأنت أخذتها إلى والدتك لترعاها وتعتني بها. لا داعي يا فيصل لأن تسلك هذه الطرق الملتوية.

- وكيف سأطمئن أنها بخير؟ ماذا لو تركت وحيدة مجدداً؟ كيف سيهدأ قلبي عليها؟

- فتح عينيه، قال بتعجب:

- تغيرت كثيراً يا فيصل، منذ متى تهتمك مصالح الناس؟

أشحت بوجهك بعيداً، سحبت نفساً عميقاً وهمست:

- تهمني مصلحتها هي، هي وحسب.

- أتحبها يا فيصل؟

تفاجأت بسؤاله، التفتت إليه سريعاً، رأيتته يبتسم لك، فلم تستطع مقاومة الابتسامة، والضحكات، وجانب الحب الذي فتحه فهد، وكأنه فتح أبواب قلبك، ليدع المشاعر الأسيرة بداخله، تطير وتتنفس. بلا شعور، رفعت يديك، وحاولت أن تشرح له الأمر بتوضيح، بدوت مثل غريب يخشى أن يفهمه الناس بطريقة خاطئة.

- لا أحبها يا فهد، أقصد أنه شعور مختلف تماماً عن الحب الذي تعنيه. ليس الحب التقليدي الذي يتزوج بالزواج، بل إنه كحب الطيور لفراخها، حين تخبئها تحت جناحها، وتدفن رؤوسها في صدرها، بين ثنايا ريشها. إنه شعور أسمى من العشق الذي تعنيه، شعور الأبوة بمعانيها العظيمة، وما يرادفها من مشاعر، رعاية، احتواء، حب، عطف وحنان. إن تغيرت مشاعري تجاهها في لحظة فهذا بفعل الشيطان، الذي يتسلط عادة في لحظات الضعف، ويصيرني إنساناً آخر.

أرسل إليك نظرة غريبة جداً، لم تفهم ما ترمي إليه هذه النظرة.

- أليس غريباً ألا يكون لها أهل ولا أقارب؟

رفعت كتفيك بحيرة، كان السؤال الوحيد الذي لا تعرف له إجابة.

- أعتقد أن الأمر أصعب من أن يشرح. قد تكون من عائلة مفككة، ليس لها أقارب متجاورين، أو تكون من عائلة فقيرة في الأصل. بصراحة، كلما سألتها أطرقت رأسها ونفت، لو ترى يا فهد، كيف أن هذا السؤال، يفتح في قلبها منافذ للألم.

- وكيف ستعيدها إلى أخيها في النهاية؟

سألك وهو يقطب حاجبيه بنبرة غريبة، فارتسمت على شفتيك ابتسامة باردة صغيرة، وخاطبته بثقة عجيبة، لم يعهدها منك يوماً.

- لا عليك، الأمر سهل على فيصل.

لم يزرك يوماً إيمان مثل هذا الإيمان، كنت مؤمناً بقدراتك أكثر من أي لحظة مضت. نظر فهد إلى عينيك بسخرية، ثم أشاح بوجهه إلى التلفاز يمتص سجارته، وتركك غارقاً في بحور خواطرك.

بحلول العاشرة مساءً، وصلت إلى الشقة، حاملاً أخباراً جديدة وخيبات جديدة.

طوال الطريق مكثت تفكر، هل ستستطيع أن تكتم عن لى الأمر، أم إن حزنها وإحاحها الطويل سيجبرك في النهاية على الكلام؟ أدركت أن السكوت سيصبح مستحيلاً ذات يوم، وأنها ستظل تستقبلك دوماً بالدموع حتى يذوب قلبك حزناً وكهداً.

لهذا، ستعترف لها ببعض الأمور، وستترك التفاصيل الموجهة مخفية بداخلك حتى لا يحزن لها قلبها.

في الصالة، جلست على الأريكة، وناديت لى التي جاءت بهدوء غريب، وكأنها تترقب خبراً صادمًا.

-هل ستنامين الآن؟

هزت رأسها بالنفي، فأشرت إلى الأريكة القريبة بجوارك، وطلبت منها أن تجلس.

-اسمعي لى، لقد وجدت خالدًا، وهو يعمل في ورشة سيارات، لكنها ليست قريبة من هنا.

تأملت محيّاها بتمعن، كان يفيض دهشةً وتعجبًا. فتحت عينيها باتساع، وهرعت تسألك:

-هل رأيته؟

تمالكت نفسك بصعوبة، وبهدوء، دنوت منها برأسك، لتهمس لها بلطف:

- رأيته، كان تمامًا كما وصفته يا لى. لكن، الشيء الذي أود إخبارك به أنني لا أستطيع أخذك إليه حتى أعرف عنه عدة أشياء، مثل مكان سكنه، وحالته المعيشية، ومعلومات أخرى، يجب أن أعرفها عنه.

- ألم تخبره بما حصل لي؟

تنهدت، هذه الفتاة عجولة، لا تدري كيف يبدو الأمر صعباً جداً. بهدوء، أمسكت بكفها الصغيرة، شددت عليها بإحكام، وصرت تمسح بإبهامك على ظهر كفها، على طول تلك المساحة الناعمة البيضاء، وهمست:

-الأمر صعب يا لى!

سكتت لبضع ثوانٍ، ثم أكملت:

- من الصعب أن أفجع خالد بتلك الطريقة. لا بد أن نمهد الأمر، كلمة بكلمة، خطوة بخطوة، أن نجلس مع خالد قليلاً، نتحدث معه عن أمور شتى، نستميل قلبه، نهينه نفسيًا، ثم نخبره بالحقيقة!

مضت ثوانٍ أخرى، ولم تتكلم لى بحرف. ظلت تخاطبك بنظرات حزينة يائسة، ثم أرختها إلى الأرض، وأخذت تبكي بصمت.

- لا بأس.

- لمى، هل يحزنك البقاء معي ولو قليلاً؟

كان حنان الدنيا، كله، يتدفق عبر سؤالك القصير. أعدت السؤال على مسمعيها مجدداً، حتى رأيتها تمسح دموعها بخجل، وتقول:

-لا بأس، افعل ما تراه أنت صواباً.

أطرقت عينيك إلى الأرض بعد تنهيدة عظيمة، لم تشعر بالضيق كما شعرت في هذه المرة. في ثانية، لمحت جهازك الحاسوب ملقى بإهمال على إحدى الأرائك، فلمعت في بالك فكرة، ودنوت من لى كثيراً، في محاولة لإسعادها.

- هل يبدو البقاء معي سيئاً إلى هذه الدرجة؟ انظري، لدي جهازى المحمول وأنا لن أحتاج إليه كثيراً في هذه الفترة. يمكنك أخذه واستخدامه متى شئت. هل تريد أن أقوم بتحميل أفلام ديزني الشهيرة من أجلك؟

نهضت سريعاً إليه، أحضرته بين يديها، وحينها، جلستما معاً ما يوازي الثلاث الساعات، في جولة طويلة ممتعة بين مواقع الانترنت ومقاطع الفيديو. استرخت لى، عاد الارتياح إلى صدرها، ابتسمت كثيراً، وضحكت أكثر من مرة. من بعد تلك اللحظة، صارت لى، بشغف طفلة، تعامل جهازك الحاسوب شيئاً من ممتلكاتها الخاصة، ولم تسمح لك بأخذه مجدداً.

(2)

السبت، 4 جمادى الأولى 1437هـ

يوم جديد مجهول، حيث ما من شيء يستحيل حدوثه.

وصلت اليوم إلى هناك صباحاً، بسيارة صغيرة وبيضاء وتقليدية. لم تأت بالمرسيدس أبداً إلى هذا الحي، تتذكر وصية مساعد التي أوصاك بها قبل أن تأتي معه إلى هنا، مرسيدس

فاخرة، في حي كهذا، ستكون ملفتة للأنظار، وسبباً في فتح الجروح التي لم يرفع أصحابها يوماً سقف أمانهم.

أخترت هذه السيارة لأنها متواضعة، ولأنها ظلت مركونة في مرآب قصركم منذ سبع سنوات. اشتراها والدك لك حينما اجتزت اختبار القيادة، يومها كنت شاباً مترفاً، لا يعرف إلا السيارات الرياضية ذات الخطوط البراقة ولا يحلم بغيرها، ولكن خطأ ارتكبته، كان سبباً في ضياع هذا الحلم، وكانت العقوبة، أن يشتري لك والدك هذه السيارة المتواضعة، كعقوبة من نوع آخر.

ترجلت من سيارتك ثم عدت إليها لتأخذ شيئاً نسيته، قلم أزرق، ومفكرة صغيرة سوداء الغلاف، تعينك على تقمص الدور جيداً.

أنت هنا، تنتحل الدور الذي تناقض فيه نفسك، وتقف اليوم، على عتبة الانتقال، تسليخ جلدك وتقشر بقايا الكبر والعنصرية لتدخل فيصل آخر، فيصل الطيب الذي يبتسم في أوجه الجميع، فيصل المتواضع، الذي يزور هذه الأماكن كثيراً، يخالط الفقراء والمحرومين، ويمشي في أراضيتهم من غير أن يرفع أطراف ثوبه. فيصل الرحيم، الذي يهتم حقاً لهموم الضعفاء، الذي يحزنه الظلم، وتبكيه المعاناة.

دخلت إلى الورشة بهدوء، تبدو اليوم مرتاحاً ومتفائلاً، وكأن نفسيته أخذت تتحسن شيئاً فشيئاً عن أول مرة جئت فيها إلى هنا. ألقى السلام على المتواجدين من العمال، ثم تنقلت ببصرك بين الوجوه، حتى عثرت أخيراً على وجه خالد، الواقف بثبات، في ركن قصي من الورشة. ابتسمت ابتسامة واسعة جداً حتى بدا وجهك بشوشاً يريح الناظرين، واقتربت إليه بهدوء، وشيء من التردد يغلف قلبك.

حين وقفت أمامه، رأيت أسارير وجهه توهي بشيء من الانزعاج، ووجهه الصغير يبدو أكثر شحوباً من قبل. نظاراته متسخة ببصمات أصابع، لذلك تصعب رؤية عينيه وما تخفيانه من مشاعر. كان ممسكاً بفوطة متسخة، يقلبها بين يديه، وملابسه هي ذاتها التي رأيتها عليه أول مرة، بنطال أسود، وبلويزة زرقاء، ومعطف بني.

اعتراك الشعور نفسه الذي شعرت به ما إن رأيت أول مرة، كنت تتصرف وكأنك ترى شخصاً غريباً، ليس أخو لى، الذي تعرفه كما تعرف صديقاً قديماً. عقلك يصدق لأنها الحقيقة، ولكن عينك لا تصدق أن هذا الواقف أمامك هو نفسه الذي ركض مع لى في ممرات الحارة، وشاركها اللعب والضحك والجنون.

أي معاناة قد آلت به إلى هذه الحال؟

- صباح الخير.

قلت، بابتسامة جميلة، كأنما تقابل شخصاً تعرفه منذ زمن. سألته عن أحواله، وعن يومه كيف بدأ، كانت الابتسامة لا تفارق مُحياك، بينما يحافظ هو على جمود ملامحه، ويجيبك بنبرة خالية من أي شعور. كان هادئاً جداً، يعجز أن يخمن مشاعره أحد، تماماً كما قال مساعد.

سألته باهتمام:

- هل فكرت بما قلته لك يوم الخميس؟

أجاب بعد تفكير:

- بصراحة، لا.

- لماذا؟

هز كتفيه، ولم يقل شيئاً. فبللت شفطيك متردداً، ثم اقتربت منه أكثر، وقلت:

- خالد، لم لا تريد أن أكتب عنك؟ أنت جزء من المجتمع، أعرف أن هذه حياتك الخاصة وقد لا تحب أن يطلع عليها الجميع، ولكن صدقني لا أحد سيعرفك، سأكتب قصتك دون أن أشير إلى اسمك أو حتى الحي الذي تقيم فيه. أنا لست أسألك فضولاً، أو تدخلاً في شؤونك الخاصة، أنا أسأل كي أوثق قصة واقعية، وألفت النظر، إلى ما يعاينيه الوافد المغترب عن طريقك أنت. دع القراء يتعرفون على معاناة العامل المسكين هذه المرة من لسان شاب سعودي صادق عاش شيئاً من معاناتهم، واتركهم يتخيلون أنفسهم يوماً في مكانك، ليفكروا ألف مرة، قبل أن يؤذوا الضعفاء. من ناحية أخرى يا خالد، أريد أن أعرف السبب الذي جعلك تعمل هنا، لقد أثر بي حالك، وكما تعرف، أنا صحفي، تهمني هذه القضايا وأحب أن أفتش وراءها وأعرف أسبابها.

سكنت تنتظر منه رداً، أخذ يفكر مرسلأ عينيه في الفراغ، ثم أوماً برأسه فجأة، وقال:

- سأفكر.

اكتفى بهذه الكلمة ثم عاد مباشرة إلى عمله وكأنه لم ير صحفياً يسأله قبل قليل. بقيت تنتظر إليه، كانت بداخلك أكوام من أسئلة واستفهامات لم تجد لها جواباً. لا تعتقد أنك بكونك صحفياً تملك الحق في سؤاله عنها، ورغم إحباطك إلا أنك ارتأيت أن تتركه اليوم لتعاود المجيء غداً بأمل جديد. أعطيته رقمك مكتوباً في ورقة، وطلبت منه، بحنان، أن يفكر ويفرغ نفسه غداً لأنك ستأتيه بعد صلاة العشاء. هز رأسه موافقاً فارتاحت نفسيتك، وودعته ذاهباً إلى السيارة.

في الليلة التي تلت يوم السبت، كان يجلس أمامك ساكناً، على كرسي خشبي بلا أذرع. يمسك شطيرة دجاج بكلتا يديه، يقضمها ببطء، ويمضغها ببطء أكبر، وهو في حالة سرحان شديدة. أمامه مباشرة، كنت تجلس على كرسي آخر، حانياً ظهرك تعلق بين يديك قلماً وتنفث هواءً.

قبل أن تأتي إلى هنا، مررت على مطعم قريب واشتريت عشاءً بسيطاً، شطيرتي دجاج، لك ولخالد، كي يكون عشاءً مشتركاً، ينمي مشاعر الألفة والتقارب ولو كان بسيطاً.

لكن منظر المكان ورائحته لا تبدو مشجعة. لم يكن بودك أن تجلسا هنا، كانت الورشة ضيقة وكئيبة، تفوح في أرجائها رائحة الزيوت التي انسكبت بقعها على الأرضية السوداء في كل مكان، وتزدحم بالمعدات والمفكات وقطع السيارات.

ولكن ما من مكان تستطيع رؤية خالد فيه غير هذه الورشة الصغيرة. الجيد في الأمر، أنها أصبحت الآن أخف ازدحاماً من الناس مع اقتراب وقت انتهاء الدوام.

تركت خالد يأكل بهدوء بينما أبقيت شطيرتك في الكيس بلا نية لأكلها. انشغلت بالمفكرة التي في يدك تقلبها وتخربش فيها، وتنظر بين الفينة والأخرى، إلى وجه خالد، وهو ينظر إلى الأرض غائباً في بحور خواطره.

الأرض صديقته الوحيدة، لا ينفك يتأملها. كل ما قاله مساعد يتضح جلياً أمام عينيك، وكأنه استطاع أن يختصر خالد بتلك الكلمات. رغم هذا، كنت مؤمناً تماماً بأنك ستلج إلى قلبه بأسهل الطرق. حينما تكون خلوقاً جداً، بشوشاً على الدوام، رحيماً بطريقة لا توحى بأنها محض تصنع، سيحبك حتماً.

قلت له، حينما رأيته قد أنهى شطيرته، بابتسامة:

- خالد، نبدأ الآن؟

اعتدل في جلوسه، وراح ينظر بهدوء، صوب عينيك. سحبت نفسك، ثم طرحت عليه عدة أسئلة، ابتدأتها بأسئلة سطحية كنت تعرف أجوبتها جيداً، حتى دخلت تدريجياً نحو الأعمق.

- هل تسكن هنا يا خالد، في هذا الحي؟

نظر إليك قليلاً، توجست من نظراته تلك، وما تليها من إجابة قد لا تطابق تلك التي يريدنا قلبك. كم تضايقت، حين أوماً إيماءةً سريعة، وأجاب بهمس منخفض:

-أجل، أسكن قريباً من هنا.

ليته قال جواباً غير هذا، ليتك لم تسأله من الأساس. سرعان ما أطرقت رأسك، كي لا يرى ملامحك التي أخذت شكل الحزن، أو يلمح بين قسّماتك قلقاً. تساءلت، والضيق يطبق على قلبك، كيف ستقول للمي بعد الآن أن أخاها على ما يرام؟ كيف يمكن أن يكون الإنسان بخير، ما دام يسكن حياً كهذا؟

سبعاني كثيراً، حتى لو كان معتاداً أن يعيش حياة صعبة معدومة الرفاهية. سيفتقد أشياء كثيرة، حتى رثتيه، ستفتقد هواءً صحياً ونظيفاً. الأمر صعب جداً، ليس على لمي وحسب، بل عليك أيضاً. إنك تحتاج أولاً إلى مواساة نفسك، لأنها بيّنت أملاً في كونه يسكن الخالدية ما يزيح عنها ألم المرور في هذا الحي، ثم تبدأ، شيئاً فشيئاً، بتدريتها على تقبل الصدمات.

خالد لا يبدو بخير، على الأرجح أن حالته أسوأ مما تعتقد.

- ممم حسناً، هل يمكن أن تخبرني كيف استطعت أن تحصل على هذه الوظيفة هنا؟

- عن طريق شخص أعرفه يعرف صاحب هذه الورشة، وهو الذي توسط لي كي أحصل على هذه الوظيفة.

ضيق عينيك بشك، من هذا الشخص؟ أطرقت رأسك وشرعت في كتابة الجواب متقمصاً الدور باحترافية. لا مجال للانفعالات الآن، لا للصدمة ولا للشك ولا حتى للحزن.

- وكيف وافق صاحب الورشة على توظيفك؟ هل هو سعودي؟

- لا، لكنه وافق لأنه رأني أملك خبرة جيدة في هذه الأمور.

- ومن أين لك هذه الخبرة؟

سكت قليلاً يفكر، شبك يديه ببعضها، ثم قال:

- لقد تعلمت صيانة السيارات في صغري، كنت أرى جارنا كل يوم، وهو يقف عند باب بيته أمام سيارته، يتفحص مقدمتها ويفتش عن أعطالها نادباً حظه. كنت أعرض عليه المساعدة كلما رأيتته على وقوفه ذاك، فيرحب بي، ويجعلني أمسك له المعدات، وأناوله إياها، وأراقبه جيداً. تعلمت منه أشياءً بسيطة، مثل نزع الإطارات وتركيبها، وإصلاح الطعجات التي

تصيب هيكل السيارة الخارجي. شيئاً فشيئاً بدأت أتطور، حتى أصبحت شبه متمرس لهذه المهنة.

ها قد بدأ يذكر لمحة من الماضي، ابتسمت سريعاً فور سماعك لهذه القصة، وقلت مُشجعاً:

- ما شاء الله، فيما يبدو لي أنك تملك قصة مُلهمة جداً يا خالد. قد أحب سماعها منك في يوم من الأيام.

سكنت لتعرف ردة فعله، فأجابك كالعادة، بالسكوت. لكنك استشفيت من سكوته هذا معانٍ كثيرة. لا يبدو كارهاً ولا معارضاً، ما يجعل أمر إخباره لك بماضيه محتملاً.

- دعنا الآن نتحدث عن العمل. كم ساعة تعمل في اليوم؟

- في أيام الدراسة أعمل من الرابعة عصراً حتى التاسعة مساءً. وفي يوم السبت من العاشرة صباحاً وحتى التاسعة مساءً، وأخذ استراحة في الظهر. وفي الجمعة لا نعمل.

- هل تتقاضى مرتباً ثابتاً من صاحب الورشة أم نسبة محددة من حصيلة كل شهر؟

- لا، مرتب ثابت.

ثم أضاف، حين رأى علامات الاستنكار على وجهك:

- نحن نشهد إقبالاً كبيراً كل يوم، والأرباح كثيرة. يأتي الزبائن إلى هنا من جميع الأحياء بحثاً عن السعر الرخيص، لذلك، من المستحيل أن يعطيني نسبة ثابتة. أساساً، أنا العامل الوحيد الذي يعمل بدوام جزئي، من أنا حتى أطلب بنسبة؟

قال جملته الأخيرة بشيء من الضيق، فأومأت برأسك متفهماً. أردت أن تسأله كم يتقاضى، ولكنك خشيت ألا يرحب بسؤالك هذا. سكتت لدقيقتين، كنت تبحث في عقلك عن سؤال ولكن الأسئلة كلها تبخرت، لم يبق إلا سؤال واحد، كنت متردداً في طرحه على خالد. ركزت عينيك على المفكرة، متهرباً من نظراته، ثم سألته:

- وما الذي.....، وما الذي دفعك للعمل هنا؟

لا تزال عينك مثبتتان على الورقة البيضاء في المفكرة، نصف دقيقة، حتى رفعت عينيك إليه، حين شعرت أنه تأخر في الرد. كان خافضاً رأسه إلى درجة أنك لم تعد ترى وجهه ولا تعابيره، ولكنه حتماً شعر بالحزن.

يبدو أنك اليوم، صرت تجيد حقاً دور الصحفي، الذي يفتح آلام المكلومين، من أبوابها الخلفية، ليري منها جزأها المخبأ والأشدّ خصوصية. ذاك الصحفي، الذي يرش على جروح البؤساء ملحاً حتى تهيج، فيصورها، أو يسطرها بقلمه، ليصبح هو صاحب الصورة أو المقال الأشدّ تأثيراً.

ستحتاج إلى وقت، حتى تثبت لخالد أنك لست كبعض الصحفيين، أن دورك لن ينتهي بعد كتابة المقال وأنت لن تتركه وحيداً متألماً مفتوح الجراح.

رأيته يقف قبل أن تتكلم، قال، وهو يوليك ظهره، ويعيد كرسيه إلى مكانه الأصلي:

- يجب أن أذهب الآن، إلى اللقاء.

وقفت سريعاً، وحين التفت إليك، وضعت يدك على كتفه، وابتسمت ابتسامة واسعة، همست له معها:

- انتبه على نفسك، سأتي غداً، إلى اللقاء.

الاثنين، 6 جمادى الأولى، 1437هـ

في سيارتك، كنت تُحکم إغلاق معطفك الثقيل على جسدك، وترتب شماغك الأحمر استعداداً للنزول.

حملت العلبه الكرتونية من المقعد الأيمن بحذر، خشية أن تنسكب الشوكولا الساخنة التي أحضرتها معك من المقهى، ثم نزلت بهدوء. لمست أحد الكوبين، يبدو أنها قد بردت قليلاً، لا بأس، هي لا تزال محافظة على دفئها الذي يجوب الجسد من أول رشفة. دخلت الورشة مبتسماً باحثاً بعينيك عن خالد، راجياً أن يكون قد أنهى عمله، حتى يتسنى لكما الجلوس معاً واحتساء الشوكولا. لم تجده في مكانه المعتاد في الزاوية، فخرجت وصرت تبحث عنه بين العمالة الواقفين على ناصية الشارع، يتصيدون الزبائن القادمين. لم تجده، شعرت بالقلق، ألم يأت اليوم؟ لكنه أخبرك أنه سيأتي. هل ثمة مكروه حدث له؟

وقفت عند مدخل الورشة وصرت تنظر إلى العمارات القريبة في الشارع المقابل. خالد ليس لديه سيارة، ويأتي إلى الورشة يومياً، إذن من الأرجح أنه يسكن قريباً من هنا. هل يمكن أن يكون في إحدى هذه العمارات؟ أطلقت تنهيدة عميقة، وأنت تتأملها بنفور. لم تكن إلا عبارة عن مكعبات بيضاء صماء، متقاربة ومتلاصقة، نوافذها ذات طراز شعبي قديم، وحول كل نافذة، يتقشر الدهان كاشفاً من تحته لون الإسمنت الرمادي. بين كل نافذتين، هناك مكيف لا يخلو من بقعة صدأ طويلة تمتد أسفله، تبدأ بنية من الأعلى، وتبهت تدريجياً كلما نزلت إلى الأسفل. كانت العمارات تشبه أوراقاً بيضاء سُكبت عليها القهوة، تبدأ البقع بنية من الأعلى وتنتشر نزولاً حتى تصبح صفراء باهتة.

مناظر كهذه كانت تجلب لصدرك الضيق والاكتئاب. لا يمكنك أن ترى هذه المباني دون أن تتخيل نفسك تعيش فيها وتنام بداخلها، لذا فالنظر إليها لطالما كان رديفاً لضيق داخلي ومشاعر مكتئبة. أشحت بنظرك بعيداً، وتمنيت ألا يفجعك القدر بكون خالد يسكن هنا.

يوماً ما، ستجبر نفسك على زيارته في بيته، حتى تصبح قريباً منه. كما أن زيارته في الورشة لا تجدي نفعاً لكثير من الأسباب. إنها تمنعك من محادثته بأريحية، وإذا ما فكر في أن يخبرك بأمر خصوصي أو سر، فسيلغي هذه الفكرة غالباً إذا ما رأى المكان مزدحماً بالناس.

الأمر الأشد حساسية، أنك لم تعتد قط على هذه الأماكن المزدحمة بالناس، فكيف إن كانت ورشة ذات جدران صفراء كثيفة تمتلئ بالعمالة الذين يتدفقون كل ثانية مثل سيول منجرفة؟ الأمل الوحيد، أنك تعرف بكون خالد يملك مالاً كافياً، وهذا قد يجعله يختار شقة جيدة نوعاً ما. سحبت نفساً، واعتراك ضيق شديد، فقررت أن تعود إلى السيارة. وفي آخر لحظة، لمحت خالد من بعيد، كان يقطع الشارع متجهاً إلى الورشة.

توقفت في مكانك مرسلأ إليه ابتسامة لطيفة تلمع من بعيد، وما إن اقترب، حتى صرت تنظر إليه بتركيز، كان وجهه جامداً بلا تعابير، ولم تستطع تمييز نظراته خلف النظارة. حين وصل، ألقى عليك السلام بهدوء، ثم خاطبته بنبرة تنم عن سعادة ومحبة واضحة:

- أهلاً، كيف حالك اليوم؟

- بخير.

أشرت إلى الكوبين بابتسامة:

- أحضرت معي مشروب الشوكولا الساخنة، هل تحبه؟ إنه لذيذ جداً.

وحين مدت يدك لتعطيه كوباً، تفاجأت به ينظر إليك نظرة كُره واضحة، عاقداً حاجبيه، لاوياً فمه بحقد. تسمّرت في مكانك، وهو لم يتكلم، حتى سألك بهدوء:

- هل جئت لتتصدق علي؟

عقدت حاجبيك، وقبل أن تنطق بشيء، قال بغضب جامح:

-من قال لك إنني جائع حتى تحضر لي الطعام يومياً؟ هل تظنني فقيراً؟ أنا لست فقيراً!

قال جملته الأخيرة وهو يصرخ في وجهك، ولم تدر ما الذي أصابه تلك اللحظة. رأيت وجهه الأسمر الهادئ وهو يستشيط غضباً ويحمر، ورأيت العينين الهادئتين الخائبتين تحملان نظرة جديدة مرعبة لا يمكنك وصفها.

قال، وهو يكاد يتهجم بجسده عليك، وعينه توشكان على الخروج:

-هل تحاول إهانتني؟ لقد مرّرت موقفك يوم أمس حينما أحضرت الشطيرة رغم أن شعوري بالإهانة كان قوياً. فضلت السكوت تكرماً مني ورغبة في أن لا أضايقك، لكن لا تتوقع بأنني سأسكت دائماً! هل جئت لتنفيذ عملك أم لتطعمني وتشربني! يا أخي، أنجز عملك وارحل! أنا لم أطلب منك طعاماً ولن أطلب أصلاً، هل تحاول إهانتني؟

فتحت عينيك مذهولاً، وتمنيت لوهلة أن تختفي من الوجود في جزء من الثانية. بلا شعور، صرت تتلفت حول المكان خوفاً من أن يكون أحدهم قد سمع خالد، وحين تأكدت أن الجميع مشغولون، اقتربت منه مقهوراً، سألته بغضب مكتوم، بوجه يكسوه الاحمرار:

- ما بك؟ لم كل هذه العصبية؟

تمنيت أن تسمع منه تبريراً أو اعتذاراً لكنه نظر إليك نظرة احتقار قوية، جعلتك تستشيط غضباً، ثم غادر سريعاً من غير أن يكلف نفسه بالإجابة.

لم تستطع استيعاب الإهانة التي تعرضت إليها قبل قليل، أعدت الكوب إلى العلبه وأنت تشعر بمرارة، وتمنيت لو بوسعك اللحاق به، فتحطم رأسه. رجعت إلى السيارة وأنت تتساءل كيف وضعت نفسك في هذا الموقف؟ كيف لم تفكر أن هذا الولد، ذا القامة القصيرة، قد يحسبها إهانة لذاته؟

جاءت نيتك صادقة وطيبة هذه المرة، لكن يبدو أن طريقتك كانت سيئة بعض الشيء. أغلقت باب السيارة بحزن، أنت في الأساس، مهما فكرت ومهما تكهنت، لا يمكنك أن تتوقع من خالد ردة فعل كهذه.

الهادئ الطيب الکتوم، الذي لا يؤذي أحداً، كيف يمكن أن يغضب بتلك الصورة ويتصرف هكذا تصرف على شيء لا يستحق؟

بلغ فيك الإحراج حدّاً لا يُطاق، وتمنيت أنك لم تأتِ اليوم. جرت العادة دائماً، أن يظن الجميع بك على خلاف ما تتمناه، خصوصاً حين تتصرف بتلقائية، على سجيتك بلا تصنع.

قبل أن تتحرك، سمعت طرّقاً خفيفاً على النافذة اليمنى، فالتفتت، وتفاجأت به، يحدق بك، ووجهه يلتصق بالنافذة. ماذا يريد! فتحت النافذة، فإذا بنظراته قد اختلفت كثيراً عما كانت قبل قليل. قال، بعد تردد:

- أنا، أنا

زم شفتيه، ثم قال:

- اعذرني، لقد تصرفت بحماقة، ما كان علي أن أصرخ بتلك الطريقة، سامحني.

لم يخفَ عليك حزنه الواضح، ابتسمت داخلياً، كانت مشاعرك تتأرجح بين الرأفة والغضب. أشحت بنظرك إلى الأمام، ثم سمعته يقول:

- فيصل، فلتأتِ غداً إذا أردت! وداعاً.

التفتت إلى النافذة بدهشة، ولكنه سبقك ورحل قبل أن يرى منك هذه الالتفاتة. لقد قال جملته الأخيرة برجاء مبطن. ماذا كان يقصد؟ هل أحب زيارتك اليومية فجأة؟

شغلت السيارة، ومشيت، ولا يزال شعورك بالإهانة هو سيد الشعور.

بحلول الثامنة والنصف، رجعت إلى الفندق ومزاجك حاد مثل شوكة نافرة.

لم ترَ لى في الصالة، ففكرت أن تنسحب سريعاً نحو غرفتك قبل أن تخرج، ولكنها أحست بمجيئك صدفة، وخرجت من غرفتها لتقابلك في آخر الممر.

- هل رأيت خالد مجدداً؟

أشحت بعينيك بعيداً، مطلقاً تنهيدة صغيرة:

- أجل، ولكن لم يحصل أمر جديد.

- كيف؟

- جلست معه قليلاً ثم عدت.

أخفضت رأسها، وسألتك، وهي خائفة:

- و... ومتى سأراه؟

- ليس الآن.

- إذاً متى؟

- يا الله! لا أعرف يا لى، هل تريد أن أرميك عليه بأي طريقة كانت! أنت بحاجة إلى رجل يقف خلفك، وأخوك حتى الآن لا نعرف نواياه، ولا دوافعه التي جعلته يتخلى عنك لأجل وظيفة هو لا يحتاجها. اصبري قليلاً، لا داعي للاستعجال!

- إذاً دعني أراه، أريد أن أراه فقط.

- كيف؟

- نذهب معاً إلى الورشة، ثم تناديه، وأكون أنا في السيارة مرتدية عباءة وغطاء للوجه، وأراه من غير أن يعرفني.

رفعت حاجبيك متفاجئاً بكلامها، ثم صرت تهز رأسك يميناً وشمالاً، وتقول، بغرابة:

- لا، أنت جنت، يبدو أنك جنت.

بقيت تردد هذه الكلمة بطريقة غريبة جداً، حتى دخلت إلى غرفتك وأغلقت بابها متوارياً خلفه. كانت تلك هي المرة الثانية التي تتجاهل بها لى بهذه الطريقة، إن كانت ستبكي فلتبكي حتى يصفو مزاجها، لأن ما فعله أخوها لم يكن شيئاً هيناً أبداً حتى تتجاوزته أنت لتمسح لها دموعها بعاطفة أب حزين.

نزعت معطفك ووثوبك ثم جلست على السرير، وبحثت بعينيك متضجراً عن حاسوبك المحمول، ثم تذكرت، يوم تخليت عنه من أجل لى. ما الغريب في ذلك؟ لطالما كنت

تتخلى عن حياتك كلها من أجل لى، عن كل ما هو ثمين لأجل عينيها، ويوشك الأمر اليوم، أن يتصاعد ليمس حد الكرامة.

انحنيت إلى الأرض تنزع جوربيك، محاولاً أن تتجاهل هذا النوع من الأفكار. سمعت فجأة صوت هاتفك يرن، ونظرت إليه، فازداد الضيق في قلبك أضعافه.

لقد مضى أسبوع، ولم تفكر في زيارته ولو لمرة. تناولت هاتفك وأجبت على اتصاله وأنت تجهز أذنيك لعتاب موجه، قد يمتد طويلاً، أو قد يختصر بجملة واحدة قاسية.

- نعم يا أبي؟

- أين أنت؟

- في الفندق.

- ألن تأتي إلى البيت؟

جاءت نبرته هادئة بطريقة عجيبة، فاستعدت من موجة غضب ساخطة قد تختبئ خلفها.

- أنا آسف يا أبي، لقد نسيت أمر الزيارة، ولكني لا أزال على وعدي، سأزورك غداً بإذن الله.

- ارجع يا فيصل، ماذا تفعل وحدك؟

- أبي، أتمنى أن تحترم رغبتى، أحتاج أن أجلس وحدي.

قلتها بشيء من الحزن، فسمعته يتنهد، ويهمس حزيناً:

- هل أصابك شيء؟

- لا لا، أرجوك لا تفكر بهذه الطريقة.

- إذاً أنت تمهد إلى قرار الرحيل، أليس كذلك؟

لم تسمع منه هذه الكلمة منذ زمن. كلمة الرحيل، كانت تعني في قاموس والدك شيئاً واحداً ، شيئاً يقصد به هجرتك، من بيته إلى بيت والدتك، حيث تقيم معها في إقامة أبدية، ولم يستعملها يوماً في معنى غير هذا. تعتبر هذه الكلمة، بمعناها الوحيد، أمراً كارثياً حين تمر في ذهن والدك، وسواءً نطق بها أو لا، فإن النتيجة ستكون صراخاً محملاً بشتائم ودعوات يصبها في أذنيك، فتفسح في قلبك مجالاً جديداً للاكتئاب.

حاولت أن تستدرك الأمر قبل أن ينفجر في وجهك، وهزرت رأسك نافياً كأنما تخاطب أمامك شخصاً خفياً:

- لا لا يا أبي! لم أقصد..

سرعان ما انبعث صراخه شديداً على الهاتف:

- بلى! كفاك كذباً!

سكنت مندهشاً لثوانٍ، ثم سمعته يسألك سؤاله المعتاد، بعصبية مفرطة:

- هل قصرت أنا في حقك؟ هل عارضت يوماً رغباتك أو منعتك من شيء تستحقه؟ ألم أسكب المال فوقك سكباً مثل ولد مدلل؟

- لا، ولكن ...

- حسناً حسناً، فلتسكن معها كما أردت، وعليك غضبي ودعواتي إلى يوم الدين!

قال جملته الأخيرة وهو يزفر مثل ثور، وقبل أن يغلق الهاتف في وجهك، أضاف:

- بالمناسبة، حاول أن تستبقي شيئاً من رصيدك، لا مصروف بعد اليوم!

لم يكد يغلق المكالمة حتى ألقىت بهاتفك بعيداً، ليستقر على حافة السرير. بقيت مشتتاً لدقائق، تحاول ترتيب أفكارك ومداراة دموعك معاً. خرجت من الغرفة بعد أن أصبحت أجواؤها خانقة لا تطاق، وبحثت بعينيك عن لى، كنت في حالة أحوج ما تكون إلى الكلام.

وجدتها في المطبخ، واقفة أمام برادة المياه. ناديتها بعينيك، فأحسَّت بحاجتك الملحة إلى الكلام. على طاولة المطبخ جلستما متقابلين، ضوء المصباح الخافت يهبط على جسديكما، وسكينته وكأبته أيضاً. استغرقت نصف دقيقة في محاولة لترتيب الكلام، ثم خاطبتها بجدية:

- لى، سأخبرك شيئاً.

رأيت يد الخوف تتسلل إلى ملامحها، فأضفت سريعاً:

- ليس عن خالد، بل عني أنا.

اليوم، يتجاوز دورك دور المنصت، تتبادل أنت ولدى الأدوار، تضع يديك على الطاولة في هدوء، لتأخذ دور القاص، الذي يقص لها حكايته.

- لدي أب مختلف عن كل الآباء يا لى. لا أدري كيف أشرح لك شخصيته، ولكن، أتعرفين تلك الشخصية التي دائماً ما نشاهدها في الأفلام، رجل ببدلة رسمية سوداء وحقيبة مستطيلة، يشرب قهوته على عجل ويأكل على عجل، هاتفه الشخصي لا يفارق أذنه، ينظر إلى ساعته كل ثانية، وخطواته سريعة دائماً وكأنه خلق ليركض؟ أجل، هذه هي شخصية والدى. أبى يا لى خلق ليعمل، منذ طفولتي وأنا لا أراه إلا ساعات محددة في اليوم، ولم يكن الأمر مشكلة بالنسبة لي حتى تطلقت أمي وتزوج أبى، فتحولت أنا إلى خشبة قديمة في إحدى زوايا بيتنا لا يسأل عنها أحد ولا يهتم لوجودها أحد. تزوجت أمي أيضاً فور طلاقها، أمي جميلة، لم يؤثر طلاقها من أبى على حياتها العاطفية بل تزوجت تاجراً وصارت تسكن معه في فيلا قريبة، وأنا سعيد بذلك جداً، حيث يسعدني استقرارها ويفرحني ارتياحها كثيراً. لم أكن صغيراً يا لى حتى أبكى على طلاق والدى مثل طفل، كنت أعرف أن طلاقها كان قدراً محتوماً لا رجعة فيه. منذ سنة طلاقها وأنا أشغل نفسي بالخروج، أخرج يومياً مع أصدقائي ولا أعود إلا على وجبة العشاء، وحينها، نجلس أنا وأبى مع زوجته، ويبدأ بلومي على كثرة خروجي من المنزل، نتشاجر في أمور عدة، ولا تنتهي المعاناة حتى تنتهي الوجبة وينزوي أحدها إلى غرفته. مررت بلحظات صعبة كنت أعالجها بالسفر أو بالاستلقاء ومشاهدة الأفلام، أو بزيارة أمي مرة كل ثلاثة أيام. رغم حزني أخذت عهداً على نفسي ألا أشكو لأمي أبداً سوء علاقتي مع أبى حتى لا يضيق صدرها، أو تتحول زيارتي لها إلى جلسات للشكاوى والاستشارات. أريد أن تسعدنا زيارتي وتستدفي بقربي.

لم تهمس لى بكلمة، رأيت في عينيها محيطاً من التساؤلات.

- مفهوم الدلال يختلف يا لى في قاموس أبى، يعتقد أنه ما دام يخصص لي مصروفاً كل شهر فهو بذلك يغدقني حناناً وعطفاً. يصعب على كبار السن، عادةً، أن يشعروا بأخطائهم، ودائماً ما يسقطونها على الغير. أو ربما كان أبى يشعر ولكنه يخفي الأمر بداخله! لا أعرف بصراحة، أبى كائن معقد صعب المراس. أتدريين ما الشيء الوحيد الذي يخيفه ويكسره؟ الشيء الوحيد الذي يشعل غضبه ويكوي قلبه؟ رغبتى بالانتقال والسكن مع أمي. أتدريين لماذا؟ لأنه يخاف أن أجد عندها حناناً وعطفاً ينسيني إياه، يخاف أن تنقطع زيارتي عنه شيئاً فشيئاً حتى أختفي عنه إلى الأبد. يخاف أيضاً، أن توغر أمي صدري عليه، فتتسبب بقطيعتي له، بيد أنها من المستحيل أن تفعل هذا. كان يفضل أن أسكن وحيداً على أن أسكن عندها، لهذا أخذت عهداً على نفسي ألا أفتح هذه السيرة عنده حتى لا يضيق صدره، رغم أن هذا هو ما يشعره بالذنب فيتمسك بي أكثر. اليوم، شعر بأنني أخطط لذلك فعلاً، فهدد بأن يقطع عني المصروف. ما أود قوله لك يا لى أننا سنغير اليوم هذا الفندق ومنتقل إلى مكان آخر مجاني، وسأتولى أنا بعدها إقناع أبى. هل أنت موافقة على ذلك؟

كنت تستشيرها وكان رأيها قد يغير شيئاً من قراراتك، وكأنها أهم إنسان في هذا الوجود. بمجرد ما هزت رأسها موافقة ابتسمت مرتاحاً، ورجعت إلى غرفتك، حيث اتصلت بشخص اسمه سعيد، حارس إحدى العمارات التي يملكها والدك، تسأله عن شقه شاغرة، تقيمان فيها أنت ولمي.

(3)

الثلاثاء، 7 جمادى الأولى، 1437هـ

في الثامنة وعشر دقائق مساءً، كان في الورشة، يقف أمام سيارة، يتأمل ملامحه في نافذتها المتسخة بآثار المطر.

نظارته أيضاً متسخة، إنه يمسحها كثيراً، ولكنها ما تلبث أن تتسخ مجدداً. نظر إلى فوطته البيضاء التي استحالت رمادية، ثم نزع نظارته ومسحها بها. لقد اعتاد أن يرى بنظارة متسخة، ولكنه الآن، يريد أن يرى وجهه بوضوح.

في منزله لا توجد مرآة، ولقد اشتاق أن يرى وجهه ويلمح تغيراً هنا أو هناك. مسح نافذة السيارة بطرف فوطته المبلل، ثم نظر في وجهه، وتملى في ملامحه. لم يلحظ تغييراً عن الأيام الماضية سوى أن شاربه يزداد كثافة، وأن شفثيه الرقيقتين، قد أصابهما جفاف البرد.

كان يقشرها كثيراً بأسنانه واطافره، حين يسرح باله، وحين يفكر، وحين يصيبه التوتر. مرر لسانه على شفثيه سريعاً أملاً في ترطيبها، ثم توقف، ما إن أحس بحركة حوله، والتفت عن يمينه. ما إن رآك تقف قريباً منه، حتى فتح عينيه بدهشة، لم يكذب يصدق أنه رآك مجدداً.

- أتيت! لم أكن أتوقع أنك ستأتي مجدداً.

اتسعت عيناه حتى استطعت أن ترى فيهما بريقاً. سألته، بابتسامة صغيرة:

- لم هذا الفرح؟

- اعتقدت أنك أخرجت بسببي.

قلت بهدوء:

- الحقيقة أنني أخرجت كثيراً.

أزاح عينيه إلى الأرض:

- لا تؤاخذني، هكذا أنا أغضب سريعاً.

ثم رفع عينيه إليك، أرسل إليك نظرة حادة، وقال:

- لا أحب أن يهينني أحد.

سكتت، سحبت نفساً عميقاً وحاولت بصعوبة كبح أعصابك. إنه يصر على تسمية ذلك الفعل إهانة، رغم أنه يختزل كل مشاعر العطاء والحب.

- لم أكن أقصد هذا، عموماً، إذا أردت نصيحتي، تحكم بأعصابك جيداً، هذا الأسلوب لا ينفع، سينفر جميع الأصدقاء منك.

قلتها وأنت تكتف يديك، بينما يبدو الاهتمام واضحاً في نبرتك. سمعته يقول، بلهجة حزينة ساخرة:

- ربما لهذا السبب أنا لا أملك الكثير من الأصدقاء!

التفت إلى السيارة، وصار يحك زجاجها بظفر إبهامه. يتظاهر بالانشغال، متهرباً بذلك من مئات الأسئلة التي ستمطره بها إن نظر إلى وجهك. طال الوقوف، فكرت في إشعال سجارة ولكن خطر في بالك شيء. ماذا لو كان خالد يكره السجائر، هل سيفضل أن يصاحب شخصاً يُدخن؟

ضع كل الاحتمالات أمامك، وفكر ألف مرة قبل أن تقدم على خطوة. قلتها في نفسك، ثم أخرجت يدك من جيبيك بتلقائية، لا داعي للتدخين. دقيقتين، حتى شعرت أن ليس لوقوفك فائدة، فقررت الرحيل. فجأة، التفت إليك، ليسألك بسرعة:

- هل ستذهب؟

لم تجبه، فقط سألته بعينيك، إن كان يريد شيئاً. قال بضيق:

- لا، لا شيء.

أمسكته من ذراعه، وقلت، بلهجة غاية في اللطف:

- ماذا تريد يا خالد؟

أردت منه أن يتكلم. لن تسمح له أن يبقى كتوماً معك كما يفعل مع مساعد.

شعر خالد بالخجل، لم يكن يتوقع أن يصل اهتمامك فيه إلى هذا الحد. رفع كتفيه، وقال:

- ليس شيئاً مهماً، أردت أن أقترح عليك أن نخرج معاً لتتجول قليلاً ونتكلم فأنا أشعر بالاختناق هنا، ولكنني لا أريد أن أؤخرك عن عملك.

يشعر بالاختناق، لقد قالها. ابتسمت داخلياً، وأنت تقلب كلماته في رأسك. إنه يا فيصل يشعر بحاجته الماسة إليك، على الأقل في هذه اللحظة فقط. لم تشأ أن تفوت عليك هذه الفرصة التي ستجعله يحبك أكثر من أي وقت مضى، فقلت بجديّة، راسماً على ملامحك كل معاني الاهتمام:

- أي عمل يا خالد؟ أليست وظيفتي هنا أن أجلس معك؟

حينها ابتسم خالد، ولأول مرة تراه يبتسم، انحناءة بسيطة في شفثيه المتشققتين لا تسمح لأسنانه بالظهور. ولكنك، أخيراً، رأيت الغمازة التي حدثتك عنها لمرّة يوماً، وأطالت الحديث.

- فلنخرج كما أردت، هيا.

أشرت إليه كي يمشي معك، وثم توجهت إلى سيارتك التي أوقفتها اليوم في مكان قريب. ناديت، وأخبرته أنك ستأخذه بالسيارة في جولة قصيرة حول الأحياء. رأيت يحدّ خطواته لكي يأتي، كان متردداً، أركب مع شخص لا يعرفه جيداً؟ كاد خوفه أن يمنعه، لولا أن اختناقه دفعه للمجيء. ابتسمت حين رأيت يغالّب خوفه ويأتي، سبقته بالركوب، ثم فتحت له باب السيارة، وفتحت له حينئذ أبواب قلبك كلها.

- سنتجول معاً في الأحياء القريبة بعيداً عن هذا الازدحام، هيا اركب يا خالد.

أغلق معطفه جيداً، ثم مطّ قبة المعطف ليضعها فوق رأسه. جلس، وسرعان ما استرخى في جلوسه، مثبتاً رأسه نحو الأمام، مصوباً ناظره على الطريق.

سلكت الطريق الرئيس إلى ما يؤدي شمالاً، بحثاً عن حي أرقى. فتحت النافذتين كلها حتى تمتلئ السيارة هواءً نظيفاً، حتى يتجدد الأوكسجين في صدر خالد. أخذته في طواف طويل حول الأحياء، طواف يسوده الصمت والتأمل. كنت تقضي الدقائق التي تتوقف فيها أمام إشارة بمراقبة خالد مراقبة غير مباشرة، والتنبه إلى حركاته وسكناته.

لم يكن ينظر إلى وجهك، ولم يبدُ أنه نظر إليه منذ أن ركب السيارة. كفاه السمران، اللذان يخبئهما أسفل أكمام المعطف، كان يضعهما في حضنه، ولا يحركهما أبداً. قبعة المعطف التي تغطي رأسه لا تسمح لك برؤية وجهه من مكانك.

كنت، في جلوسك مع خالد، مجبوراً على دراسة شخصيته من غير أن تستخدم أيّاً من أدوات المساعدة التي تستخدمها، لأنها مع خالد على وجه الخصوص، لا تجدي نفعاً. قراءة العيون، التفرس في الوجوه، تحليل الكلمات، التنبه لحركات الجسد وإيماءاته، كل هذه الأدوات لا تجدي نفعاً.

كيف يمكنك أنه تعرف منه شيئاً وهو لا يتحرك، لا يتكلم، يشيح بعينه إلى الفضاء كلما نظرت إليهما؟ كلما تذكرت أن لمي قد وصفته بالمجنون، الضاحك، البشوش، شككت أن تلك القصص لم تكن إلا من وحي خيالها.

- فيصل، هل كتبت المقال؟

استفتت على سؤاله، وهزرت رأسك نافياً، ثم سألته بعد تفكير:

- كيف أكتبه وأنت لم تقدم لي شيئاً مما طلبته منك؟

- لقد أجبتك على أسئلتك!

- ليس كلها! كما أنني أريد منك أن تتحدث إلي، وليس أن تجيب على أسئلتني وحسب. أريدك أن تحدثني عن يومك كيف يمر وكيف تقضيه، وأن تسرد لي بعض المواقف التي تواجهك أثناء العمل، الصعبة منها بالتحديد. أنت أساساً لم تخبرني كيف ترى معاملة الزبائن لك، وهو سؤال أساسي الذي جئت من أجله إليك!

انتظرت منه جواباً فمضى يفكر، وقال بتردد:

- مممم، هي ليست جيدة، وليست سيئة.

- كيف!

- أقصد أنني أتعرض أحياناً لبعض المواقف السيئة، كأن يأمرني أحدهم بلهجته المنفرة، أو يوبخني لأنني لم أنته من إصلاح سيارته، وهكذا.

انتهى جوابه، كان قصيراً جداً لا يشبع نهمك. بقيت تنظر إليه مضيئاً عينيك، في رأسك ألف حيرة وسؤال. بللت شفطيك بتردد، قبل أن تسأله، بنبرة هادئة:

- خالد، هل تسمح لي أن أدرس حياتك الاجتماعية كلها؟

مضت نصف دقيقة، لم تسمع منه رداً، كان يعقد حاجبيه باستنكار، وكأنه لم يفهم ما تقصده.

- وإذا درستها، ماذا ستفعل؟

- سأساعدك.

قلت مستدركاً، وأنت ترفع سبابتك في الهواء:

- لا أقصد مساعدة مادية، بل مساعدة معنوية. يعني أن أقف بجوارك، أسدي إليك النصائح، وأوجهك إلى الحلول السليمة في كل شيء.

ارتفعت حاجباه كلها:

- لماذا تفعل هذا يا فيصل؟

- هذا عملي!!

نظر إليك بشك، وحاجباه معقودان.

- هل تعمل على مساعدة الناس جميعهم؟!!

سكنت لبرهة حتى توقفتما أمام إشارة حمراء، ثم التفتت إليه بكامل جسدك.

- اسمع يا خالد، أنا صحفي، وفي الوقت ذاته اعتدت أن أبحث في حقوق المستضعفين وقضاياهم، حيث تهمني مشكلات المجتمع وأسعى في إصلاحها بقدر ما أستطيع. أترى الأخصائي الاجتماعي أو (المرشد الطلابي) في مدرستكم؟ ماذا يفعل إذا رأى طالباً لديه مشكلة؟ ألا يسأله عن مشكلته وأسبابها ثم يساعده في حلها؟ أو يتواصل مع أحد أفراد أسرته إن كانت مشكلته مع الأسرة؟ أنا أفعل مثله تماماً، الفرق أنني أتعامل مع شريحة أكبر، وفي مكان أوسع.

- وكيف تساعد الناس على حل مشاكلهم؟

- مثلاً، حين أجد أسرة فقيرة في حي فقير، أو أقرأ عنها في مواقع التواصل الاجتماعي، أحرص على أن أتواصل معها وأزورها في البيت، ثم أحاول ربطها بمراكز خيرية تتكفل باحتياجاتها، أو أحاول تسجيل أفرادها في الضمان الاجتماعي. أكون أنا الوسيط بينهم وبين مراكز الإعانة، أدلهم عليها وأخبرهم ما إذا كان لديهم حق في الحصول على إعانة ما. أو مثلاً، حين أقرأ عن أسرة سُجن ربها ظلماً أو تورط بقضية شائكة، أحاول أن أجد لهم من بين معارفي محامياً متطوعاً، يساعدهم بلا مقابل.

هكذا كذبت، أغرقته بسيل من الإجابات التي ألفتها وكتبتها مسبقاً معتمداً على عقلك وحده، والتي لم تتحقق بعد من كونها منطقية.

جاءت ردة فعل خالد، هذه المرة، مختلفة. أطال النظر في عينيك بشكل لم تعهده مسبقاً، حتى شككت أنه أبصر الكذب فيهما. ابتلعت ريقاً وأنت تراه يحدق بك بعينين مشرعتين، مبهورتين كلياً. حتى قال مصدوماً:

- يا الله، أهذه وظيفتك حقاً!

قبل أن تنطق، صار يهز رأسه يميناً وشمالاً، وقال بتعجب:

- أنا لم أسمع مرة في حياتي بوجود أشخاص تقتصر وظيفتهم على مساعدة الناس، أو يسخرون أوقاتهم للقيام بهذا. أساساً، حتى مرشدنا الطلابي لا يفعل شيئاً واحداً مما قلته!

شعرت بحرارة مفاجئة، ولم تفهم بعد ما إذا كان يشك في صدقك أم لا. أردت أن تقنعه أكثر ولكنه سبقك وطرح سؤالاً صعباً:

- هل تتقاضى راتباً جيداً مقابل عملك هذا؟ وما اسم الجهة التي تعمل لديها؟

- آآآ هي ليست جهة، هي شيء.....

سحبت نفساً عميقاً:

- أقصد أن عملي لا يتبع جهة معينة.

- عمل حر؟

- شيء من هذا.

- وماذا عن الراتب!!

- أي راتب! لا يوجد راتب.

- أها لقد فهمت! أنت تقصد عملاً تطوعياً، صحيح؟

- صحيح!

ابتلعت ريقك ثلاث مرات حتى شعرت بجفافه. لم تتوقع من خالد أسئلة كهذه، شرعت تجهز في عقلك شيئاً تقنعه بهذا، وبينما كنت تفكر، قال خالد مبتسماً:

- ما شاء الله تبارك الله.

كان لا يزال مبهوراً. تنهدت، لم تخطط لكي تبدو أمامه بهذه الدرجة من التكلف.

- اسمعني يا خالد، أنا لا أريدك أن تتعجب مني بهذه الطريقة، لست بهذه المثالية، كل ما في الأمر أنني وحيد لست متزوجاً ولا أملك أخوة أو أخوات، وأخشى أن يقتلني الفراغ إذا ما بقيت هكذا بلا إنجاز. تستطيع أن تقول إن عملي هذا مجرد تمضية للوقت لا أكثر، اخترت الكتابة الصحفية لأنها عمل أستطيع ممارسته في المنزل، ثم قررت أن أخرج لأرى العالم وأسلي نفسي، فتطور عملي من مجرد كاتب صحفي إلى باحث يبحث في قضايا المجتمع ويكتب عنها، وفي الوقت نفسه يساعد من بوسعه مساعدته.

- أها، الآن فهمت.

- إذاً ما هو قرارك بشأن دراستي لحياتك؟

- بصراحة، لا أدري.

صار ينظر إلى قدميه في الأرض، سحب نفساً قصيراً، ثم عاد ينظر إليك مجدداً، قال:

- ما رأيك أن نصبح صديقين؟

- صديقين!

فتحت عينيك بدهشة. أن يطلب خالد منك الصداقة شخصياً، وبطريقة مباشرة جداً! هذا ما لم يخطر في بالك أبداً.

خمسة أيام فقط، كانت نتيجتها طلب صداقة جاء بسرعة خاطفة ومن غير مقدمات، ثم ما يبعث على التفاؤل ويوقد الإيجابية في عمق القلب.

نظر في وجهك وعلى شفثيه طيف ابتسامة. كان ينتظر منك موافقة تجعله يبتسم أكثر.

- لا أمانع، طبعاً يا خالد!

حينها، قطعت على نفسك عهداً ألا تهمل المجيء إلى هنا، لأن ثمّة إنساناً، صار بعد اليوم، يعتبرك أكثر من مجرد صحفي جاء ليكتب مقالة.

- لو تفكر قليلاً يا فيصل، ستلاحظ أن خالداً لم يعرض عليك الصداقة إلا بعدما عرضت عليه أن تدرس حياته الاجتماعية كلها، أي إنه استصعب طلبك هذا ولكنه لم يُحبذ الرفض فاختر الشيء الأدنى وهو أن تكون علاقتهما صداقة وحسب.

قال فهد مُحللاً، وهو يتكئ في ملحقه على وسادة حمراء ويجلس ناصباً إحدى رجليه. لم يعجبك كلامه، فعارضته بجديّة:

- نحن لا زلنا في البداية يا فهد، وبالتأكيد سيتردد كثيراً قبل قبول عرضي هذا. ولكن هذا لا يمنع أن يبوح لي بشيء من أسراره بعد أن تتوطد علاقتنا أكثر فأكثر.

ضحك ساخراً، ثم قال بهدوء:

- صدقني إنه لا يريدك أن تدرس حياته الاجتماعية ولا يريدك أن تعرف شيئاً من ماضيه، إن رفضه يتضح جلياً في موقفه معك.

قلت منفعلاً:

- وما الذي يجعلك واثقاً إلى هذه الدرجة؟

أشاح بوجهه يضحك، ثم قال:

- أوجه سؤالك لك. ما الذي يجعلك متفائلاً إلى هذه الدرجة؟ كما أنك تتماهى كثيراً في الكذب. كاتب صحفي ثم باحث ثم متطوع ثم ماذا؟ إلى أين سيبلغ سقف أكاذيبك؟ أجزم

أنك ستصل في النهاية إلى طريق مسدود، وسيكون الرجوع حينها مستحيلاً.
أطلقت تنهيدة. كان كلامه صحيحاً زحزح في داخلك ركناً ضعيفاً.
- أعرف يا فهد، سأحاول جاهداً أن أتوقف عن اختلاق المزيد. لكن رغم هذا، أعدك أنني
سأنجح.
- لا أظن.
رفعت حاجبيك:
- هل هذا تحدّي؟
سكت قليلاً، حتى ابتسم هو أيضاً، ثم صار يضحك. خاطبته بابتسامة:
- أفهم أن هذا قبول منك. وأنا متحمس جداً لخوض التحديات.
- حسناً، سنرى.
قالها، ثم ارتشف من كوب الشاي رشفة صغيرة، ثم أزاح عينيه عنك إلى الفراغ.

(4)

الأربعاء، 15 جمادى الأولى 1437هـ.

حدثت أشياء كثيرة في غضون سبعة أيام.
بمساعدة سعيد، استطعت أن تحصل على شقة في عمارة يمتلكها والدك قريبة إلى حد ما
من جنوب الرياض، ما سهل عليك أمر التنقل المستمر بين ملحق فهد وورشنة خالد في
الفيصلية.

لم يعرف سعيد أن برفقتك فتاة صغيرة ستشاركك السكن في الشقة نفسها. ذلك اليوم، حرصت أن تخفيها عن عينيه جيداً، ولم تسمح لها بالنزول من السيارة والدخول إلى الشقة، حتى اختفى سعيد داخل غرفته.

كل شيء تم على ما يُرام، واليوم، أصبحت أنت ولمى في شقة جديدة أكبر حجماً، شقة لا تحمل هم دفع إيجارها كل يوم.

زرت والدك في أحد الأيام الماضية وأخبرته أن لا شيء يستحق غضبه ولا دعواته، أقسمت له أنك لن تفضل السكن مع زوج أم غريب على السكن معه في أي حال من الأحوال، ورغم أنه لم يرض بقرارك، وعدته أن تزوره مثلما تزور والدتك وخرجت من بيته كأن شيئاً لم يحدث.

سوف تركز، من الآن فصاعداً، على هذه المهمة التي مُهد طريقها أمام عينيك. إنها الفعل الوحيد الذي يُبقي عقلك مشغولاً عن الفراغ الذي يخلق في القلب الوسوس والجنون، الذي ينبش في الذاكرة ويوقظ أحزاناً قديمة.

قضيت السبعة أيام الماضية - باستثناء يوم الجمعة - برفقة خالد. كنت تزوره كل مساء لتأخذه في رحلة تتخللها الأحاديث والنكت، والمواقف القصيرة التي تختلقها لإسعاده. لم تحاول أن تسأله خلالها عن أي شيء يخص عائلته أو ماضيه، قررت تأجيل هذه الأسئلة لاحقاً والتفرغ لإسعاده والاهتمام به.

بالغت، في تلك الأيام، في سكب اهتمامك وحنانك عليه. ورغم هذا الحنان الزائد إلا أنك حرصت على جعله يشعر وكأن هذه الطيبة فطرة فيك، وكأن هذه أخلاقك مع الجميع وليس معه وحسب.

اليوم، ستزوره مثل كل يوم، وستأخذه في جولة طويلة حول الأحياء، لتفسح له مجالاً أطول للحديث. هكذا حدثت نفسك، ثم ودعت لى استعداداً للرحيل.

في الثامنة والنصف، وصلت إلى الورشة، كانت رائحة الشارع حينها شيئاً لا يطاق. ربما كانت تنبعث من فتحة الصرف الصحي أو من القمامة القريبة، أو كانت مزيجاً بين الاثنين. تعكر مزاجك كثيراً وتمنيت لو تأخذ خالد سريعاً، إلى أبعد ما يكون عن هذا المكان.

دخلت إلى الورشة مغطياً أنفك بشماغك، ثم لمحت خالد من بعيد، جالساً على ركبتيه عند إطار لسيارة كبيرة، وحوله تتناثر مجموعة من المفاتيح الحديدية والمفكات. كان صدره قريباً من الإطار، ورأسه يكاد يلتصق به. لاحظت أنه لم يرتد معطفاً، بل اكتفى بقميص أسود رفع أكمامه إلى منتصف ذراعيه.

اقتربت إليه حتى وقفت بجواره مباشرة، ناديته بابتسامة، بطريقة نويت أن تفاجئه بها. التفت إليك بدهشة، وما إن التفتت حتى سارعت شفتاك بتلقائية إلى صنع شيء، ليس بابتسامة، كان شيئاً يفوقها جمالاً وشعوراً ويترجم أسمى معاني الصداقة والحب.

بهدوء صار يضحك، ويتساءل في الوقت نفسه عن سر قدرتك في التسلل والوقوف إلى جانبه خفية. ومن غير أن يتكلم، شعرت أن مجيئك إليه يمنحه سعادة لا تضاهى.

- أهلاً فيصل!

- ماذا تفعل الآن؟

وقف وقال بابتسامة، وهو يشير إلى إطار السيارة:

- أحاول فك الإطار، إحدى الصواميل عالقة فيه، سأضع الزيت وأحاول فكها.

- ألن نخرج اليوم إذاً؟

- لا أظن يا فيصل.

قالها، وهو ينظر إلى إطار السيارة بحزن. اعتراك شعوراً قاسٍ أصله مزيج من ألم ورحمة فائقة. ما أصعب أن يعيش شاب صغير مثل هذه الحياة، يجلس حتى أوقات متأخرة من ليالي الشتاء على أرض باردة ملصقاً رأسه بإطار سيارة، في حين، تُظهره صورته في الحياة الأخرى الموازية، جالساً في غرفته الدافئة يرتب أدواته المدرسية قبل النوم. تباً للأرض كيف التفتت، لتودي بخالد إلى هذه الحال.

سمعته يطلق تنهيدة متعبة، فسألته برأفة:

- أين الباكون ألا يساعدونك؟

رفع رأسه ونظر إلى ما حوله، فرأى المكان يعج بالفوضى. السيارات تصطف بتجاور، متسخة مفتوحة الغطاء، وأحشاؤها الداخلية مكشوفة. أمام كل سيارة يقف عامل هزيل جاف الجلد أشعث الشعر تحسبه خُلق من بؤس، تعبت يداه الجافتان بأجزائها المكشوفة. الرفوف المعلقة على جدران الورشة الصفراء الباهتة أمست خاوية، لأن كل علب الزيوت وبخاخات التشحيم منثورة على الأرض. لا وجود للمعدات المتطورة هنا، الكل يستخدم يده ما أمكن، والكل يبدو في قمة انشغاله، فوق ظهره زحام أعمال.

- الجميع لديهم ما يشغلهم.

- لا بأس يا خالد، أنا أزورك دائماً، سنخرج في زيارتي المقبلة إن شاء الله.

قلت مواسياً، بنبرة غاية في الحنان، جعلت خالد يبتسم. تفاجأت به يلقي ما في يده على الأرض، ليقول بسعادة:

- أتدري؟ دعنا نخرج الآن، وسأكمل العمل غداً.

نظرت إليه باستغراب وانفجرت ضاحكاً، لم تدرِ ماذا تقول. صار يترجلك رجاءً مُلحاً، حتى أمسك يدك بيده، فشعرت ببرودتها واقشعر جلدك.

- هيا يا فيصل، أساساً لم يتبقَّ شيء على نهاية الدوام.

تحوّلت آخر ضحكاتك إلى ابتسامة واسعة. لوهلة، سقطت عيناك على معصمه المكشوف، فرأيتته مكسواً بطبقة سوداء جافة، تعلوها طبقة بيضاء، وخطوط حمراء عرضية، محفورة في الجلد. كان الجلد فوق كفيه متقشراً أيضاً، حساسية حمراء، منظرها يثير القشعريرة والألم، ولم يكن لخالد، لمصلح سيارات ميكانيكي، أن يهتم لهذا.

رفعت عينيك إلى وجهه، ونظرت في عينيه مباشرة:

- يا عزيزي، أنت لا ترتدي معطفاً وأخشى أن تصيبك موجة باردة.

- لن أفتح نافذة السيارة إذاً، لكن أخرجني من هنا، لو سمحت.

كان يترجلك بابتسامة وصوت مستكين. فأشرت إليه:

- هيا إذن.

سبقك إلى السيارة ومشيت ورائه ضاحكاً. انطلقتما معاً في جولة حول الأحياء القريبة. صرت، ككل مرة، تحاول أن تدخل مع خالد في شتى المواضيع وتخلق معه حديثاً عن أي شيء.

أثناء تجولكما، فتح خالد موضوع الصحافة، وسألك سؤالاً لم تتوقع أن يسألك إياه أبداً.

- فيصل، هل الكتابة عن مشكلة ما ونشرها في صحيفة يفيد في حلها؟

- ليس دائماً يا خالد.

- ماذا لو اقترحت عليك مشكلة أود أن تكتب عنها، هل ستوافق؟

- وما هدفك من ذلك؟

- أريد فقط أن تلتفت أنظار المسؤولين إليها.

مسكين خالد، يحسب الأمر بهذه السهولة. ابتسمت له مجاملة، وسألته:

- وما هي المشكلة؟

التفت إليك، وقال بهدوء:

- ثمة مشكلة ألاحظها في هذا الحي. كثير من مستأجري الشقق والبيوت هنا يعانون من إهمال أصحاب العمارات في صيانة الشقق وإجراء التصليحات السنوية عليها، يأجرون الشقق والبيوت وهي غير صالحة للسكن، والمستأجرون يعانون كثيراً من هذه المشكلة.

- إن فليركوها لهم، لا بد أن هناك شققاً أفضل منها بكثير.

- لكن الأمر يا فيصل قد يأتي عرضياً، مثلاً يقوم المستأجرون بدفع المبلغ كاملاً لشهر كامل، ثم يتفاجؤون بعد فترة أن السقف يخر ماءً في الأيام الممطرة، ومهما طالبوا لا يرون من المؤجر أي مبادرة. أو مثلاً، تنقطع المياه فجأة ويجلسون أياماً بدونها. كم يستفزني بعض المؤجرين، ألا يتقي الله في المستأجرين؟! لقد وصل الأمر حدّاً لا يطاق يا فيصل، إنهم يتمادون لأن لا أحد يحاسبهم.

كان منفعلاً بكلامه، يحرك يده وكأنما يوبخ إنساناً خفياً. سألته بشك:

- فيما يبدو لي أنك، على وجه الخصوص، تعاني من هذه المشكلة، صحيح؟

أطلق تنهيدة:

- صحيح، أنا أسكن في بيت صغير مستأجر، وأنا والجيران سئمننا من الأوضاع هناك.

كنت على وشك أن تسأله، ما الذي يعاني منه تحديداً في بيته؟ ولكن، قررت أن تقتنص هذه الفرصة العظيمة، لتعرض عليه أمراً أهم.

- لماذا لا تدعني أزوره لأرى الوضع هناك؟

سألك بلهفة:

- هل ستكتب عن المشكلة؟

ابتسمت بحنية:

- أكتب لأجل من إذا لم أكتب من أجلك يا خالد؟ بإذن الله سأساعدك، ولكن يفضل أن أرى البيت.

قال بسرعة:

- بالتأكيد، فلتأت غداً إذا أردت.

فتحت عينيك بشدة، ولم تكذ تصدق ما يقوله. لم يكن استيعاب الأمر سهلاً عليك، أن تجلس أياماً طويلة، تبحث فيها عن خطة، ثم تجلس أياماً مثلها، تجهز فيها كلاماً وكلاماً، من أجل شيء واحد، تحقق اليوم بجملته قصيرة قيلت بسهولة. لا تدري أتفرح لأنك نلت بغيتك أم تحزن على لياليك التي أضعتها في التفكير؟

كانت مشاعرك متضاربة، وتبدو أبعد ما يكون عن الفرح.

سكنت لعدة دقائق، ثم تجرأت فجأة وسألته:

- وهل ستكون عائلتك موجودة في البيت؟

لم يخف عليك ارتباكك، لقد خاف فجأة. ابتلع ريقه، وأطرق رأسه حتى كاد أن يلصق ذقنه في صدره. انتظرت منه رداً ثم أعدت سؤالك عليه، لم تشأ أن تسمح له بالسكوت.

فجأة، أجاب، بلهجة هادئة وغريبة:

- هناك شيء لم أخبرك به، أنا أسكن وحيداً.

فتحت عينيك مصدوماً:

- لماذا! أين هي عائلتك؟

سحب نفساً عميقاً:

- اسمعني يا فيصل، ثمة كلام أود قوله لك. أنا أعرف أنك تجهل عني أشياء كثيرة ليس من المعقول أن يجهلها صديق عن صديقه. أنا أعرف أن في عقلك مئات الأسئلة، كلها تدور حول قصتي وحول الأسباب المجهولة التي دفعتني إلى السكن هنا والعمل في ورشة. والآن، لا شك أن الحيرة صارت أكبر لمعرفتك أنني أسكن وحيداً.

سكت قليلاً، كان التردد يشل لسانه عن الحديث.

- أنا آسف لأنني لن أخبرك عن هذه الأشياء، وأرجو منك أن لا تسألني عنها، لا تسألني عن عائلتي، ولا عن حياتي، ولا عن أي شيء يتعلق بالماضي. قد يكون هذا صعب بالنسبة لك، أن تصاحب وتجالس شخصاً لا تعرف عنه هذه الأشياء، ولكن لا تسألني عنها.

كان صوته رخيماً خفت تدريجياً حتى صار في جملته الأخيرة همساً خفيفاً. كان كلامه قصيراً ولكنه استطاع في لحظة، أن يبدد حلماً ويقطع أملاً طويلاً.

التفتت إلى الأمام فيما سمعت منه تنهيدة طويلة، فتجاهلت كل أحاسيسك ووطأت على قلبك لتهمس:

- كما تريد يا خالد، لن أسألك مجدداً.

مرت دقيقة صمت، قال بعدها خالد، وهو ينظر إلى يديه، في حضنه:

- عادةً، لا أحب أن يكون لي أصدقاء مقربون جداً، لهذا السبب. دائماً، إذا شعرت أن هناك شخصاً يحاول التقرب مني أسارع إلى وضع الحواجز والحدود لئلا أسمح له بتخطيها، ولكن أنت، أشعر أنك أعقل من غيرك. لم أجرب أن أصاحب شخصاً يكبرني بأعوام كثيرة، ويبدو أنني سأجرب هذا دائماً، إذا شعرت أن هذا الشخص يشبهك في تفهّمك ووعيك وحسن خلقك.

وصوب ناظريه إليك، قبل أن ينهي جملته الأخيرة، ثم سرعان ما أشاحها إلى الأمام.

كان لكلماته وقعٌ نفذ عميقاً جداً، إلى البقعة الأقصى من القلب. لم يكن هناك مجال للشك بكونها صادقة أم لا، لأنك استشفيت صدقها من نبرة صوته، ومن نظرة عينيه، ومن هدوء جسده.

تنفست الصعداء، وشعرت بمثل خيط من نور، يتسلل إلى داخلك رويداً. مضى الوقت سريعاً وأنت مشغول بالتفكير في كلامه، كان خالد يتحدث قليلاً ثم يصمت، يحدثك عن مواقف دراسية قديمة فتوميء له برأسك مجاملة، تقلب كلامه في رأسك وتبتسم فيحسبك منصتاً لأحاديثه ومعجباً بها.

ولكن، بعد دقائق، طلب منك أن تعيده إلى الورشة. يبدو أنه شعر أنك اليوم أهدأ من العادة. سأنته، وأنت تسلك طريق العودة:

- ألم تستمتع؟

- ليس كثيراً.

- لماذا؟

سألته بضحكة، فضحك هو الآخر، قال:

- ما هذا الهدوء الذي نزل عليك فجأة؟ لم أعهدك هكذا، أظن لو أنني جلست في الورشة وأنجزت عملي لكان أفضل.

سألته بعد ضحكة خافتة، بجدية:

- تهتم بأعمال الورشة كثيراً يا خالد، هل تهتم بدراستك أيضاً كاهتمامك بها؟

تقلصت ابتسامته شيئاً فشيئاً. قال:

- أحاول ذلك.

- أفهم أنك لا تفعل، صحيح؟

- لا لا أبداً، أقصد أنني أواجه صعوبة في تنظيم الوقت ما بين العمل وبين الاستذكار وحل الواجبات، ولكنني أحاول الضغط على نفسي.

- اسمعني جيداً.

سكنت لمدة حتى وقفتما أمام إشارة، ثم التفتت إليه بكامل جسدك. في لحظة، بدوت مثل أب ناصح يعتمر الحكمة فوق رأسه الأشيب.

- إذا كنت ستهتم بعملك على حساب دراستك فستعاني في مستقبلك مثلما تعاني الآن في حاضرك، وستعيش في أعوامك القادمة بذكريات مرة تعيسة. خالد، أنت صغير! لم تبلغ بعد سنك القانونية وهذه الوظيفة لا تناسبك، وحين أقول إنها كذلك لا أعني أنك أضعف منها ولكنني أقصد كونها تتطلب مجهوداً كبيراً لا يفترض أن تبذله وأنت في هذا العمر. الشيء الآخر، الورشة ليست مكاناً يناسبك، إنها مكان سيئ يجمعك بأشخاص غرباء لا تعرف أخلاقهم ولا أطباعهم، وقد يجدرك أحدهم، لصغر سنك، فريسة سهلة يسهل خداعها. لو تسمع نصيحتي يا خالد، إذا كنت لست محتاجاً بشدة إلى هذه الوظيفة فاتركها والتفتت إلى الدراسة، معها ستجد وظيفة أفضل بإذن الله.

صبت هذا الكلام في أذنيه مثل سائل دافئ أسكن حواسه، ظلت عيناه معلقة بعينيك ولسانه مشلولاً لا يدري ما الذي عليه أن يقوله. بعد ثوانٍ، نطق أخيراً:

- ممم، شكراً جزيلاً، أقدر منك اهتمامك هذا ولكن أرجوك لا تقلق علي، أنا مهتم بنفسي رغم الضغوط ومهتم بدراستي

قاطعته قبل أن يكمل حديثه وقد شعرت أنها لحظة مناسبة جداً لتحديثه عن معصمه.

- مهتم بنفسك!! أعطني يدك قليلاً، أعطني إياها!

وأمسكت يده من معصمها، ثم رفعتها، ولوحت بها أمام وجهه:

- يدك لو كان لها لسان لشكت وبكت كما لم يبك إنس من قبل. هذه الجروح والتقشرات الجلدية لا أظن أنها نتجت بسبب أعباء العمل، إنه جفاف البرد الذي صاحبه إهمال اجتماعا بقسوتيهما على هذا الجلد الرقيق. عن أي اهتمام تتكلم؟

تركت يده حين سمعت أبواق السيارات تتعالى فعرفت أن الإشارة أضاءت خضراء. اعتدلت في جلوسك، ثم واصلت بعد ثوان:

- أتدري يا خالد، أظن أنك مصاب بالاكئاب، هذا الهبوط النفسي الحاد الذي يقتل الاهتمام، ويميت شغف الإنسان تجاه كل شيء. أرجوك انتبه لنفسك، لا ترهقها، أسعدها بقدر ما تستطيع، إن الاكتئاب يا خالد، إذا سيطر على الإنسان، يمضغه مثل علكة.

التفتت إليه، لترى مقدار التأثير الذي صبه كلامك عليه، فرأيت الحزن يكسو وجهه وعينييه خائبتين. كانت هذه هي المرة الأولى التي تنصح بها خالد بصدق وإخلاص تامين، بمشاعر صادقة خالية من التمثيل الذي تمارسه لكسب حبه و صداقته.

ظل خالد صامتاً لبرهة، ثم قال بجفاء، وكأنه يذكرك بشيء يحسبك قد نسيتته:

- فيصل، أنا لم أشك إلك!

- إن كنت لا أساعد صديقي ولا أنصحه إلا حين يشكو إلي فهذا عار عظيم علي، وسأكون كاذباً حين أسمى نفسي صديقاً.

كم أخرج بعد ردك هذا، شعر أنه قال كلاماً من العيب أن يقال. ارتأى أن يشيح بوجهه إلى النافذة، وبقي على حالته البائسة تلك حتى وصلت إلى الورشة.

حين همّ بالنزول، التفتت إليه وخاطبته مبتسماً:

- اعذرني لو قسوت عليك. سأتيك غداً بعد صلاة العشاء لتدلني على بيتك، لا تنس موعدنا، في أمان الله.

ابتسم ابتسامة صغيرة، أوماً موافقاً، ثم نزل.

- هناك خبران يا فهد، الأول حزين، والثاني يفترض به أن يكون سعيداً. سأزور غداً شقة خالد والتي لا أدري كيف أصبحت فجأة بيتاً. الجميل أنه وافق سريعاً، ولكن لا أدري لم أنا خائف ولا أشعر بالفرح رغم انتظاري لهذه اللحظة بفارغ الصبر. الخبر الحزين أن خالد كما قلت، لا يريد أن يبوح بشيء ولا يريدني أن أسأله حتى.

هز فهد رأسه ضاحكاً:

- إذاً كان استنتاجي صحيحاً!

ألقيت عليه علبة السجائر بغضب:

- لا تضحك، قل لي الآن ماذا أفعل؟

اعتدل في جلوسه ليقول بجدية:

- اسأل نفسك، أنت تعرف كيف تجعله يبوح.

سكتت قليلاً وانخرطت في تفكير عميق.

- أتدري يا فهد، أظن أنني عرفت لم لا يريد خالد أن يبوح.

- لأنه يكره أن تنظر إليه بشفقة؟

- لا، ليس هذا هو السبب. إنه يعلم أنني أشفق عليه، نظراتي التي أقابله بها وهو يعمل في الورشة تختزل كل مشاعر الشفقة والأسى. ورغم هذا لا أراه كارهاً لها. بالإضافة إلى أنه طلب مني أن أساعده في مشكلة في بيته وهذا يعني أنه لا يتوانى في طلب المساعدة بشرط أن لا تكون مادية.

- إذاً ما هي مشكلته؟

- إنه لا يريدني أن أسأله عن أهله أو ماضيه لأن هذا الأمر بالذات يحزنه كثيراً، وقد يضطره إلى البكاء. إنه لا يريد أن يبكي أمام أحد، يخاف كل الخوف أن تُجرح كرامته وأن يُرى في لحظة ما في قمة هوانه. لم أعرف هذا الأمر إلا اليوم، حين سألته عن عائلته شعرت أنه على وشك البكاء وكان حزينا أكثر من أي لحظة مضت، يشيح بوجهه عني كلما شعر بالحزن. إن نفسه عزيزة جداً عليه، هذه النوعية من الناس، لا تحب البكاء أمام أحد، وحده البكاء يظهرها بصورة الذل والهوان.

- ولكن خالداً يُرى بصورة ذليلة كل يوم، فهو العامل الذي يرتدي ثياباً متسخة ويقضي ريع يومه بين إطارات السيارات. أي ذل وضعف أكبر من هذا؟

- لا يا فهد، هذا ليس ذلاً. أنا وإياك نسميه ذلاً لأننا اعتدنا على الترف ولا يمكننا أن نتقبل العمل في وظيفة كهذه. ولكن، في الحقيقة، العمل الحلال شرف ولا يمكن أن يدخل تحت مسمى الذل بتاتاً. من جانب آخر، ربما يحب خالد أن يظهر أمام الناس بمظهر القوي الصبور الذي يقهر كل الشدائد، الذي لا تهزمه صعوبات العمل ولا تكسره نظرات الازدراء. لا شك أنه يرى في هذا الأمر ما يعزز كرامته ويقويها في أعين الناس. ولكن البكاء؟ البكاء ليس إلا ضعفاً. إنه يوحي للناس أن خالداً القوي، الصبور، الشجاع، قد استسلم.

- عظيم! هذا استنتاج سليم جداً. وبما أنك تريد أن تغير في شخصية خالد بعض الأشياء قبل أن تعيد لمى إليه، لا بد أن يكون هذا الشيء من ضمنها.

نظرت إلى الأرض بتفكير، أطلقت تنهيدة متعبة:

- يجب أن أفكر، أحتاج إلى التفكير.

(5)

الخميس، 16 جمادى الأولى، 1437هـ

في التاسعة والنصف مساءً، يركب خالد سيارتك المركونة أمام الرصيف بهدوء، مخبئاً معصميه جيداً أسفل أكمامه.

يلقي السلام، ثم يشير بأصبعه إلى اليسار:

- هناك، من هذا الممر، انعطف يميناً، ثم يساراً، ثم امش قليلاً، ثم انعطف يميناً وستجد البيت في نهاية الممر.

تسأله، وأنت تخرج سيارتك من الموقف:

- هل تذهب إليه ماشياً؟

- أجل، إنه قريب.

- وماذا عن المدرسة؟

- أذهب إليها مع جاري، بسيارته.

- ممتاز، ممتاز جداً.

قلتها، ثم انعطفت يميناً، حتى دخلت إلى الحارة. كان الممر ضيقاً جداً، الليل يهبط على الأرض، على السيارات، على المنازل الصغيرة، مهيمناً على كل شيء. رفعت مستوى إضاءة السيارة قليلاً ثم مشيت بهدوء كأنما تعبر غابة ظلماء. الخوف والتردد يملآن قلبك، تقلب عينيك الجاحظتين في الأرجاء، ولا تسكن أبداً. سلكت منعطفاً آخر حتى دخلت ممراً جديداً، على جانبيه بيوت، تشبه بيوت الأشباح.

أبوابها صغيرة، ضيقة، أصاب الصدأ مفاصلها، وأمام كل باب، عتبة مكسورة. السطوح تتدلى منها أسلاك سوداء على الجدران، بدت مثل أفاع ملتوية. المكيفات القديمة، الصدئة، الناتئة من الجدران، تقطر ماءً ملحيًا. ثمة جدران مكسورة، وأخرى، أمست بشقوقها المتعرجة، الطولية والعرضية، كخريطة على ورق قديم.

النوافذ كان قد أصابها الصدأ أيضاً، بعضها مغطى بقماش، والآخر مخلوع ومكشوف، ولكن من سيتجرأ على النظر من خلالها، ليرى منظر الفقر، أسوأ ما يمكن أن تتفتح العيون عليه؟

وبينما كنت تتلمى في بشاعة المكان. ناداك خالد، ليسألك مستغرباً:

- ما بك تباطأت! هيا امش!

أطلقت تنهيدة:

- لا أستطيع يا خالد.

- لماذا؟

لم تلتفت إليه، من المستحيل قطعاً أن تخبره بالسبب. إنه من غير المعقول أن يكون الناشط الاجتماعي، الذي يزور الأسر الفقيرة، الذي يحفظ الأحياء الشعبية ويحصى مراكزها الخيرية، عاجزاً عن السير في هذا الممر لأنه يكره منظر الفقر والفقراء.

إنه من غير المعقول، أن لا يلاحظ خالد تناقضاً بين أقوالك ومشاعرك.

- لا، لا يوجد شيء.

سحبت نفساً، وتحركت بسرعة أكبر، ثم عدت تتباطأً، شيئاً فشيئاً. حين بلغت نهاية الممر، رأيت في الزاوية زمرة من المراهقين. سود، ذوي قصات غريبة جداً، يجلسون على دكة صغيرة أمام طاولة من خشب، مغطاة بسجادة صلاة حمراء، ويعرضون عليها سلعاً غريبة.

مفرقات، سكاكين مطوية، ولاعات سجائر، وأشياء أخرى لم تتمكن من تحديدها حين انتبه جميعهم إليك، ووقفوا بعيون شاخصة، ليسددوا إليك نظرات مخيفة وكأنها طلقات. شعرت بقلبك يهوي، والتفتت إلى خالد مفجوعاً. ولكن خالد الساكن بجوارك لم يُبال، لم يفكر حتى في تعديل جلسته المسترخية. أشار بيده بلا مبالاة، وهو يقول:

- لا تقلق، إنهم يفعلون هذا مع كل شخص غريب يأتي إلى الحارة، يخشون الغرباء ويقفون وقوفاً دفاعياً في وجه كل غريب. امش امش، لن يفعلوا لك شيئاً.

أطلقت تنهيدة طويلة، وتساءلت، لم صارت كل الأمنيات مخاوفاً؟ لم صار الشيء الوحيد الذي كنت تطمح للوصول إليه، الشيء الوحيد الذي تتمنى الآن الهروب منه؟

أن يعود بك الزمن إلى الوراء، قبل أن تعرف خالد، قبل أن ترحب بطلبه، قبل أن توافق على الكتابة، خير لك من السير هنا، في أخاديد الظلام والرعب هذه.

سلكت منعطفاً أخيراً، وهناك، في نهاية منحدر طويل، كان بيت خالد.

كان صغيراً، بُنيّاً فاتحاً، متقشر الدهان. بابه أخضر وصغير، ونوافذه مصممة على الطراز الشعبي القديم. عن يمين الباب، هناك عداد كهرباء مكسور، وأمام عتبه، بركة مياه تطفو عليها بعض القوارير والعلب الفارغة. هناك القليل من الشقوق في الجدران، القليل من المواسير الناتئة وبقع الصدأ، والكثير الكثير من الكتابات السوداء الوضيعة.

لم يكن شقة كما توقعت، لم يكن بيتاً. هذا المبنى ذو الجدران الأربعة القبيحة، والباب الضيق، والنوافذ البالغة الصغر، من المبالغة أن يسمى بيتاً، وإن كان خالد يسميه.

مرت دقيقتان، وأنت تحوّل بصرك في جدران البيت، كما تتأمل لوحة كئيبة. تعلم أنك تشاءمت، بما يكفي، ما إن رأيت شكل البيوت في الحارة السابقة. توقعت أن لا يختلف بيت خالد عنها كثيراً، وحين أمست توقعاتك حقيقة، أقسمت أن تتخذ التشاؤم نهجك، التشاؤم المفرط، الذي لا تتخلله نقطة تفاؤل.

حوّلت عينيك إلى الأمام، وبقيت متخشباً. لم ترد أن ينظر إليك خالد وأنت بتلك الحالة، حيث الكره يطفح من عينيك، وتعايبك مشمئزة، وشفقتك ملتويتان. إنك لم تر شيئاً حتى الآن، وكناشط اجتماعي، يفترض أن يكون هذا بالنسبة لك منظرأ معتاداً جداً.

- فيصل، هيا نزل.

قالها، ثم وضع يده السمراء، الهزيلة، الجافة، فوق ذراعك، كنوع من التشجيع. التفتت إليه، فابتسم، وغاصت عيناه.

- هيا، سأعرفك على جيراني، زملائي.

وأشار إلى المنزل. سألته، باستغراب:

- هل يسكن جيرانك معك في المنزل نفسه؟!!

هز رأسه بسرعة، وابتسم ابتسامة أعرض.

- كيف هذا؟

- انزل وسترى.

نزل هو أولاً، ثم تبعته بتردد حتى وقفتما أمام الباب. أخرج خالد مفتاحاً وأدخله في سم الباب، رجّفه برجله مرتين، حتى انفتح، ثم دخل وشرّعه قليلاً. كان عليك أن تنحني قليلاً حتى تدخل، لأن الباب أقصر بكثير مما يجب. حين تجاوزت العتبة المكسورة، استقبلك ممر قصير وضيق قليلاً، جدرانه بيضاء كئيبة، وهناك سجادة بلاستيكية بنية، تغطي البلاط. يحتوي الممر على غرفتين من الجانبين، كانتا مغلقتين. وينتهي بباب خشبي مزدوج. قبل أن تتحركا خطوة، التفت إليك خالد، ليقول:

- فيصل، أريدك أن تلتقط صوراً للبيت، لتضيفها إلى التقرير الذي ستكتبه.

أومات بهدوء، ولم تكن لتتكلم أبداً. دخلت وراءه، عبر الباب الخشبي، فأقبلت على صالة مستطيلة، تتوسطها قطعة مربعة من السجاد البلاستيكي ذاته، أما باقي البلاط فكان مكشوفاً. كانت هناك ثلاث مساند مستطيلة فوق السجاد، مخصصة للجلوس عليها مقابل التلفاز، الذي كان يتربع فوق طاولة خشبية ملتصقة بالجدار. كانت الصالة متصلة بعدة غرف، في الجدار المقابل للمدخل، ثلاثة أبواب، اثنان في كل زاوية وواحد بينهما. والجدار الأيسر يحوي بابين في الوسط، أما الجدار الأيمن خلف التلفاز فكان خالياً.

لاحظ خالد أنك غُمرت بحالة من التأمل والخشوع ما إن دخلت، فبقي ينظر إليك بغرابة من غير أن يتكلم. قضيت دقائق طويلة تتفحص فيها جدران الصالة البيضاء وبلاطها التقليدي المصفر بلون الزيت، الذي يشبه بلاط الأفنية الخارجية في البيوت القديمة. قادتك قدماك بلا شعور، لتقف بجوار التلفاز ذي المؤخرة البارزة. كان جهاز الاستقبال الفضائي موضوعاً فوقه وهو مخلوع الغطاء، تبدو أسلاكه وأحشاؤه الداخلية مكشوفة. قال خالد، قبل أن تسأله عن السبب:

- إننا نجري عليه الكثير من التصليحات بسبب تعطله المستمر، حتى لم نعد نعيد إليه غطاءه.

أجبتة بإيماءة سريعة فيما كانت شفتاك مطبقتين وملامحك خالية من أي تعبير. عدت تتأمل الجدار خلف التلفاز ولاحظت أن هناك نافذة مرتفعة بعض الشيء، على حوافها ذباب ميت، وأطرافها محاطة بشريط لاصق لئلا يدخل الغبار والمطر. ينفذ منها سلك أسود مثبت على الجدار بقطع من شريط لاصق، وينتهي موصولاً بجهاز الاستقبال. هناك أيضاً زراديات ومفكات وقطع خردوات كانت مرمية بجانب طاولة التلفاز. الكثير من الأشياء المتناقضة كان يضمها هذا المكان، حتى المساند الطويلة التي خصصت للجلوس كانت تملؤها أكياس فارغة وبعض المنشورات الدعائية. لقد كان هذا المكان صالة للجلوس وغرفة للطعام، وورشة للتصليح ومكب للنفايات في آن معاً.

استطعت، خلال هذا التأمل الدقيق، أن تحصي كم بلاطة مكسورة، وكم بقعة في الجدار تقشر عنها الدهان رغم أنها لم تكن قليلة أبداً. كان تأملاً مريباً، أجرتة عينان كسيرتان وعقل مشؤوم، وقلب مهموم.

- أرايت؟

سألك خالد، فرفعت رأسك إليه صامتاً. رأيته يمشي نحو الجدار الواقع خلف التلفاز ويمرر يده على بقعة باهتة منه، وحين مد كفه إليك، رأيت على باطنه طبقة بيضاء، كأنه مرغ كفه في طحين. قال:

- أرايت؟ داخل الجدار هناك ماء، يتسرب من السطح إلى داخل الجدران. انظر إلى السقف، هناك بقع رمادية في كل مكان جراء الدهان الذي تقشر، وأخرى سوداء بسبب العفن الذي أصاب السقف، وأخرى بنيّة لا أدري على وجه التحديد كيف نتجت، ولكنه حتماً الإهمال الذي سببه غياب الذمة وموت الضمير. لم يكن السقف هكذا حينما جئت إلى هنا أول مرة، ولكن بسبب هطول الأمطار الغزيرة في الأيام الأخيرة صار الماء يتغلغل فيزوّب الدهان ويخرّ من الفتحات ويرسم على الجدران خطوطاً طويلة. في المطبخ هناك أيضاً مكان في السقف يقطر منه الماء بغزارة ونضطر لأن نضع سطلاً تحته ونفرّغه كل يوم. فيصل أرجوك اكتب، إن الوضع صعب جداً، والكتابة، هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنا من إيصال أصواتنا إلى العالم، عل أحداً يسمعها.

كان يخاطبك بجدية، وأنت غارق في هواجسك، تتملّى في عينيه وعقلك غائب في مكان بعيد.

نظرت لوهلة إلى السقف، إلى ما كان يشير إليه خالد، المساحة المرقعة بالبقع المقرفة والألوان. تساءلت مستغرباً:

- ثمة شيء غريب يا خالد، لماذا يبدو السقف عالياً هكذا؟ ألا يوجد طابق ثانٍ؟

وقبل أن يجيب، سمعنا صوت باب يُفتح، فتوجهت عيننا نحو إحدى الأبواب المغلقة. خرج رجل غريب، حنطي البشرة، يلف إزاراً أزرق على نصفه السفلي ويرتدي فانيلا داخلية، ويغطي كتفيه بوشاح عريض. كان كثيف الذقن وله حاجبان عريضان بدأ يقطبهما باستنكار حين رآك واقفاً مع خالد. رفع سبابته مشيراً إليك، سأل خالد، بلكنة ليست غريبة:

- من هذا؟

- هذا صديقي.

قال خالد، وألصق سبابته ببعضهما، موضحاً للرجل. أوماً الرجل، ثم راح يخطو ساحباً قدميه بنعلين كبيرتين جداً إلى الغرفة الأخرى. ما إن دخل، حتى التفتت على خالد مشرعاً عينيك، تسأله بدهشة:

- من هذا؟!!!

- هذا ضمير، اسمه ضمير. جاري الباكستاني الذي يقيم في الغرفة المجاورة لغرفتي.

حين رأى علامات الدهشة على وجهك، قال موضحاً:

- فيصل، هذا البيت يسكنه خمسة أشخاص، أنا وعلي وعبد الرحمن وضمير، ورجل هندي اسمه نوري. لكل شخص غرفة، ويوجد حمامين مشتركين ومطبخ واحد. وهذه الصالة هي مكاننا المشترك، نجتمع فيه جميعاً لتناول ونشاهد التلفاز.

هكذا أجاب، كان كلامه متزنًا، هادئًا فوق المعتاد، مغموراً بسكينة عجيبة. مكث ينظر إلى وجهك المشدوه، ثم بلل شفتيه، وراح ينظر إلى الأرض:

- أعلم أنني صدمتك بهذا الأمر ولا بد أنك تتساءل الآن عن السبب، عن المعاناة التي صيرتني إلى هذه الحال. ولكن لا تقلق، لن أطيل المكوث هنا، ما هي إلا خمسة أشهر وسأنتقل إلى مكان آخر. كما أن الوضع ليس سيئاً تماماً، أقصد بالنسبة للجيران. علي وعبد الرحمن رجلان طيبان يا فيصل، حتى ضمير لم يؤذني يوماً. وأنا أساساً لا أجلس في الصالة كثيراً، أقضي معظم وقتي في غرفتي، أستذكر دروسي حتى يغلبني النوم.

رفع عينيه وابتسم ابتسامة صغيرة، لاحظت أن عينيه تلمعان ولأول مرة ترى فيهما بريقاً واضحاً، همس:

- وأريد أن أعرفك على علي، لا بد أنه سيأتي الآن، لن يتأخر بإذن الله.

لم تتكلم هذه المرة أيضاً، كانت الصدمة أكبر من أن تُترجم إلى كلام. سحب خالد نفساً، جلس متربعا على إحدى المساند الطويلة على الأرض، وأشار إليك بالجلوس. كانت المسندة قديمة خرج الإسفنج من قماشها الممزق، ورغم هذا، كان خالد يدعوك إلى الجلوس عليها وكأنه آمن أن التواضع هي السمة الأولى لكل النشطاء الاجتماعيين، فكيف لناشط مثلك، اعتاد أن يزور بيوت الفقراء مصغياً لشكواهم مواسياً لأرواحهم؟

ظلت واقفاً وقفة مائلة بعدما أبديت الرفض بابتسامة مغتصبة وصرت تتأمل الأبواب الخشبية المقابلة بسرحان. ثمة شيء مشترك بين كل الأشياء في البيت، أن كلها لا تخلو من خدش أو بقعة أو شق أو علامات مميزة أياً كانت. كانت الأبواب متآكلة من الأسفل، وعلى إطاراتها تشكلت شقوق وحفر تشبه تلك التي تصنعها الأرضة. مرت لحظة من الصمت، ولحظات من السكينة والحزن. استنكر خالد وقوفك هذا والحالة التي صرت عليها ولكنه لم يتكلم، كان يظن أنها وقفة صحفي يحاول أن يتملى في كل الأرجاء ليحوّل المشاهد إلى نص.

- ألن تلتقط صوراً يا فيصل؟

- لا، لا داعي لهذا.

- هل تنوب الكلمات عن الصور؟

- أحياناً.

لم يفهم ما يدور في رأسك، مرت دقائق من الصمت، خالد ينظر إليك وأنت على وقوفك نفسه، تتأمل بسرحة.

في هذه الأثناء، فُتح باب المنزل فدخل رجلان، أغلقا الباب بقوة فالتفتت لتراهما يتجهان مباشرة نحو الصالة. رجلان يرتديان ثياباً بيضاء، يصعب تحديد عمريهما، ولكنهما لا يبدوان في العمر نفسه. أحدهما طويل والآخر قصير، أحدهما فاتح البشرة والآخر أسمر. وحينما دقت في تلك الملامح الهادئة، التي تشكل سحنة معروفة، تنبض فيها دماء مألوفة، تبدل لون وجهك، واحتقن في جبينك وريد الكره، وشعرت أن الأمور قد بلغت حدّاً لا يطاق. كان موقفاً فريداً من نوعه فقدت فيه السيطرة على انفعالاتك، ولم تعد قادراً على التصنع.

ظلت عيناك مفتوحتين، ووجهك الذي تبدل لونه أصبح ملفتاً جداً للنظر. كان الرجلان ينظران إليك بغرابة وأنت تحديق في وجهيهما مثل ناظم حقود. وفي هذه الأثناء، وقف خالد، ليقف قريباً من الرجلين، ويقول مبتسماً:

- علي، عبد الرحمن، هذا هو الصحفي الذي أخبرتكما عنه، سيكتب تقريراً عن البيت لينشره في الصحيفة.

وقبل أن يلتفت خالد وراءه، في ثانية سريعة، اندفعت بقوة مخترقاً الأجساد الثلاثة لتخرج من البيت، وتختفي في مشهد خاطف. تركت الباب خلفك موارباً، ألقيت بجسدك على مقعد السيارة ثم أغلقت بابها بعنف وأطلقت زفيراً ساخناً.

لا بد أن ما حدث كان حلماً، تباً، كيف تجري الأمور على هذا النحو؟ ولماذا صار الوضع هكذا، بعيداً عن التوقع خارجاً عن المؤلف؟

هناك أشياء منطقية، تُعرف أسبابها، لذا يُمكن التوصل إليها. وهناك أشياء عصية، لا تُفسر أبداً.

لماذا يجبر خالد نفسه على هذه الحياة؟ ما الذي وجدته فيها كي يهرب إليها من حياته التعيسة مع زوجة أبيه؟ تباً له، تباً له كيف يفكر. أهرب من حياة تعيسة إلى حياة أتعس؟ إنه يمثل الرضا، يتصنع الارتياح، يرسم على شفثيه ابتسامة مغصوبة بينما عيناه تبتكيان. كيف يجبر الإنسان نفسه على الانتقال من بيت أبيه، من موطنه الدافئ الذي وُلد فيه، إلى زريبة يعيش فيها غريباً، من غير أن يشعر بالاكنتاب؟

لا شك أن الاكنتاب قد امتص من روحه وحيويته ما يكفي، ثم لفظه كائناً مكسوراً يدعي السعادة والاكنتاب بينما وجهه، مرآته التي تعكس ما في داخله، تبدو أبعد ما يكون عنهما.

ولمى، ماذا عن لمى؟ ما نوع الحياة التي ستعيشها إن ذهبت مع هذا الولد؟

ستعود إليه، وقد استنعم جلدها كثيراً في الفترة الأخيرة، بينما سيعود هو بجلد أخشن من قبل بعد أن خاض تجربة صعبة، وسيقابلها بوجه جديد وطباع مختلفة.

ستبكي لأنه لم يعد بشوشاً كما كان، ونور وجهه قد انطفأ، والغمازة في خده غدت جرحاً غائراً، محفوراً في عظم وجنته، التي اختفى لحمها.

انتبهت على صوت خالد يناديك، رأيته يخرج من الباب ويمشي بخطى سريعة. توجه نحو الباب الأيمن وطرق النافذة، تطفو على وجهه كل علامات التعجب والاستغراب.

- ما بك؟ لم خرجت بهذه العجلة؟

- تذكرت أن لدي عملاً مهماً نسيتته، سأذهب الآن يا خالد، أنا مستعجل.

- وماذا عن الكتابة؟

- دعها في وقت آخر.

جلس يفكر قليلاً، ثم وضع يديه على حافة النافذة وابتسم.

- غداً يوم الجمعة، وأنا لن أذهب إلى الورشة. لم لا تأتي غداً لنجلس معاً في غرفتي ونكتب التقرير سوياً؟ أريد أن أشاركك الكتابة إذا سمحت، كما أنني أتمنى أن أراك وأنت تكتب. ما رأيك؟ أم أن لك طقوساً معينة أثناء الكتابة؟

غاصت عيناه، بعد سؤاله الأخير، مع ابتسامة عريضة صنعتها شفتاه المتشققتان. تنهدت، وشعرت في لحظة، أنك أوقعت نفسك في شباك لا فكاك منها.

- حسناً، سأفكر في الأمر، إلى اللقاء.

همست، وأنت تدير مفتاح السيارة. غادرت المكان كارهاً نفسك، حزيناً، ناقماً على كل شيء.

- فهد، لا أكاد أصدق ما يجري. لقد فاجأتني الحقائق اليوم تباعاً مثل صفعات متكررة. بدايةً حين دخلنا إلى الحارة، ذلك الدهليز الضيق الأسود الذي يسكنه الفقراء ويستوطن السود زواياه الظلماء. ثم حين وصلنا إلى البيت، وتفاجأت بالبواب الأخضر الحديدي، والجدران المتهالكة، والمياه الراكدة على الأرض، المليئة بالطين والعلب الفارغة والنفايات. أتعرف ماذا اكتشفت حين دخلت البيت؟ إنه يسكن في سكنٍ للعمال، بيت ضيق كئيب يشبه حاوية القمامة له جدران رطبة كئيبة وأرض مقرفة. يتقاسم مع رجل هندي وآخر باكستاني وشابين يمنيين مطبخاً واحداً وحمامين فقط. ما هذه الحال التي وصل إليها! يا الله، أكاد لا أصدق إلى أين وصل حاله.

رفعت عينيك إليه، فوجدته ينظر إليك بعينين شاخصتين، ووجه اختزل كل الدهشة.

بعد تنهيدة أطلقتها، واصلت الكلام:

- كل هذه الأمور في كفة، وكونه يحب جيرانه في كفه أخرى. كيف يحب خالد العيش مع هذه الأشكال؟

سألك فهد، بعد صمت دام لدقيقة:

- ألم تتوقع هذا؟

- لن أكذب عليك، لقد توقعت أن يكون بيته متواضعاً جداً، بل فقيراً. لكن، أن يسكن مع عمالة أجنب، وهو سعودي، هذا ما لم يخطر في بالي أبداً. لقد حاولت أن أتوقع الأسوأ دائماً، ولكني، مهما كنت متشائماً لا يمكن أن أحصي كل شيء، لأن نظرتي للألم والبؤس قاصرة ومحدودة جداً. كيف أتكيف أنا مع هذه الصدمات؟!

- قلت لك، من البداية، هذه المهمة صعبة، لا تحاول.

ثم بدأ يضحك بهدوء، ساخراً عليك. غمرك الشعور باليأس والإحباط، وشعرت أن بينك وبين الاستسلام، شعرة رقيقة. سحبت نفسك، ثم قلت بنبرة جادة:

- سأذهب غداً، وسأطلب من خالد أن يخرج من ذلك البيت. سأغريه بكل الوسائل حتي يخرج. لن أدعه يبقى هناك، هل يمكن أن ينزل السعودي إلى مقام الأجنبي، ليسكننا معاً في المكان نفسه، في زريبة النفايات تلك؟ لن أسمح لهذا أن يحدث.

- لا أظن يا فيصل أنه سيخرج، لا شك أنه تكيف بسرعة مع الأوضاع هناك. هل تعتقد أنه في وضعك نفسه، جاء من الشمال، من مناطق فاخرة، من أحياء لا يمكن أن يرى فيها رصيفاً مكسوراً أو قمامة على الأرض أو عمارة توشك على السقوط أو حشوداً من العمالة

السائبة؟ لقد جاء من غبيراء، حي لا يبعد كثيراً عن الفيصلية، لذا فلا أعتقد أن الوضع قد اختلف كثيراً عليه.

- وبما أنه كان يعيش في أوضاع مشابهة إذاً لماذا يهرب من تلك الحال السيئة إلى حال أسوأ؟ إنه يظلم نفسه كثيراً يا فهد، يهرب من بيته ويُجبر نفسه على حياة قاسية لا طائل وراءها ولا هدف. ما الذي أجبره على السكن هناك من أجل وظيفة راتبها لا يُسمن ولا يُغني من جوع؟ هل ضيّع ماله الذي ورثه من أبيه؟ آه، كم أتمنى أن أفتح رأس هذا الولد، لأرى كيف يفكر.

- مشكلتك يا فيصل أنك مزهو بنفسك، تعتقد أن بيدك فعل كل شيء وأن كل الأمور سهلة عليك، هيا فكر كيف تحلها. وإلا، خذ بنصيحتي، وتوقف.

خرجت إلى سيارتك وأنت تفكر بكلمة فهد الأخيرة ورأسك مُثقل بالهموم. من السهل أن يقول فهد تلك الكلمة لأنه لم يجرب يوماً أن يكون مثلك، أن يكون هناك كائن صغير ينتظره في البيت، يستقبله بالنظرات الباكية، والدموع التي تذيب قلبه.

وصلت إلى الشقة، وناديت لى فور أن أغلقت الباب. سمعت صوت باب غرفتها يُفتح، ثم جاءت تمشي على مهل، ووقفت على بُعد متر، رافعة رأسها، وعيناها مصوّبة إلى عينيك.

كان شعرها مسترسلاً على كتفيها، غير أنها هذه المرة رفعت خصلاته الأمامية كلها، فأنكشف جبينها الأبيض الصافي. جلست متقرصاً أمامها، ملقياً ذراعيك على ركبتيك، ثم، يوم تذكرت خالد، وبيت الفيصلية، وزمرة المراهقين السود، ووجه ضمير، وعلي، وعبد الرحمن ... شعرت بالدموع تلسع عينيك.

- لى، هل قلت لك مرةً إنني قوي وجامد القلب ومسترخي البال؟

لم تجد جواباً، فواصلت الحديث، مغموماً:

- انسي ذاك الكلام فقد قلته في لحظة سعادة، وصدقي ما سأقوله الآن فإنني أقوله في لحظة وجع، حيث عرفت نفسي، أخيراً. أنا يا لى ضعيف، ضعيف وجبان جداً. لا أتحمل رؤية الظلام لأن عيني أدمنت النور، ولا أطيق رؤية الفقر لأن منظر النوافذ الصدئة

والأبواب المتهالكة سريعاً ما يُصيبني بالاكْتئاب. يضيق صدري لأدنى الأمور، وتبدو بعض السلبيات البسيطة عظيمة جداً على قلبي.

قطبت لمي حاجبيها، وشعرت أنك في هذه اللحظة إنسان آخر. هذا المنظر الذي تبدو فيه متقرفصاً أمام الباب وعيناك محمرتان، كان جديداً عليها. وكعادتها، لم تنطق بكلمة. أطرقت رأسك، ثم خيم الصمت. وبعد نصف دقيقة، نطقت:

- لقد زرت بيت خالد اليوم، وجلست فيه مدة قصيرة.

رفعت رأسك، وحين لمحت الدهشة في عينيها المفتوحتين، أمسكت بيدها، ثم جذبتها بقوة إليك، وسمعت شهقتها تُكتم سريعاً، حين غاب وجهها في صدرك.

طوّقتها بساعديك المفتولين، طوّقتها بشدة، ثم دفنت وجهك كله في كتفها. شعرت بجسدها يتصلب أثر الصدمة، ولم تشأ أن تفتح ذراعيك، لم تشأ أن تتركها أبداً.

كم مرة بكت فيها لمي ووجدت يداً تمسّد ذراعها، وأخرى تمسح على خصلاتها؟ أيرهقها أن تأتيها اليوم مكلوماً، لتجعل كتفها وسادتك؟

التصق صدرك بصدرها، في لحظة عناق أبدي، يذوب لها الكون كله. ثم بدأ صياحها يعلو، وشعرت بجسدها الضئيل يحاول التملص منك، كأنه شعرة وسط قبضة يد.

أغمضت عينيك، وصار صياحها الذي يحوم حول أذنيك كأنه طنين ذبابة. صارت تشد ثوبك من الخلف، وتناديك، وأنت كالغارق في غيبوبة، سُكرت بسكون اللحظة، وأقسمت أن تظفر بكل ثوانيتها.

شبيئاً فشيئاً، اغرورقت عيناك، وصرت على حافة الغرق، وأوشك البكاء أن يبتلعك، قبل أن تغرس لمي أظفارها في رقبتك، وينقلب الحال تماماً.

شهقت من فرط الألم، وفتحت ذراعيك سريعاً، فطارت لمي من يديك كأنها حمامة.

اختفت بلمحة بصر، ثم سمعت باب غرفتها، يُخبط بأقصى قوة. بدأت تتنفس سريعاً وأنت تتحسس جرح رقبتك بأطراف أصابعك. هذا الجرح الذي انفتح فجأة أعادك بلمحة إلى العالم، حول ألمك النفسي إلى ألم جسدي، وتلك الشهقة العظيمة التي شهقتها متألماً، جذبتك من حافة البكاء كأنها خيط خفي.

سحبت نفساً طويلاً، وشعرت أنها أسدت إليك معروفاً، جعلك تنشغل بألم جرحك الجديد وحرقة الطفيفة، وتنسى كل شيء.

انسحبت سريعاً إلى غرفتك، شعرت بالندم أن أجبرتها على عناق تكرهه، واستلقيت على سريرك تفكر بما حدث وما سيحدث.

لم يكن في هذا النهار ما يُميزه، سوى سؤال لِمى الذي فاجأك به في منتصف الظهيرة.

كنت تأكل غداءك في الصالة، تُقلب الطعام في الملعقة بهدوء، وتأكل لقيمات صغيرة ثم تعود للسرطان. جاءت لِمى من الغرفة وجلست في الأريكة المقابلة، لم تنتبه لها إلا حين رفعت رأسك فجأة، فرأيتها خاشعة في جلوسها، دافنة كفيها بين فخذيها. كان وجهها مصفراً، ويوحى، من عينيها، أن ثمة كلاماً تود قوله لك.

لم يطل صمتها كثيراً، سألتك، وأخذت عيناها تلمعان، شيئاً فشيئاً:

- هل ذهبت حقاً إلى بيت خالد؟

أومأت لها، فسألتك مجدداً، وطفأ على شفثيها شبح ابتسامة:

- وكيف يبدو بيته؟ هل هو كبير؟

تركت الملعقة، اسودّ وجهك، وبدأت عينك تتجهان أعلى اليسار، في محاولة لتأليف إجابة.

- آآ، يعني، لا هو ليس كبيراً جداً.

- وهل كان جميلاً؟

ابتلعت ريقاً يسيراً، أومأت لها مبتسماً ابتسامة جافة وصفراء ثم أطرقت رأسك بسرعة خاطفة إلى الصحن، وحشوت فمك بلقمة كبيرة جداً، متمنياً أن تقدر لِمى انشغالك بالأكل فتكف عن هذه الأسئلة المُوَجَّعة. ولكنها، بعد سكوت دام عدة ثوانٍ، سألتك سؤالاً أخيراً:

- هل يسعني، لو جئت لأسكن معه ... هناك؟

توقفت عن المضغ حين شعرت بغصة في وسط البلعوم، ابتلعتها سريعاً فشعرت ببلعومك يتمزق، وكدت أن تبكي من فرط الألم.

أي أمل يسكن قلب هذه الصغيرة وأي إيمان؟ ملأت صدرك هواءً، ثم أشحت بعينيك إلى الفضاء، وتراءت إليك صورة الزقاق الضيق المظلم والمنحدر الذي ينتهي إلى البيت، وبركة المجاري الطافحة، والباب الأخضر القصير، والصالة، وسجادة البلاستيك، وهياة ضمير التي خرج بها، وعلي، وعبد الرحمن، وكل شيء.

أيمكن أن تسكن لى هناك، وحيدة بين الرجال؟ أعوذ بالله، أعوذ بالله، رددتها في صدرك عشر مرات. أطلقت زفيراً طويلاً، ثم نظرت إلى عينيها وهمست، بأدفاً صوت يمكن أن تسمعه أذناها:

- لى، أنسيت بيت أبىك؟ ستعودين إليه مع خالد عما قريب، وستعيشان مطمئنين.

- وزوجة أبى؟

سألتك بحزن، فأجبت:

- لن تستطيع فعل شيء ما دام خالد معك، ألسن تقولين إنها لا تجرؤ على خالد؟

سكتت وأطرقت عينيها إلى الأرض، فأحسست أن كلامك لم يُعجبها. لم يكن مزاجك بعد الليلة الماضية متفرغاً لها ولا للطعام، فتركت كل شيء وذهبت إلى غرفتك، وبقيت فيها حتى حلول الليل.

(6)

فى المدخل الضيق المظلم بين ورشتين، تدخل سيارتك بهدوء، يشق نورها الساطع عباب الظلام. تمشي هادئاً بحذر، تجنباً لأي احتكاك قد يحدث بين طرف سيارتك وطرف أخرى. كانت السيارات المركونة على جانبي الطريق قديمة، مغطاة بالتراب وأثار المطر، بعضها مخلووعة الإطارات، كأنها خرده صدئة. حين تجاوزت الممر الأول، بصعوبة، أقبلت على زمرة المراهقين السود فى نفس مكانهم، زاوية الحارة، المكان الأشد ظلمة.

حين رأوا ضوء سيارتك، وقفوا كما وقفوا أول مرة، وخيلت لك أعينهم وكأنها تشع فى الظلام. أشحت بعينيك بعيداً ثم استعدت بقلب يرتجف.

لمحت أحدهم يقترب منك، كان كبيرهم، حليق الرأس، كبير العينين، يرتدي قميصاً أحمر وتتدلى من عنقه ثلاث سلاسل سوداء. اقترب كثيراً، وحين نظر في عينيك، ملياً، شعرت أن الموت من حولك قد بدأ يحوم. بدأ يحدق في عينيك ووجهك وسيارتك، وحين لم يجد شيئاً يدعو إلى الريبة، كتف يديه، وأشار برأسه إلى الأمام سامحاً لك بالعبور، مثلما يفعل الشرطي في نقطة التفتيش.

ابتلعت ريقاً يسيراً يرطب جفاف حلقك، وتساءلت، فيما إذا كان عليك الوقوف بهذه الطريقة في كل مرة، ريثما ينتهي هذا الشاب من تحديقه. سلكت المنعطف الأخير، ثم انحدرت هبوطاً نحو بيت خالد.

ركنت سيارتك في مكانها أمام الباب، ثم طرقته بمفتاح سيارتك وأنت ترجو أن يخرج إليك خالد دون أن يجبرك على الدخول.

كان الباب يقبع بين عمودين مستطيلين بارزين من الجدار، لهما لون الجدار نفسه، غير أن الكتابات السوداء والبقع البنية والرمادية بتدرجاتها جعلت لهما ألف لون. يتصل بهما من الأعلى مستطيل حجري يعمل كمظلة للباب، مثبتة به نجفة طويلة بيضاء عديمة الفائدة. تساءلت، وأنت تتأمل بنفور، لماذا صار الباب قصيراً في حين أن سقف البيت عالٍ جداً؟

طرقت الباب بقوة أكبر ثم سمعت صوتاً قريباً منك، أو ربما مجموعة أصوات. التفتت عن يمينك فرأيت ثلاثة رجال يمشون، جاؤوا مقبلين من الممر الذي يقع بعد بيت خالد. كانوا مميزين بزبهم الموحد، البنجابي الأبيض الواسع والطاقيّة البيضاء، فيما تميّز واحداً منهم لحية طويلة. كانوا يمشون بهدوء، يتبادلون أحاديثهم بأريحية، حتى انتبهوا إلى وجودك فتوقفوا فجأة، وغلفت الصدمة وجوههم، وجحظت أعينهم على نحوٍ غريب.

سكنت أحاديثهم فجأة، بدؤوا يتهايمسون، يشيرون بأعينهم إليك في خوف وترقب، ونظراتهم يملؤها الشك. لم تدر ما الذي أصابهم، فجأة، ضرب أوسطهم على أكتاف صديقيه بخفة، يحثهما على الهروب، ثم راحوا يركضون هاربين، نحو الممر الذي جاؤوا منه. اختفوا بسرعة خاطفة، مُخلفين في رأسك ألف دهشة. ما بال هؤلاء الأغبياء؟ تساءلت، ثم أطلقت شتيمة نابية، في وجه الهواء.

فُتِح الباب أخيراً، كان عبد الرحمن، أطل برأسه الأسمر الحليق. حين رأيته تمعّر وجهك، وصرت ترمقه بضيق، فلم يستسغ هذه النظرات التي ترمقه بها منذ رأيته، ولوى شفثيه السمرابين، واستحالت نظراته كرهاً.

بلهجة جافة، أمرته أن ينادي خالد. التفت وراءه، وصرخ يناديه، ثم اختفى. بعد ثوانٍ خرج خالد، وعلى شفثيه ابتسامة أعرض من وجهه.

- فيصل، أهلاً بك!

كان وجهه طلقاً، ولأول مرة تراه بهذا الفرح والسرور. أهو قدومك الذي يجعل قلبه يخفق فرحاً؟

خاطبته بهدوء:

- أهلاً، كيف حالك اليوم؟ تعال إلى السيارة، أريد أن أحادثك في موضوع مهم.

- لماذا في السيارة؟ تعال إلى غرفتي.

تنهدت:

- لا يا خالد، البيت ليس لك وحدك، لتدخل فيه من تشاء.

- ما المشكلة؟ إنهم يدخلون أصدقاءهم متى أرادوا، حتى الهندي نوري، دائماً ما يدخل رفاقه وجماعته كلها إلى البيت.

فتحت عينيك في صدمة:

- ماذا! يبدو لي أن الوضع في هذا البيت مزرٍ جداً.

نظر في عينيك، اتسعت ابتسامته أكثر، وقال:

- ولكننا متفاهمون جداً، ولا نُؤذي بعضنا. أستطيع أن أدخلك في أي وقت ومتى شئت. هيا، ألا تريد أن نجلس معاً في غرفتي؟

سكنت، وجلست تُقلب الفكرة في رأسك أكثر من مرة. ماذا لو دخلت معه وجلست في غرفته، وتحدثتما معاً قليلاً قبل أن تطرح عليه الفكرة؟ ربما سيصير إقناعه أسهل، لهذا لم تتردد في الموافقة.

تبعته إلى الداخل، كان الطريق خالياً، والصالة كما رأيته ليلة أمس، في قمة الفوضى.

اتجه خالد نحو الباب الذي يقع في زاوية الصالة على اليسار، فتبعته ودخلتما معاً. كانت الغرفة متوسطة الحجم، جدرانها بيضاء ناصعة، تغطيها سجادة خضراء داكنة وخشنة. في زاوية الغرفة اليسرى أسفل المكيف كان سرير خالد الحديدي، وعليه تتناثر كتبه المدرسية بعشوائية. قريباً من السرير، مدفأة زيت قديمة، بجانبها مصيدة للبعوض، وهناك خزانة خشبية طويلة في الجهة المقابلة منه.

أما في الزاوية اليمنى، كان خالد قد جهز خالد جلسة بسيطة، سجادة مربعة ومسدتين طويلتين على الجدار، وصينية تحوي ثلاثاً للشاي وكؤوساً ورقية. كانت الغرفة دافئة جداً، مريحة جداً، وتبدو بالنسبة لبقية الأماكن في هذا البيت، نظيفة جداً.

قال خالد مبتسماً، وهو يشير إلى جلسته التي جهزها بنفسه:

- جهزت هذه الجلسة لنا، كي نكتب معاً.

ابتسمت ابتسامة حزينة، لقد كان يدعوك إلى مجلسه بثقة تامة، كأنما يدعو إلى مجلس فاخر يطوف القهوجيون داخله مثل نحلات في خلية. في لحظة، فكرت في كل اللحظات والأقاويل التي دارت بينكما. هل بالغت في إظهار نفسك بمظهر المتواضع، بصورة لم يفكر خالد بعدها أن يخجل من دعوتك إلى جلسته البسيطة؟ أم هو واثق جداً، بمحض الفطرة، ولا يمكن أن يخجل من بساطة حالة؟

في كلتا الحالتين، أنت محظوظ، وهذه العلامات تشي بنجاح خطتك. إنه يسمح لك بالتقرب منه يوماً بعد يوم، لم يعد يوصد الأبواب في وجهك كما كان يفعل.

جلست حيث أشار، مُستنداً على مسندة، وجلس هو أمامك، تفصل بينكما صينية الشاي. رأيته يلتقط كأساً ويملؤه ويمده إليك، فابتسمت وأنت تنظر إلى الكأس في يده، وتساءلت:

- لا أدري، هل آخذ الكأس أم لا؟

- لماذا!!

- أنسيت ذلك اليوم؟ الشوكولا الساخنة، والإحراج الذي أوقعني فيه!

أطلقت ضحكة خافتة، فاحمرّ وجه خالد، ووضع الكأس على الصينية. أخذ يضحك مُنحرجاً، ثم قال، وهو يذوب خجلاً:

- يا الله، لا أدري كيف كنت أفكر في تلك اللحظة.

سكت قليلاً، أطرق ناظريه، ثم رفعهما إليك، فتفاجأت بأن بؤبؤيه قد اتسعا.

- ولكني لم أكن أعرفك جيداً!

قالها بنبرة غريبة، ثم استأنف:

- كنت أحسبك منهم.

- مَنْ هُمْ؟!!!

أجاب هامساً:

- الذين يقدمون لك خدمة، تحسبها في البداية مجانية، ثم يتضح لك العكس تماماً.
سكت، في لحظة أشد ما تمنيته فيها أن يتكلم. قلت له، مُحثاً إياه على مواصلة السرد:

- تتكلم وكأنك مررت بتجربة. صحيح؟

هز رأسه نافياً، ولم يُضف شيئاً. تنهدت، وفي هذه اللحظة قررت أن تتكلم.

في هذه اللحظة، وفي كل لحظة تقرر فيها أن تتكلم مع خالد، تعتريك سكينة مفاجئة، وتتسبح نبرتك حنواً، ويبدأ صوتك بالارتخاء شيئاً فشيئاً. اليوم، أصبحت هذه الأفعال تحدث بتلقائية، بالأمس كانت تكلفاً، اليوم أصبحت عادة.

- خالد، اسمعني لحظة. لقد فكرت بالمقال كثيراً ليلة أمس، وتذكرت عدة أشياء مهمة. لا يُحق لي أن أصور بيتاً وأنشر صورته في الصحيفة بغير إذن من المالك، ويحق له في تلك الحالة أن يشتكيني، وقد أمتنع من الكتابة لهذا السبب. الشيء الأهم، أن الكتابة في هذه الحالة لا تجدي نفعاً. لا تتوقع يا خالد أنه فور إرسال التقرير سنأتي كتيبة شرطة إلى البيت، تتفحصه وتعابنه لتحاسب المسؤول عليه وتغرمه في اللحظة نفسها. لن يحدث شيء من هذا ولو بعد سنة من إرسال التقرير.

- يعني، ألن تكتب؟

قالها بخيبة، فوضعت يدك على ركبته:

- ليس هناك حل سوى أن تترك هذا البيت، إن كنت تبحث عن الراحة. خالد، أعرف شققاً جميلة وسعرها مناسب جداً، لن تكلفك كثيراً، وليست بعيدة من هنا، ولكنها في حي أفضل وأرقى بكثير، ما رأيك؟

قبل أن يتكلم، قلت بسرعة:

- اسمع اسمع، ألسنت تشكو سوء وقبح المكان؟

- بلى.

- إذاً ما الذي يُبقيك فيه؟ أليس جميلاً أن تسكن في شقة نظيفة ومريحة و...

قال مقاطعاً، وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

- أعرف أعرف، وأعلم يا فيصل أنك تتمنى لي الأفضل وأقدر اهتمامك جداً. ولكني لا أفكر بالانتقال من هنا. كنت أشكو لك بحثاً عن حل، ولو كنت أنوي الانتقال لانتقلت مباشرة، ولما شكوت لك أصلاً.

خاطبته بانفعال:

- ولكنهم مختلفون عنك، كيف استطعت أن تعيش وتنام وتأكل مع أشخاص لا تربطك بهم جنسية ولا دم ولا دين!

- ما المشكلة في هذا؟ كما أنهم جميعاً مسلمون!

- لا إله إلا الله. خالد أرجوك، ما الذي يجعلك متمسكاً بهذا البيت؟

- لأنني لا أشعر بالوحدة ما دمت فيه. ألا يكفي يا فيصل كوني لا أملك أصدقاءً ولا زملاءً في المدرسة؟ أتريدني أن أسكن وحيداً أيضاً؟

- أنا صديقك، سأزورك في الشقة دائماً، لن أتركك وحيداً.

لمحت في عينيه تأثراً، رأيتَه يخلع نظارته ويمسح عينيه براحتيه، ثم يرفعهما إليك بنظرات كسيرة. هذه الجملة العذبة، الأبدية في الذهن والقلب، كانت جديدة عليه، لم يملك لها رداً.

- اسمعني، أنت صغير، وأولئك الذين تعيش معهم يبدوون غرباء. لقد أخبرتني أنهم يجلبون أصدقاءهم معهم وهذا الأمر يبدو خطيراً جداً إن أمعنت التفكير فيه. تصور أن يكون البيت مليئاً بأشخاص مختلفين لا تعرف معادنتهم وجميعهم يعرفون بأنك وحيد، صغير وضعيف أيضاً؟ هل تضمنهم كلهم؟ وإن كانوا جميعاً مسلمين، ما مدى ثقتك بكونهم على الدرجة نفسها من التدين، على الدرجة نفسها من الإنسانية؟

- أعرف، أعرف، ولكنني أستودع نفسي كل يوم ولا أملك غير هذا. فيصل هذا البيت قريب من الورشة التي بالكاد وجدت عملاً فيها، وإذا انتقلت، فمن سيتولى إيصالها إليها كل يوم؟!!

- يا الله، هل صارت وظيفتك أهم من كل شيء!! خالد إنك تسكن في حي خطير، بعض سكانه جاؤوا تهريباً، من الصومال وأريتيريا وإثيوبيا واليمن، جاؤوا مُلتفين ببطانيات ثقيلة، مدسوسين في شاحنات تعبر الليل وطرق الموت. البعض الآخر يُقيمون بلا إقامات ولا هويات، ما الذي يجعلك متأكداً أن كل هؤلاء لا تزال ضمائرهم رطبة، لم تجففها عوامل الغربة وقسوة العيش؟

أشاح بوجهه بعيداً، كأنما يهرب من حقيقة قاسية:

- الله خيرٌ حافظاً.

قالها ببساطة، ولم يستأنف. هذا الولد بعناده الغريب، وردود أفعاله الباردة، يكاد يُصيبك بالجنون. تنهدت، وأخرجت من جيبيك سيجارة، وصرت تدخن ببلادة، وعينك تطوفان في أرجاء الغرفة.

- أساساً لن أمكث طويلاً، بضعة أشهر وسأنتقل.

قال خالد، وعيناه على حضنه. فسألته بغضب:

- تنتقل إلى أين؟

- إلى ... إلى المكان الذي جئت منه.

- هل لديك عائلة؟ إخوة، أخوات؟

بهدوء سألته، فرفع رأسه بسرعة، كأنما نزلت عليه الفاجعة. أخذ وجهه يسودّ، وغمره الألم، من رأسه لأخمص قدميه. رأيته فجأة، يهز رأسه نافياً، فلم تكذ تُصدق عينيك. اقتربت برأسك من رأسه، سألته، بعينين مفتوحتين:

- ليس لديك عائلة! هل أنت وحيد؟

أوماً برأسه، بحركة سريعة، ففتحت عينيك بدهشة، ثم رجعت إلى الورا، شيئاً فشيئاً، حين شعرت أنه سيبيكي. حالة صعبة تلك التي كان يمر بها، كان يتمنى لو يُعفى من مواجهة أسئلتك، كان يغوص، يتكوّم على نفسه، ليخفيها عن ناظريك.

بعد دقيقة من الصمت، قال خالد، بلهجة مؤثرة:

- لقد كنت أتمنى صديقاً لا يسألني عن خصوصياتي ولا عن الماضي، هل أمنيته صعبة إلى هذه الدرجة؟

تنهدت بلا حول ولا قوة إلا بالله. كان عليك أن لا تسأل وأن ترحل فوراً، لأن بقاءك الآن لا جدوى منه، وهذه اللعبة باتت تدور الآن حول الفراغ. هذه الخطة التي نُسجت بإحكام وهذه الأكاذيب المُحبوكة فشلت عند أولى الخطوات بينما لا تزال تنتظرها خطوات أصعب.

أن يكتف خالد الحقيقة، هذه مشكلة يُرجى حلها، أما أن يحرفها ويكذب، فالعقدة أصعب من أن تحل. كم هو صعب أن تكتشف أن أمنية خالد الوحيدة هي ألا يتحقق الشيء الوحيد الذي تهدف أنت لتحقيقه، ولو صرت من أجله الرجل الذي لم ير قلباً أحن من قلبه.

أدركت بعد هذه اللحظة أن استراتيجيات الخبير النفسي لا تفيد، أن النبرة الهادئة الحنونة والوجه الطيب الرقيق وكل الظروف التي تدعو للكلام لن تجعل حجراً يتكلم، لأن خالد ربما قد قطع عهداً مع نفسه، أن لا يخبر أحداً بماضيه، مهما حصل.

حين شعرت أنه من غير اللائق أن تبقى أكثر، وضعت يدك على كتف خالد، وهمست:

- اعذرني، لو جرحت شعورك. ستجد الصديق الذي تتمناه بإذن الله، استأذنك الآن، إلى اللقاء.

وقفت، دسست علبة السجائر في جيبيك، ومشيت مهموماً نحو الباب. قبل أن تخرج، انتبهت إلى شيء مرسوم على الجدار على يسار الباب، كانت رسمة صغيرة، لوجه دائري وعينين، وفم يبتسم. ابتسمت ابتسامة حزينة، ربما هذه لى، لى الشقية، إنها بصمتها في هذه الغرفة. اغرورقت عينك بالدموع، وتخيلت لو أن الأمر تحقق، لو أن لى جاءت فعلاً لتسكن هنا مع خالد، في هذه الغرفة. سيكون الرسم تسليتها الوحيدة، سترسم مثل هذه الرسمة بلا شك، أو ربما سترسم شخصيات ديزني في كل زاوية، وتتحسر على أيامها التي مضت.

مسحت عينيك، ثم التفتت إلى خالد فرأيتته في طقوس حزنه المعتادة، جالس مثل مسن معتكف في محراب ويديه في حضنه. إن حال هذين الأخوين يُذيب الصخر، فكيف يفعل بقلبك؟ سحبت نفساً عميقاً، ومشيت، تحاول ابتلاع غصة الحزن، والضيق يطبق على قلبك.

في الصالة، حين خرجت، وجدت عبد الرحمن جالساً، بطريقة تُشبه الاستلقاء، على مسندة في الأرض مُقابل التلفاز، ويتكى بمرفقه الأيسر على وسادة محشوة بالإسفنج. كان يرتدي ثوباً باهت اللون، أمامه إبريق الشاي ومنفضة السجائر، وقشور الحب التي يبصقها من فمه تتناثر على الأرض من حوله. يبدو حقاً غير مُهتم بالمحيط الخارجي، مُستغرق في عُزله مع كوب الشاي وصحن المكسرات، ويرفع صوت التلفاز عالياً وكأن أحداً لا يسكن معه.

بدأت حرارة دمك تتصاعد، لا تدري لماذا تنتفض غضباً كلما رأيته هو على وجه الخصوص. على عكس علي، الذي رأيته أول مرة، والذي يبدو ضعيفاً وطيباً وكسيراً، يملك عبد الرحمن نظرات قوية شامخة، لا تدري من أين اكتسبها، تكشف عن شخصية ذات عزة وكرامة، مزروعة في جيناتها. كان هذا، بطبيعة الحال، ما يجعلك تستشيط غضباً كلما رأيته.

أكملت خُطاك نحو الباب، وقبل أن تُغادر الصالة سمعته يقول، بلهجة أمره، وصوت عالٍ:

- أغلق الباب وراءك.

فتحت عينيك بشدة، والتفتت:

- نعم!!

قال، وهو يحرك يده مُستغرباً:

- قلت أغلق الباب وراءك، ألم تسمع؟

ثم أنزل يده، وأزاح نظراته إلى الأرض، وتمتم بضيق:

- ما هذا البيت الذي يدخله الجميع؟ هل هذا بيت أم سبيل؟!!

فتحت عينيك أكثر، فأكثر. وبقيت، لثوانٍ، تستوعب ما قاله قبل أن تغادر سريعاً وتخبط الباب بقوة كاد معها أن يُكسر.

فور خروجك، أخرجت هاتفك، وكتبت إلى فهد رسالة قصيرة:

- لقد انتهى كل شيء يا فهد، تهانينا، لقد ربحت التحدي.

هناك، وقبل أن تستوي على المقعد، لمحت أولئك الباكستانيين الثلاثة من قريب، واقفين قرب الرصيف المقابل لبيت خالد. أحدهم يتكلم بهاتفه، والآخران كانا يقفان في صمت. في لحظة، ينظر صاحب الهاتف إليك، ثم يحدث ما توقعته، ويُعاد المشهد مجدداً. تجحظ عيناه، تتخشب أطرافه، يرطن بلغته الغريبة، ثم تنظر وجوه البقية إليك، وتتجمد بريية، ويملؤها الخوف والشك.

في ثوانٍ، تحركت الأقدام مبتعدة، مشت بهدوء، ثم أصبح المشي هرولة، وأصبحت الهرولة ركضاً سريعاً، تقطعه الكثير من الالتفاتات.

أن يخاف هؤلاء من مواطن عادي، وأن يكون المواطن هو أنت! هل أصبح وجودك في مثل هذه الأحياء شيئاً مُستنكراً، يدعو إلى الريبة؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة، يا لها من أعجوبة.

(7)

السبت، 18 جمادى الأولى 1437هـ.

في العاشرة والنصف مساءً، كان جُرحه الداخلي يتشافي، ساعة بعد ساعة، بعد أن سهر عليه عدة ساعات من الليلة الماضية، يُداويه بالقرآن والأدعية.

شُفي الجرح، لم يعد الضيق يكبت على صدره كلما تذكر دموعه التي أوشكت أن تهطل أمام فيصل، ولم يعد يطيل التفكير والنبش بالذكريات المتعلقة بالموضوع الذي فتحه فيصل، موضوع العائلة.

إلا أن هناك شيئاً لا يزال يُرهقه، وهو التفكير بفیصل نفسه. منذ أن استيقظ صباحاً وهو يُفكر، وحين ذهب يعمل في الورشة، كان يقتنص اللحظات التي تخلو فيها الورشة من الزبائن كي يجلس على برميل ويطوّق ركبتيه بذراعيه، ويُفكر.

وحتى الآن، وهو يجلس على سريره مُتربعاً، وفي حضنه كتاب الرياضيات، لا زال يفكر ويتساءل، عما إذا كان فيصل سيعود له أم لا. لم تخفّ عليه لهجة فيصل الوداعية في آخر مرة، ولم تغب عن ذهنه جملته حين قال "ستجد الصديق الذي تتمناه بإذن الله" ثم استأذن ورحل. هل كان يقصد أنه سيجد صديقاً غيره، وأنه لا يمكن أن تتحقق أمنيته معه؟ ضاق صدره أكثر فأكثر، وعاد يتساءل مُجدداً، هل خسر فيصل؟

شعر بالوحدة تُطبق على قلبه، وتذكّر مساعد الذي لم يعد يكلمه كما كان، ولم يعد يُلقي عليه السلام حتى. لا شك أن سكوته وبخله عليه بالإجابات، ونظراته التي يُقابله بها كلما سأل سؤالاً هي ما جعلته ينفر ويبتعد مع مرور الأيام. تنهد بحزن، لقد فرط بفیصل كما فرط بمساعد من قبل، لقد خسر الجميع.

ألقي كتابه على الأرض، لم يكن بمزاج يسمح له بالمذاكرة. كم يكره يوم السبت، يشعر أن الكآبة في هذا اليوم تُصبح عنصراً لا يتجزأ من الهواء، تغزو صدور مستنشقيها وتستقر في قعر القلب.

استلقى على ظهره، على فراشه السماوي المُزهر ملقياً رأسه على وسادته الصفراء، وصار يتملّى في المروحة القديمة وسط السقف، ويحلّم.

لم يلبث على وضعيته دقائق، حتى سمع طرقاتاً خفيفاً على الباب، وصوتاً يُناديه. قام يجرّ قدميه بتكاسل، ليفتح الباب ويجد نوري الهندي، يقول، بلهجته الركيكة:

- هناك رجل عند الباب، يقول إنه يريدك.

تساءل بدهشة:

- من هو؟

هل يُمكن أن يكون فيصل؟! ابتسم ابتسامة واسعة، وأسرع إلى دولابه الخشبي ليستبدل سرواله الرمادي وقميصه الأبيض البالي بملابس أفضل بقليل. ارتدى بنطالاً أسود، وبلوزة صوفية بيضاء مُقلّمة بالأسود، ثم خرج يمشي إلى الباب، ليفتحه بسرعة، ويتفاجأ، بأنك قد عدت إليه، وأن ثمة في هذه العلاقة خيطاً لم يُقطع بعد.

أشرق وجهه بابتسامة صافية سرعان ما استنكرتها، وقال مُرحباً:

- أهلاً أهلاً، كيف حالك؟

لم يكن وجهه اليوم هو ذاك الوجه الذي تعرفه وتألّفه، وجه الحزن، الشاحب الكئيب. ثرى ما الذي تجدد في غضون يوم؟ ترددت كثيراً قبل أن تبدأ بالكلام، مثلما ترددت الليلة الماضية بين ألف فكرة وفكرة وأغرقتك الحيرة. صرت تفرك كفيك ببعضهما، ثم قلت:

- الحمد لله، أنا بخير. أريدك أن تعطيني رقم صاحب البيت.

- لماذا!!!

عقد حاجبيه، فقلت بجديّة:

- أريد أن أناقشه بموضوع البيت.

- ماذا!!!

أتبع كلمته الأخيرة بشهقة عظيمة. تهلل وجهه، وامتدت على شفّتيه ابتسامة ملأت ثناياه ضياءً، حتى خيل إليك أنه استحال بدرأ. كاد أن يسقط وهو ينزل من العتبة بعجل، ليقف أمامك مباشرة، ويقول:

- ستساعدني؟ أقصد، ستساعدنا؟

أومأت بابتسامة صغيرة:

- نعم، من أجلك يا خالد. وأريد أن أدخل وأرى البيت بشكلٍ أوسع، كي تتكون لدي الصورة الكاملة.

- شكراً يا فيصل، شكراً جزيلاً. وسواءً نجح الأمر أم فشل، سنكون جميعاً شاكرين لك ولتعاونك، مدى العمر.

أشحت بوجهك بعيداً، حتى لا ترى صورة عينيه المُشبعة بالامتنان. ابتسمت مجاملة:

- لا داعي للشكر، هل ندخل الآن؟

في الممر، صرت تمشي وراءه، مُثقل الخطى، وفي يدك دفتر الملاحظات الأسود. دخلتما إلى الصالة، ثم أخذك خالد إلى باب يقع في الزاوية اليمنى، وأخبرك بأنه المطبخ.

وهو يفتح الباب تدريجياً، كنت تُهَيئ نفسك للصدمة، وتتساءل، ما إذا كنت ستري شيئاً أسوأ من الذي رأيته في زيارتك الأولى. أرض رمادية إسمنتية، هذا أول ما سقطت عينك عليه، ثم دخلت مع خالد، ليُريك ما لم تستطع نسيانه أبداً.

الأرض الإسمنتية كانت صمغية، والجدران الصفراء الباهتة لا تختلف عن جدران الصالة، بيد أن بقع الأطعمة انضمت إلى جانب البقع الأخرى عليها، لا سيما بجانب الفرن. الفرن كان صغيراً جداً، بالكاد يكفي قدرين أو ثلاثة، وهو أيضاً كان ملطخاً ببقايا أطعمة متعفنة، بالكاد تُرى ألوانه الأصلية. لا يوجد سوى ثلاثة دواليب بيضاء على الجدار، واثنان على الأرض، وهذا يفسر سبب وجود الكثير من الأواني المُتسخة على الأرض.

وأثناء وقفة التأمل هذه، يقطع خالد سيل نظراتك التي تصافح كل شيء، ويُشير بإصبعه إلى الجحور المتفرقة في الجدران، التي قاموا بسدها بقطع قماش ننتة، ويشير إلى الثلجة، ومجلى الصحون، وكومة الأواني على الأرض، ويقول، في كل مرة، انظر، انظر يا فيصل، وكأن الذي رأيته يا فيصل لا يكفي.

ولا يكفي عند هذا الحد، بل يسترسل في سرد المعاناة المرهقة التي يتعرضون لها كل يوم، فالثلجة تصدر صوتاً غريباً، فضلاً عن كونها تبت رائحة مزعجة لا تُطاق. والماء الذي ينساب من صنوبر المجلى يصفّر لونه أحياناً بسبب الصدأ الذي يملأ المواسير. يخبرك أيضاً، أن ضمير تبرّع ببعض قمصانه لسد الفجوات في الجدار، وتبرّع أيضاً بمهمة تفريغ السطل الذي يضعونه في منتصف المطبخ، والذي يمتلئ عدة مرات في اليوم الذي يهطل فيه المطر.

كيف تبدو هذه المناظر بالنسبة لشخص عاش ثلثي عمره في قصر فاخر يتجاوز سعر مفروشاتهِ وثريّاته ضعف قيمته، وعاش الثلث الأخير متنقلاً بين قصر أبيه وفيلا أمه في الحي المُجاور؟ شخص ينكمش جلده لأدنى سبب ويُهزم سريعاً تحت وطأة هذه المشاعر؟

كان خالد يخاطبك وكأنه يخاطب صحفياً جاء ومعه كاميرا حية، تبت كل شيء. كم تتعبك ثقة هذا الولد وأمله فيك، وأنت، أيها الصحفي، مثل كثير من الصحفيين، تصور الحدث من كافة زواياه، ثم تهرب.

حين انتهى من الكلام، سألته بتعجب:

- هل تطبخون هنا يا خالد؟ لا تصدمني أرجوك.

- بالنسبة لي، لا أكل طعاماً دخل إلى هذا المطبخ أو خرج منه.

- ومن أين تأكل؟

- من المطاعم القريبة.

- أولاً أخذت بنصيحتي واستأجرت شقة أفضل من هذا البيت؟ شقة تستطيع أن تطبخ في مطبخها وتوفّر نقودك؟

خاطبته معاتباً، فسكت ينظر إليك قليلاً، ثم رفع كتفيه:

- في كل الأحوال، أنا لا أجد الطبخ.

لم يصف شيئاً، فسكتت أنت بدورك. عاد يقول في محاولة لتغيير الموضوع:

- حدثني عن عملك، هل بيوت الفقراء التي تزورها تشبه هذا البيت؟ أم إن هذا أقبح مكان رأيته في حياتك؟

- بصراحة، إنها المرة الأولى في حياتي أرى بيتاً كهذا، أعرف أن هناك عمارات مخصصة للعمالة ولكن، بيت مقسم إلى غرف يتقاسمون فيه مطبخاً واحداً وحمامات مشتركة! لم أسمع بهذا النوع من البيوت.

- هناك الكثير من البيوت هنا مصممة على هذا النظام، وتؤجر لهذا الغرض.

رفعت حاجبيك متفاجئاً، ثم أشحت بعينيك عنه وألقيت نظرة سريعة على المطبخ.

- حسناً، أظن أنني اكتفيت بما رأيته، الوضع لا يُحتمل يا خالد، أعطني الرقم بسرعة.

ابتسم خالد، ثم سرعان ما تلاشت ابتسامته.

- أتدري يا فيصل، أشعر أن المحاوراة والمناقشة لن تنفع مع صاحب البيت، ولو كانت من شخص يُجيد الكلام بلباقة مثلك. صاحب البيت رجل فقير متواضع الحال، وهو جشع وعصبي جداً.

- نجرب، ما المانع من التجربة؟

خاطبته بابتسامة، وبلهجة غاية في الحنان. ذهب خالد إلى غرفته، وعاد بورقة صغيرة وقلم، ثم نقل رقماً مكتوباً على أحد جدران الصالة، وابتسم وهو يمد ورقته إليك، ويقول:
- هذا رقمه، تفضل.

تناولت الورقة الصغيرة بابتسامة خافتة، كان قلبك يخفق بجنون، تشعر أنك مقبل على مجازفة خطيرة لا يضمن نجاحها، ولكن شيئاً ما بداخلك، كان يحثك على المضي.
ودعت خالدًا، متعذرًا بأشغال عديدة، ورجعت إلى الشقة لتستكمل موجة التفكير الطويل.

الثلاثاء، 21 جمادى الأولى، 1437هـ

زرت خالدًا في بيته يوم الأحد، وأخبرته أنك اتصلت بصاحب البيت، وأنه لم يقتنع بكلامك، بل طلب منك ألا تتدخل، لأن هذا الأمر ليس من شأنك. كانت ردة فعل خالد طبيعية جدًا، صدق كذبتك، أبدى تعاطفه معك، وشكرك كثيرًا. يوم الاثنين لم تقرر زيارته، لأنك جلست تفكر في يوم الثلاثاء الذي أصرَّ أبو أحمد (صاحب البيت نفسه) أن يقابلك فيه.

طلبت منه في المكالمة أن تقابله في مكان عام، ولكنه أصرَّ أن تزوره في البيت، ليعرف منك ما الأمر الخطير الذي يحدث من ورائه في البيت حسبما أخبرته.

استغرقت ثلاث ساعات في التفكير والاستعداد لهذه المقابلة المربكة، تعلمت كيف ترسم على شفتيك ابتسامة لبقة وكيف تزن نبرة صوتك، تدربت على الحديث بلهجة الواثق، قضيت عدة دقائق في ترتيب شماغك قبل الخروج، وحفظت الكثير الكثير من الكلام.

خرجت اليوم قبل التاسعة بقليل، ورحت تقود سيارتك متجهًا نحو حي جديد لا يبعد كثيرًا عن حي الفيصلية. وصلت إلى الحارة المقصودة، ركنت سيارتك أمام بيت ذو طراز تقليدي ولون باهت، نزلت، ورحت تقرع جرس الباب بخوف وهدوء.

بعد دقيقة فُتح الباب، فرأيت رجلاً سميناً، أبيض البشرة، فارع الطول، حاجباه مُقطبان، ويبدو أنهما هكذا على الدوام. غير أنه حين رآك ابتسم، وقال بصوته الخشن، مُرحبًا:

- أهلاً أهلاً، حيّاك الله.

أخذك معه إلى مجلسه، فجلست على الأرض مستنداً على مسندة بيضاء صغيرة. كانت سجادة المجلس حمراء داكنة وجدرانه بلون ترابي، وأجواؤه تبعث على الكآبة والاختناق. سمعته عند باب المجلس ينادي بالقهوة، فطلبت منه متوسلاً أن يجلس.

- أبو أحمد، لا داعي لهذه الكلفة، لن أطيل الجلوس.

- ماذا؟ هل يمكن لأحد أن يخرج من مجلسي دون أن أضيّفه القهوة؟

قالها بصرامة، فتعجّبت كيف أن للمظهر الخارجي والحالة المادية دوراً عظيماً، يساهم في كسب احترام الناس. مسكين خالد، أيرجو من شخص مثل أبي أحمد معاملة محترمة هو يفتقر لهذه المقومات؟

جلس أبو أحمد مُقابلاً لك، وسألك باهتمام، عما يجري من ورائه في بيته. وحينها، سحبت نفساً عميقاً، تحاول معه تثبيت نفسك، ثم تكلمت بصوت متزن، بطريقة مباشرة، تخلو من أي مقدمات:

- اسمعني يا رجل، أنا فني كهرباء، وآتي كثيراً إلى هذه الأحياء لأكشف على العدادات كما يتطلب مني. في أحد الصباحات، رأيت رجلاً يدخل أحد البيوت بحذر، يحمل بيديه كيساً كبيراً من الخيش. كنت أقف قريباً منه أمام عداد أحد البيوت، فسمعت قرقعة الزجاجات في كيسه، وحين رأيته، بدت على وجهه كل علامات الارتباك والخوف. أبو أحمد، أنا أعرف هذا النوع من الأكياس، فهذه ليست أول مرة أرى أشخاصاً يحملون أكياساً بهذا الشكل في هذا الحي. إنها زجاجات خمر، وقد كان يدخلها إلى بيتك.

- خمر!

أشاح بوجهه يستعيد مصدوماً ويحوقل، ثم نظر إليك بعينين مفجوعتين، وسألك:

- هل هذا الكلام الحقيقة؟؟

أجبتة بجدية بالغة:

- هل يمكن أن أكذب في هذا يا أبا أحمد؟ هناك الكثير من الحالات في هذا الحي، ليست قليلة تلك الحالات التي اقتحمت فيها الشرطة مصانع لتعبئة الخمور المغشوشة في إحدى البيوت، والتي يقوم نشاطها على جمع علب الخمر المستوردة في أخياش، حيث يقومون بتعبئتها من جديد، ثم إغلاقها وبيعها. ليت الأمر يقتصر على الخمر وحسب! هناك مصانع

الحشيش، مصانع المخدرات، تجارة مجنونة تلك التي يقوم بها العمال، يخلطون زجاجاً مُهشماً مع المخدرات، كي تكثر كميته وبيع بسعر أكبر. إنها تجارة سرية لا تخطر على بال أحد، قد ترى بيتاً توحى لك صورته بأنه عادي، ثم تكتشف أنه مصنع من مصانع المخدرات. كيف؟ إنهم يدسون أكياس الحشيش والمخدرات في أماكن لا تخطر على البال، في ثقب الجدران مثلاً، أو تحت البلاطات!! كيف تترك البيت يا أبا أحمد لهؤلاء الوافدين ليعيشوا فيه فساداً؟

مع كل كلمة، كانت عيناه تتسعان وتحمران أكثر فأكثر، حتى وصل إلى حد، لم يعد معه قادراً على كتمان غضبه. صرخ في وجهك بعصية:

- هل كل هذا يحدث في بيتي!!!

تداركت الموضوع قبل أن يحدث ما لا يُحمد عُقباه:

- لا لا ليس بهذه الدرجة يا رجل، أنا لم أرَ إلا رجلاً يجر كيساً مليئاً بالزجاجات، ولست متأكداً جداً من الموضوع لكنني أردت أن أحذرك فقط، فأنت المسؤول أمام الشرطة عمّا يحدث في بيتك يا صديقي، وأنت المُحاسب في المقام الأول. من رأيي أن تُنهي العقد مع ذلك الرجل وتطرده بسرعة، فأفعاله تجلب الشك. وإياك أن تُخبره بمعرفتك بالأمر، بل إياك أن تخبر الشرطة! أنه الموضوع بسرعة تحسباً لأي انتقام، قد تكون وراءه، عصابة!

- من هذا الرجل؟

ابتلعت ريقاً يسيراً مغمضاً عينيك، وهمست:

- ذاك الطويل الأسمر، عمره في أواسط العشرين.

- عبد الرحمن؟!!!

خرجت من بيته بعد دقائق وقلبك يخفق، وشعورك مزيج من السعادة والخوف. ما هذه الكذبة؟ ما هذه الكذبة؟

شعرت أن ما حدث كان حلماً، وأن كذبة بهذه الخطورة، لن تنتهي على خير أبداً.

سحبت نفساً عميقاً، واسترخيت على مقعد السيارة وقلبك ما زال يخفق. شعرت أن الأمور أخذت تتطور، وأن الكذب أمسى عادة وسيصبح إدماناً، وأن الإدمان سيوقعك في دوامة يصعب الخروج منها إن لم تتوقف حالاً. ملأت عقلك التخيلات، وتمنيت، حين شعرت أن ما

سيحدث غداً لن يضر عبد الرحمن وحسب بل الجميع، بمن فيهم خالد، أن يعود الزمن بك إلى الوراء.

لو أن ما حدث كان حتماً! تحركت بسيارتك فوراً إلى الشقة، ستختبئ فيها ريثما تهدأ الأوضاع، ويوم السبت، ستزور خالد لتسأله عما حصل.

(8)

السبت، 25 جمادى الأولى، 1437هـ

الليل يُطبق بصدرة على الحارة، وخالد يقف على عتبة الباب، عيناه تدوران بقلق. ينظر يميناً فلا يرى أمامه سوى لسان الإسفلت الأسود والظلام الحالك، وينظر يساراً فلا يرى سوى سيارات قديمة من نوع كاراسيدا وهائلُكس، يراها كل يوم في المكان نفسه.

إنه يبحث عن سيارتك، منذ الليلة الماضية وهو يخرج من أجلها بين حين وحين، يمشي لينظر إلى المنعطف، يستبشر كلما رأى ضوءاً قادماً، ويخيب رجأؤه حين يكتشف أنها سيارة أخرى.

قرر أن يجلس قليلاً على العتبة، متحِيناً قدومك. لم يهدأ قلقة حتى أتيت، وشق ضوء سيارتك ظلام الليل، كما ملأ تجاويف صدره. وقف ملهوفاً، ورأيته من قريب يبتسم، عيناه تغوصان خلف ابتسامته العريضة.

حين وصلت، سألته بضحكة، مخرجاً رأسك من النافذة، عن سبب وقوفه الغريب، فاقترب من سيارتك وانحنى، وأدخل رأسه عبر النافذة:

- افتقدتك، ما هذا الغياب؟

رفعت حاجبيك بتعجب، هل يطلب منك أن تزوره كل يوم؟

- لم تأتِ حتى إلى الورشة، لماذا؟

- انشغلت قليلاً، هل خرجت لتنتظر مجيئي يا خالد؟

- بل خرجت أتفقدك، وأدعو، بأمل ضعيف، أن تكون السيارة القادمة هي سيارتك. لا أدري لماذا شعرت أنك لن تأتي مُجدداً، لقد خفت كثيراً.

- حقاً!!!

- ما رأيك أن نتجول بالسيارة قليلاً؟ لدي الكثير لأقوله لك.

اومأت له موافقاً، فركض إلى البيت ليرتدي معطفاً. كنت تُراقبه وهو يركض، منذ متى أصبحت شيئاً يخاف هذا الفتى فقدانه ويستوحش غيابه؟ وكيف صار فجأة يُعبّر، بطريقة مباشرة جداً، أنه لا يطيق الصبر عنك؟

هل هي مُعجزة، حظ وافر، أم إن الأمر منطقي جداً؟

شرعت تتذكر الأيام العشرين التي قضيتها معه، عشرون يوماً وأنت صديق مهتم، عشرون يوماً وأنت أخ حنون لا يقول جملة مُجردة دون أن ينقل خلالها شعوراً جميلاً إلى أخيه، حباً أو خوفاً أو اهتماماً صادقاً.

عشرون يوماً ولم يخل حديثك معه من كلمة جميلة، أو نبرة لطيفة، أو ابتسامة عذبة، أو نظرة حانية.

إن كان ثمة مُعجزة في الأمر، فهو صمودك الذي خُدش مراراً ولم ينكسر، رغم التعب.

أشعلت سجارة جديدة، ورحت تفكر ملياً بالأمر. خالد لا يطيق الصبر عنك، هل أنت محظوظ، أم إن هذا طوق جديد على عنقك، سيجرك كل ليلة إلى هذا الحي، إلى حيث يعيش خالد؟ هل صارت هذه العلاقة قيدياً على معصميك، وهاجساً يشغل تفكيرك، ويؤرق ارتياحك؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة، ربما ستشتاق، من بعد هذه اللحظة، إلى صديقك الذي أوشك أن يستأذنك في الرحيل، إلى الفراغ، وإلي لياليه التي تقضيها دوماً مستلقياً في غرفتك على السجائر والأفلام. دخول خالد لا يشبه دخول لمى إلى حياتك، إنه يبقيك مشغولاً طوال أيامك، ويرغمك مباشرة على تغيير نمط حياتك. منذ هذه اللحظة أدركت، أن الفراغ سيرحل، وأنه حين يرحل الفراغ، صديقك الأوحده، ستتحول أنت إلى شخص آخر، شخص لا يشبه فيصل القديم.

انتبهت إلى ركوب خالد بعد دقيقتين، أغلق الباب، وراح يدس معصميه في أكمام معطفه. ما إن انطلقت خارج الحارة، حتى التفت إليك، يزف أخباراً جديدة:

- لو تدري ماذا حدث في غيابك، قامت الدنيا ولم تقعد!

حشرت سجارتك في المنفضة، ورحت تستمع إلى حكاية خالد بتشوّق المستمع الذي يسمع القصة لأول مرة.

- ظهيرة الأربعاء جئت من المدرسة مع علي وضمير، ودخلنا البيت معاً. قبل أن أخلع حذائي عند الباب، تفاجأت به يُفتح بقوة كأنما ضربه إعصار! رأيت صاحب البيت يدخل هائجاً، وحين رأني هجم يسألني بعينين حمراوين، أين هو؟ لم أخف في حياتي مثل هذه المرة، هذا الرجل وحش، يجمد القلب بنظرة. عرفت أنه يبحث عن عبد الرحمن حين هجم على غرفته كالأسد، وحين اكتشف أنها مقفلة، راح يتوعده ويقذفه بأبشع الصفات. سأله علي عن سبب غضبه وليته لم يسأله، لأنه التفت إلينا وأمطرنا بلعنات وشتائم اعتادت مسامعنا عليها، ولكنها هذه المرة، جاءت أثقل. لعنة الله عليكم وعلى كل أجنبي مثلكم، أنتم بؤرة فساد في هذا البلد، ليس فيكم شريف ولا أمين، كم غفلت الدولة عنكم وعن جرائمكم، كم غصت الرياض بكم وتشوّهت! كان يقف في وسط الصالة، يشير بسبابته وينتفض غضباً مثل مجنون.

- يا الله، وماذا فعل بعدها؟

تنهد خالد، وأطرق عينيه بانكسار:

- خرج، عاد مرة أخرى في العاشرة ليلاً، ثم وجد عبد الرحمن و.. وانقضّ عليه.

- هل ضربه!

- تقريباً. هجم عليه وأمسك بتلابيبه وصار يهزه بعنف، لم يُبق شتيمة في العالم إلا وألقاها عليه. كان يتهمه، من بين سبابه، بأنه حوّل بيته مستودعاً لبلاويه السوداء! لم يكتفِ عند هذا الحد، بل ذهب إلى غرفة عبد الرحمن وصار يفتش في زوايا الغرفة وينكش في أغراضه وملابسه. هنا لم يعد بوسع عبد الرحمن أن يتحمل أكثر، شعر أن كرامته صارت مداساً عند قدمي ذلك الرجل بل أحقر. احمرّ وجهه وبدأ يصرخ. يا يهودي! يا حقير! صبرنا على السكن في زريبتك هذه ولا زلت تمن علينا؟ على ماذا؟ على بيتك هذا الذي لا تسكنه حتى الفئران!

- يا الله، وماذا قال بعدها؟

- احتد النزاع أكثر، عبد الرحمن يعيب بالبيت وبصاحبه، والآخر يتهم عبد الرحمن بالتلاعب من ورائه، ويتوعده بالشرطة! بصراحة لم نفهم بالضبط ما الذي يقصده هذا الأخير بكلامه، كان يرمي إلى أن عبد الرحمن قد حول بيته إلى مكان للتجارة والاسترزاق عبر أعمال سيئة حسبما فهمنا، ولم نستطع مع هيجانه العظيم أن نفهم التفاصيل . أي تجارة يقصدها وأي مال؟ عبد الرحمن ليس إلا رجلاً فقيراً يعمل في أحد مستودعات السجاد القريبة، لم نرَ منه أي عيب، كيف يتهمه بلا دليل؟

- هل طرده من البيت؟

- لم يكن يريد طرده، كان يهدده ويخوّفه فقط. هل تعتقد أن هذا الجشع مستعد لخسارة شخص يدفع له أجراً كل شهر؟ لم يطرده، بل عبد الرحمن الذي خرج بنفسه. أخذ حقيبه البنية التي لا يملك غيرها، وانتعل نعليه القديمين، وأقسم ألا يعود.

تنهد خالد مرة أخرى، واسترخى على المقعد، حزيناً. تساءلت عن سبب حزنه هذا، استرجعت تفاصيل الحكاية، وبدأت تتخيلها، وضاق صدرك.

ألهذه الدرجة يحب عبد الرحمن؟ لم تُعَلِّق على الحكاية أبداً، فسيطر الصمت على الأجواء، وسيطرت السكينة على جسد خالد.

- إذا أردت أن تكتب يا فيصل عن الظلم والمعاناة التي يعيشها العمالة الوافدون، فاكتب قصة عبد الرحمن. إنها أعظم شاهد على هذا الظلم.

التفتت إليه بجمود، فنظر إليك وواصل بانفعال:

- والسائق الذي يقيم في فيلا تقارب مساحتها الألف متر مربع في حين لا تتجاوز غرفته الخاصة مترين في مترين، وعامل النظافة الذي يُحسد على ريبالات قليلة يأخذها عند الإشارات ويوصى بعدم إعطائه قدر الإمكان، والبناء الذي يُجبر على العمل تحت الشمس حتى الحادية عشرة ظهراً، أليست هذه شواهد؟

تعجبت من حماسه المفاجئ، وضحكت بسخرية، ضحكة تشبه الابتسامة. خالد لا يعرف أن هذه القضايا لم تعد قضايا، وأن الصحفيين اعتزلوا الكتابة عن هكذا مواضيع منذ سنوات. ولكن هذا الفتى، جهله نعمة.

- أعرف يا خالد.

نظر في عينيك:

- إذا لماذا لا تكتب؟

- أنا أكتب عن مثل هذه الحوادث كثيراً، ولكن قصة عبد الرحمن! يا خالد نحن لم نعرف تفاصيلها جيداً، لم نطلع على ما وراء هذه الأحداث. ربما رأى صاحب البيت في عبد الرحمن شيئاً لم نره، لا نستطيع أن نحكم إن كان هذا ظلماً أم لا.

- لا أصدق أن عبد الرحمن فعل أمراً سيئاً!

- ولا أنا، لكننا لا نستطيع أن نحكم اعتماداً على ظنوننا التي توجهها عواطفنا.

لم تسمع له رداً، فأكملت بابتسامة، وعينك على الطريق:

- يجب على الصحفي حين يكتب أن يتجرد من عواطفه كلها، ويكتب بموضوعية.

- صحيح.

سكت لدقائق، يتملّى في الفراغ، ويفكر. ثم فجأة، التفت إليك وهو يبتسم:

- أتدري، كم أود أن أقرأ بعضاً من مقالاتك، أشعر أنك كاتب موهوب.

- سأطلعك عليها قريباً إن شاء الله، ما رأيك أن نشترى مشروباً ساخنًا؟

لم تكن سرعة بديهية، لقد استعددت لهذا الجملة طويلاً. وافق خالد، فتوقفت عند أحد مقاهي الطّرق. تناولت القائمة وقربتها إلى خالد، كنت تعرف، مسبقاً، أن عينيه ستبحثان تلقائياً عن أرخص ما فيها، وما إن بدأت عيناه تحومان تائهة حول الأصناف، حتى سارعت بالإشارة إلى مشروب الشاي بالحليب، المشروب الأرخص في القائمة.

- أشعر أن الشاي بالحليب خيار جميل جداً، ما رأيك أن نطلبه سوياً؟

هز رأسه موافقاً، وارتسمت على شفثيه ابتسامة فرح، من الأذن إلى الأذن. لا بد أن يعرف هذا الفتى، أنه معك، ليس ملزماً بصرف الكثير من المال كي يكف عن نفسه الإحراج، ونظرات الشفقة والتعاطف. لا بد أن يؤمن أن هناك شعورين لن تجعله يشعر بهما مهما حصل، الإهانة والانخداع.

جاء الشاي بعد ثلاث دقائق، ناولته كوبه بصمت، ثم واصلت التجول حول الشوارع بلا هدف. كانت السيارة، في صمت أجوائها، أشد من كهف مهجور. خالد هادئ بطبعه، غارق في أفكاره، وأنت لم تكن في مزاج جيد للحديث. مضى الوقت بلا فائدة، وانتهت الجولة

قبل أوانها. سلكت طريق العودة في حلول الحادية عشرة، وقبل أن ينزل خالد تذكر شيئاً، فالتفت إليك ليقول:

- فيصل، نسيت أن أقول لك شيئاً، لقد أعطيت عبد الرحمن رقم هاتفك وأخبرته أنك تعرف شقراً للإيجار بأسعار مناسبة كما أخبرتني. قد يتصل بك في أي وقت لأنه يبحث عن شقة، حسناً؟ إلى اللقاء.

ثم نزل واختفى، ليترك هذه النكتة العجيبة، عالقة في رأسك.

وصلت إلى الشقة متأخراً، بعد أن قضيت ساعة أخرى في التجول وحيداً. تفاجأت بأن أنوار الصالة مغلقة على غير العادة، فانقبض قلبك، وشعرت أن الظلام سيعود يستقبلك مجدداً، حاملاً معه صديقيه الحميمين، الوحشة والاكتئاب.

شعرت أن شعوراً كريهاً قديماً فيك يوشك أن يستيقظ، فهرعت بجنون تفتح المصاييح كلها، وتشتم لى في داخلك. لن تسمح لها بإطفاء المصاييح مجدداً، لن تتركها تحوّل هذه الشقة إلى شيء يُشبه بيتكم الكئيب.

دخلت إلى الغرفة وخلعت ثوبك، ثم استلقيت على السرير وأنت تتنهد. تذكرت أنك استغرقت ليلة أمس ثلاث ساعات كاملة تبحث في الإنترنت حول دور الرعاية، وما إذا كانت لى واحدة من الحالات التي يمكن اعتبارها جديرة بالإيواء. كانت شروط الانضمام سهلة وقصيرة، ولكن شروط الخروج، تبدو مستحيلة جداً.

تقلبت في فراشك في محاولة للنوم، وبعد نصف ساعة، استيقنت أنه لا جدوى من الاستلقاء ومراقبة السقف ولفظ التنهيدات والزفرات.

تذكرت جملة خالد الأخيرة واتصال عبد الرحمن، فغمرك حماس عجيب، وقفزت من سريرك لتلتقط المفكرة والقلم من طاولة التسريحة. قلبت صفحات المفكرة وتفاجأت حين اكتشفت أنها أوشكت على الامتلاء. كيف امتلأت هذه الصفحات المئة بهذه السرعة؟ قلبتها على عجل، معظمها كانت جُملاً كنت تكتبها وتحفظها يومياً لتساعدك على مخاطبة خالد بكل ثقة وطلاقة، والبقية هي إجابات لأسئلة عديدة، توقعت أن يسألك إياها خالد في أي وقت. وربما كانت المبالغة في الشطب والتعديل والتنقيح هي ما جعلت هذه الصفحات المئة تمتلئ بسرعة.

فتحت إحدى الصفحات الأخيرة وسألت نفسك، ماذا يمكن أن يقول عبد الرحمن إذا اتصل؟ وماذا يمكن أن تقول له أنت، إمعاناً في السخرية والإذلال؟ فكرت، وشرعت تكتب.

"تبحث عن شقق رخيصة إذاً؟ اسمع، لا يوجد رخص هنا، الأمن والأمان والحياة الكريمة الآمنة ليسا بهذا الرخص يا عزيزي".

"ماذا كنت تقصد حين قلت عن ذلك البيت إنه لا تسكنه حتى الفئران؟! هل كنت تسكن قصرأ تتدلى من سقفه ثريات من ذهب؟ هذا البيت، ذو الجدران القذرة القبيحة، بمثابة نعمة، إذا ما قورن بأوضاعك السابقة، قبل أن تأتي إلى هذا الوطن، يا ناكر الجميل!".

"لا أستطيع نسيان تلك الصور التي رأيته في الإنترنت عن هذا الحي، والتي تكررت في عدة أماكن. إنها لأناس، رجال ونساء، مشردين، يفترشون أراضي الحواري، وينامون عليها أمام البيوت، ويبدو لي أن هذه العادة ليست غريبة في هذا الحي. اعتقد أنه لا يوجد أرخص من افتراض الأراضي والنوم عليها، أو ما رأيك؟".

وشيئاً فشيئاً، بدأت تشتتته على الورق، وتكتب لعنة من هنا ولعنة من هناك، شعرت أن القلم بيدك صار مجنوناً، وأنت تحولت، بكاملك، إلى آلة مجنونة، تكتب بهستيريا، وشيء ما بداخلها، يحترق.

وفي لحظة، لحظة من حزن مقيم وهستيريا عظيمة، توقفت، وألقيت بالمفكرة بعيداً، وتفجرت عينك دمعاً، وغرقت في بكاء العظيم. ما هذا السخف؟! ما هذا السخف يا فيصل؟! سألت نفسك والدم يتصاعد إلى وجهك، ثم سقطت، فجأة، تحت طواحين الحزن، وتكلمت عليك المشاعر القاهرة، واحداً تلو الآخر.

ضيّعت ساعات طويلة لأجل كذبة، زرت شخصاً لا تعرفه وانتحلت شخصية لا تشبهك، كرسيت جهدك ووقتك في التدريب والتمثيل، وكذبت وكذبت. عبثاً، لجأت إلى شتم عبد الرحمن كحيلة دفاعية، عبثاً، حاولت التخفيف على نفسك. كيف أصبحت حياتك مكرّسة لأهداف تبدو، من سخافتها، عجيبة؟

أحسست لأول مرة بدنو نفسك وسخافتها، وبكيت اليوم كما لم تبتك من قبل. بكيت من كل ضيقة جثمت على صدرك، نشجت ونشجت، ودفعت مع كل زفرة عشرين غصة عالقة. التقطت المفكرة مجدداً ومزقتها كلها، كلها. وبالجنون نفسه، فتحت الإنترنت لتمسح كل سجلات البحث الأخيرة، والتي تحوّلت إلى قائمة أسئلة تخص الوافدين وحي الفيصلية، بعد أن كانت لا تحتوي إلا على مواقع الأفلام.

إنه من المُخجل جداً، أن يطلع أحد على ما كُتب في هذه المفكرة.

في اليوم التالي زرت خالداً، بينما لا تزال على عينيك آثار البكاء والتورم. لم يكن باستطاعته أن يخرج معك للتجول نظراً لتراكم واجباته المدرسية، فقدرت ظروفه، ودخلت معه إلى غرفته.

جلست على طرف سريريه الحديدي بعد أن أزحت كتبه وأوراقه المتناثرة، وجلس هو في الطرف المقابل، فوق وسادته. سألك عن أحوالك وأخبارك، فرسمت على وجهك ابتسامة صفراء، وأجبتته بكلمة واحدة، وسكتت. لم يعهد منك هذا الهدوء من قبل، وبانت على وجهه علامات الاستنكار والذهول. حاول أن يفتح معك موضوعاً للحديث، فتأثرت لمحاولاته الضعيفة الفاشلة، وأشفقت عليه. لم تكن وحدته وندرة الأصدقاء من حوله أمراً مُستغرباً، كان ولداً لا يعرف -بتاتاً- كيف يخلق حديثاً أو يُلقي نكتة، فاقداً لكل مقومات الفكاهة وخفة الدم، ويصعب إضحاكه أيضاً.

ولكنه طيب، طيب جداً، ولهذا ترحمه كثيراً. رأيتَه ينظر إلى كتابه في حضنه وكأنه يستذكر درساً، ثم التقط قلم الرصاص، وانغمس في حل واجبه، فيما بقيت تراقبه، ساكناً ودافئاً كفيك في حضنك.

- فيصل هل تساعدني؟

- في ماذا؟

- أشار إلى كتابه، فابتسمت قائلاً:

- لا أعرف الرياضيات، ولكنني قد أساعدك في اللغة الإنجليزية.

- آه، اللغة الإنجليزية معضلة حقيقية، هذه المادة لم أتعب نفسي يوماً في حل واجباتها، أعرف تماماً أنني لن أفهمها مهما حاولت. هل تترجم لي بعض الكلمات؟

سرعان ما تلوّنت نبرته بالأمل والتفاؤل، وهو يسألك سؤاله الأخير. انتشل حقيبته الزيتية من الأرض وهو يبتسم، وأخرج كتابه ثم أشار إلى صفحة تملؤها الكلمات:

- هذه الصفحة صعبة جداً، ترجمها لي، لو سمحت.

مد إليك قلم الرصاص، فأخذته وبدأت تترجم. مضت دقائق قليلة، انشغلت خلالها بالترجمة والحل، وغبت عن العالم تماماً. وحين رفعت رأسك، اكتشفت أنك وحدك في الغرفة.

وقعت عينك على الباب الذي كان موارباً، تساءلت، هل خرج خالد خلصة؟ وفجأة، نظرت إلى الكتاب بين يديك، وإلى جلستك العجيبة، وانغماسك في الحل، وغيابك عن العالم، وأشفقت على نفسك.

منذ متى أصبحت على هذه الحال؟ رجل يشتري الطعام والحلوى والملابس في النهار لفتاة لا يعرفها، وينتقل في آخر المساء إلى حي آخر، حيث يساعد أباها ويجالسه و.. ويحل واجباته؟! ضحكت ساخراً على حالتك الغريبة، وشعرت أن الحياة قسمتك إلى نصفين، نصف للمي ونصف لخالد.

تذكرت ما قلته لفهد تلك الليلة، تذكرت كيف أقسمت أنك ستنتهي كل شيء إن لم يوافق خالد على الخروج من البيت، ثم ضحكت ساخراً من هذه الذكرى. اليوم أنت بلا خيار، اليوم، تجبرك الحياة على التخلي عن آخر قطرة من كبريائك، وحيث يجلس خالد، سيكون عليك أن تجلس. أطلقت تنهيدة عميقة، وسألت نفسك، والآن ماذا؟

لقد فعلت مع خالد كل شيء حتى يحبك، تقربت إليه بكلماتك وأفعالك، خفضت له جناحك كثيراً، سكبت عليه اهتمامك وعطفك حتى شعرت أنك صرت، بدورك، تحبه صدقاً لا تمثيلاً، وليتك بعد كل هذا استفدت شيئاً.

ما فائدة أن يحبك خالد إن لم يفش إليك بأسراره وهمومه؟ شعرت أن عليك أن تضيف شيئاً جديداً إلى الخطة، ولكن كيف؟

الآن، وفي هذه اللحظة، اكتشفت أنك وصلت، إلى الطريق المسدود الذي أخبرك عنه فهد.

في الشقة، حين وصلت، وقفت لمي فور دخولك، وصارت تحديق بك وأنت تمشي إلى الغرفة.

- ماذا؟

سألته، فاقتربت إليك والقلق يسكن مَحِيَّاهَا، ثم أطرقت رأسها، وقالت، وهي تفرك كفيها:

- فيصل، هناك شيء يجب أن أقوله لك.

أجبتها، كنت قد أوْشكتَ على الانفجار.

- اللهم اجعله خيراً، ماذا؟

- أقصد، يجب أن أقوله لخالد، أرجوك دعني أراه فالأمر ضروري.

رفعتُ رأسها تتوسل، فضاقت بك السُّبل، وشعرت أن بينك وبين الانهيار شعرة رقيقة.

- قولي لي، ما الأمر؟

- أرجوك فيصل.

أطرقت رأسها مجدداً، واكتست نبرتها بلوعة البكاء.

-لا أستطيع يا لمى.

- ولكن ...

- لا إله إلا الله!

أخذ نشيجها يعلو، فرفعت رأسك صوب السماء، وحاولت استنشاق آخر ما يمكنه أن يُبقيك ثابتاً. نزلت إليها، جلست القرفصاء، وشدت على معصمها:

- قولي لي ما تودين قوله لخالد، وأنا سأفكر في طريقة، أوصل من خلالها الكلام.

- لم لا تدعني اتصل به؟

- تتصلين به وأنت لست في البيت؟ هل ستقولين له بأنك خارج المنزل؟ وعند من؟ عند فيصل!! هل جننت يا لمى؟

- أرجوك فيصل!

- اسمعيني، خالد أساساً لا يملك هاتفاً، لا أدري ما السبب. قولي لي ماذا لديك وأنا سأوصله إلى خالد.

مسحت عينيها بطرف كمها، وقالت بعينين حمراوين:

- ذات مرة، كنت جالسة في البيت مع زوجة أبي، فأخبرتني أن أبي قد كتب البيت باسمها قبل أن يموت، أو باسم أخيها. لم أتذكر ما قالت بالضببط، ولكني أتذكر بأنها ادعت هذا عدة مرات، وقد كنت لا أصدقها. في أحد المرات، أخرجت من خزانتها ورقة غريبة لم أفهم

محتواها، وقالت لي بأن هذا ما يثبت ملكيتها للبيت. يجب أن يتصرف خالد مع هذه
المحتالة في أسرع وقت، أرجوك يا فيصل.

أغمضت عينيك مع رجائها الأخير، كانت هذه هي آخر مصيبة، قبل أنت تكتشف أن الطريق
المسدود، صار مستحيلاً.

(9)

الجمعة، 16 جمادى الثاني، 1437هـ

ثلاثة أسابيع جديدة، مضت على هذه العلاقة.

ثلاثة أسابيع وروح خالد بلغت دنيا السحاب، وصارت تنهادر مطمئنة على شواطئ الغيوم،
وتنام، وتتلذذ، وتتلفس أماً وحلماً.

ثلاثة أسابيع وتلونت الدنيا في عين خالد، كما اكتسب الكون في عينيك لون الرماد، وساد
الفراغ جوفك، وانحدرت روحك تدريجياً، نحو أودية الحزن.

ثلاثة أسابيع وأنت تزور خالد بشكل شبه يومي، بمعدل ستة أيام في الأسبوع. تدلف إلى
الحارة في التاسعة والنصف من كل مساء، تشم رائحة مميزة تعلن وصولك إلى معسكر
الأفارقة في أول الممر، رائحة تشبه رائحة الحناء، تنتشر في الهواء. تتجاوز التفتيش
بسهولة بعد أن صار وجهك مألوفاً لديهم، ثم تركز سيارتك قريباً من الباب، وتدخل.

وحين تستوي على سرير خالد، تغمرك حالة من السكون، وتظل عينك ثابتتان على الجدار،
أو على خالد، العاكف على كتابه. لم تعد تتكلم معه كما كنت، لم تعد تؤلف القصص
والحكايات والمواقف الظريفة من أجله. وجدت نفسك، تسلك طريقاً آخر إلى قلبه من غير
تخطيط، وأصبحت في ظرف أيام، مدرساً خصوصياً يعلمه مفردات الإنجليزية ويبحث له
في هاتفه عن شروحات الرياضيات. وكما استولت لى تقريباً على جهازك الحاسوب، صار
هاتفك لا يفارق يد خالد، حتى تنتهي الزيارة، وتغادر بيته صامتاً.

زياراتك لخالد أصبحت بلا هدف، وحياتك باتت أكثر فراغاً بعد أن فقدت الاستمتاع بالأفلام وبكل شيء. لم يعد وجه أبيك هو الوجه الذي يطمئن كلما رآك بجانبه، صارت علاقتهما أكثر جفافاً من قبل، ولم تعد زيارتك، المتكررة كل ثلاثة أيام، تعيد شيئاً من رطوبة المشاعر.

عشت أياماً لا تشبهها أيام. كنت تشعر، كل يوم، بمشاعر متناقضة كلياً، عُمرت بالسعادة والفرح، كما أغرقتك الأحزان والدموع.

كنت في كل مرة تركب فيها سيارتك ليلاً بعد انتهاء الزيارة، يداهمك الضيق فجأة، تقلب عينيك في الأرجاء المظلمة من الحارة وتسودّ الحياة في عينيك، ويطبق الاكتئاب على صدرك. تعود إلى الشقة ذابل الوجه ثقيل الخطى، ترمي نفسك على السرير ويلتف جسك مثل حلزون، يختفي رأسك تحت الغطاء، ثم يتسلل صوت نشيجك من أسفل الوسادة، يشبه صوت قط جريح.

ويأتي الصباح، يغسل معه هموم الليل، ويحيل ظلامه نوراً وضياء. ترتدي ثيابك، وتخرج لتشم ضوء النهار، وما إن ينفذ الضوء عبر مسامك، تتجدد روحك، ويغمرها التفاؤل والارتياح، ثم تنمو في داخلك قوة عظيمة، تتشجع بها على الذهاب إلى خالد.

ويمضي النهار مثل كل نهار، تعد الساعات حتى يحين موعد زيارة خالد، ثم تغادر بيته، وتبكي حين تستلقي على سريرك، حالفاً ألا تعود. هكذا، تُعيد الأيام أحداثها.

تحول خالد إلى شخص كثير التبسم والكلام، صار أكثر وضوحاً وشفافية ولم تعد نظراته تفصح عن ألم وهم. في كل مرة ينظر فيها إليك تلمس في وجهه الارتياح والسعادة، وفي كل مره يبتسم فيها إليك، ترحمه أكثر.

ذات مرة، طلب منك أن تزوره يوم الجمعة ظهراً لا ليلاً، لأنه لا يذهب إلى الورشة في هذا اليوم. لم تمنع هذه الفكرة، وخطر في بالك أن تجربها اليوم. استيقظت في العاشرة صباحاً ككل يوم، وعند الواحدة ظهراً، وصلت إلى الحارة.

كانت الشمس ساطعة، والنهار يبعث نسيماً منعشاً يغسل أرواح الخلق. وقفت، بعدما نزلت، في وسط الحارة حيث يختفي الظل، ومكثت تحت أشعة الشمس خمس دقائق، تسحب نفساً عميقاً، وترجو أن يملأ الضوء جوفك.

استفتقت على صوت باب يُفتح، ورأيت خالداً يطل من الباب، وابتسم. رفع يده مرحباً بمجيئك، ثم اقترب إليك فتفاجأت به يرتدي سروالاً وفانيلة بيضاء. سلم عليك بحرارة، وحين سألته عن سبب ارتدائه لهذه الملابس الداخلية غير المعهودة، أجابك وهو يضحك:

- يوم الجمعة!

واكتشفت اليوم، أن يوم الجمعة تميزه طقوس مختلفة، مميزة عن بقية الأيام. أخذ خالد بيدك، وقال، وهو ينظر في أعماق عينيك:

- تعال لأريك ماذا يعني يوم الجمعة!

أخذك معه إلى الصلاة، وحين دخلت، رأيت ما لا يرى كل يوم. على الأرض، جلس ستة رجال، مشكلين حلقة صغيرة حول سفرة طعام. وجوههم تتشابه، الملامح الهادئة ذاتها، السمار الفاتح ذاته، والثياب الرثة ذاتها. والعيون الوسنة التي يكسوها الضعف، ذاتها. رأيت المساند الحمراء التي وُضعت للجلوس أزيحت إلى الزاوية، وانكشفت مساحة من البلاط الأصفر الفاقع، وامتلات الأرض من حولهم بالأحذية، وبالقراطيس وأكياس الطعام.

لمحت من بينهم رجلاً رأيتته من قبل، هذا نوري، يخبرك خالد، وهؤلاء أصدقاؤه الخمسة المعروفون. يبدأ خالد بتوضيح الأمور. هؤلاء الهنود الخمسة يجتمعون كل يوم جمعة في هذا البيت، يُلقون أحذيتهم في كل شبر، ويزيحون المراتب، ويبسطون غداءهم على الأرض. تزدهم الصلاة طوال فترة مكوثهم بالأواني المتسخة وبقايا الطعام، وينتشر فيها خليط من روائح البهارات والدهن، ورائحة الأحذية المقرفة.

وحين ينتهي الغداء، يذهب نوري إلى المطبخ، ويحضّر إبريقاً من شاي الكرك مع بعض المكسرات. في حين، يفتح الباكون التلفاز على القنوات الهندية، ويتبادلون "اللبان" الهندي الأحمر. يمضي الوقت، ما بين المشاهدة، وما بين مضغ اللبان الأحمر، الذي ينتهي به المطاف مبصوقاً على الأرض، أو عند عتبة الباب حين يغادرون.

"إنه ببساطة، يوم الجمعة" يرفع خالد كتفيه، ويقول مبرراً، في حين تحدد أنت في عينيه باحثاً عن تفسير. يواصل سرد عجائب يوم الجمعة، ويقول:

- في هذا اليوم، ينقلب البيت يا فيصل رأساً على عقب، وتتغير أجواؤه تماماً عن بقية الأيام. تشعر تارة أنك في مومباي، وتارة أنك في قلب حضرموت. كنت في النهار لا أسمع إلا رطن الهنود من حولي، وفي الليل حين يحضر عبد الرحمن وأصدقاؤه ويحضرون لجلسة الطرب يتدفق إلى مسامعي لحن العود العدني الأصيل.

يتنهد خالد، ويخبرك عن اشتياقه لتلك الجلسة، وتلك العادة التي اندثرت بعد رحيل عبد الرحمن.

- لدى عبد الرحمن أصدقاء كثر، يحضرون جميعاً بعد صلاة المغرب ويجلسون في الصلاة - ونُدعى أنا وعلي إلى مشاركتهم الجلسة. رغم أنهم لا يتركون لي مجالاً للحديث بسبب

صغر سني إلا أنني أستمتع بسماع أحاديثهم وقصصهم، وأستمتع عموماً بأجواء الجلسة حين نشرب الشاي العدني ويبدأ صالح بالعزف على العود. وحده عبد الرحمن من كان يوقف نوري وأصدقاؤه عند حدودهم ويجبرهم على الخروج بعد صلاة العصر. الآن، أصبحوا بعد رحيله يجلسون حتى الليل ولا يُبالون.

قال جملته الأخيرة وهو ينظر، باستياء، إلى نوري وأصدقائه. لم تعلق على شيء مما قاله، ورغم أنك لم تتكلم أبداً إلا أن وجهك كان ييوح بكل شيء.

- هذا أمر طبيعي جداً يا خالد.

همست، وأنت تنظر بوجه خالٍ من أي تعبير. أضاف خالد:

- في يوم الجمعة لا يمكن أن تجد دورة المياه فارغة من الثانية ظهراً حتى صلاة المغرب، فالجميع يغسلون ملابسهم ويستحمون في هذا الوقت مستغلين دفاء النهار. وفي يوم الجمعة، يكون من الطبيعي جداً أن ترى أحدهم يجلس في الصالة عارياً إلا من فوطة يلفها على خصره، ويكون منظر الملابس الرطبة الملقاة في كل شبر من الصالة مألوفاً جداً.

- هذا أكثر من طبيعي يا خالد.

- وماذا عن عادة نشر الملابس في الشارع؟ يُخرج ضمير، عصر كل جمعة، منشر ملابس، ويضعه في الشارع أمام الباب. يعلق ملابسه، ويسمح للجميع بأن يعلقوا ملابسهم عليه.

- هذا بالذات، أمرٌ مألوف. لقد رأيت مرة هذه العادة أمام أحد البيوت القريبة من هنا لهذا لا أستنكر الوضع.

- وفي النهاية، يجدون ملابسهم مسروقة وثباع في ممرات سوق الحراج بأرخص الأثمان!

قال خالد بسخرية، فأجبت بتعاطف:

- مساكين. ماذا عنك؟ أين تنشر ملابسك؟

- فوق المدفأة!

ورفع حاجبيه، وابتسم. ويوم ابتسم، ونظرت إلى عينيه وإلى انفراج شفتيه المتشققتين، ارتسمت على شفتيك ابتسامة حزينة، وشعرت برغبة في الضحك والبكاء معاً. في طبقة ما من المجتمع، يزهو أحدهم بنفسه، لأنه يمتلك مدفأة زيت مستعملة لا يمتلكها الجميع، مدفأة ينشر ثيابه عليها ما يجعله مميزاً عن البقية. إنها الفروقات الطبقيّة التي باعدت بين عالمين، إنها الفوقيّة التي جعلتك عاجزاً تماماً عن إدراك هذا الشعور.

دعاك خالد إلى غرفته، وأخبرك أنه سيعرّفك على شخص لطالما حدثه عنك كثيراً. حين دخلت إلى غرفته وجدته قد وضع مسندتين طويلتين على الجدران في الزاوية الفارغة من الغرفة، ووضع صينية معدنية تحتوي على علبة لبن وثلاثة كؤوس ورقية. جلست على الأرض وأنت تسأله:

- هل جهزت هذه الجلسة من أجل علي؟

- من أجلكما معاً. سيحضر علي ومعه الغداء بعد قليل، سنتغدى سوياً.

تفاجأت بكلامه، وتذكرت فوراً ما حدث في الأسبوع الماضي، يوم أجبرت علي مصافحة علي، خدّاً لخد، حين مد يده إليك بحضور خالد. لم تشعر في تلك اللحظة بأية مشاعر، ولكن، حين خرجت، راح ذاك الصوت الداخلي في رأسك يزن ويطن، الصوت الذي قال لك إن واحداً من قوانينك الخاصة قد اخترق، وإنك هُزمت، وإن شيئاً ما في رأسك انكسر. ومثل كل مرة، ضخمت أحزانك بنفسك، وعدت إلى الشقة لتبكي مثل كل ليلة. في صباح اليوم التالي بلغ شعورك بالسخف أقصاه، وازددت احتقاراً لنفسك، وكان ذلك هو الصباح الوحيد الذي استكملت فيه بكاء الليل. ذرفت عدة دموع حارقة وقهرت نفسك بكلام لا يُسمع، وحين جفت الدموع، وخفت الحزن، قررت أن تتبدل إلى الأبد.

منذ ذلك اليوم، ما عدت تحارب نفسك أبداً، صرت صديق نفسك وصار صوتك الداخلي يواسيك، ويهمس إليك في كل لحظة أن لا شيء يستحق.

بعد دقائق دخل علي حاملاً كيس الغداء، مرتدياً ثوباً بيجي اللون ويلف على رأسه غترة بيضاء.

اقترب ليسلم على خالد، كان مبتسماً ابتسامة صافية تزين وجهه الحنطي الفاتح، وتحفر حول عينيه خطوطاً من تجاعيد. صافح خالدّاً لخد، وحين التفت إليك، صافحك بحرارة، كأنما يصافح شخصاً يعرفه.

جلس على الأرض، وراح هو وخالد يمدان سفرة بلاستيكية، ويسكبان فوقها كيس الأرز البخاري الأصفر، ويوزعان على أطرافها الليمون والبصل. شرع خالد يسكب اللبن في الأكواب، ثم مد إليك كوباً، ودعاك إلى السفرة وهو يبتسم. مُجدداً، ابتسمت ابتسامتك الحزينة، وراودتك الرغبة ذاتها، الرغبة في الضحك والبكاء معاً.

لو أخبرت أنك ستجلس يوماً على سفرة مثل هذه لما صدقت أبداً، فإذا بك تجلس عليها اليوم، في غرفة متواضعة جداً، برفقة شخصين لا يشبهانك ولا يعرف أحدهما كم تختلف عنهما كثيراً. يا لها من أعجوبة، كل لحظة مضت، كل سلوك فعلته منذ أن تعرفت على خالد هو بمثابة أعجوبة باهرة، أعجوبة يستحيل تصديقها.

ابتسمت لخالد بلطف، وأخبرته بأنك تناولت غداءك قبل مجيئك إلى هنا. مكتفياً بكوب اللبن، أخرجت هاتفك وتصنعت الانشغال به فيما انشغل خالد وعلي بتناول الطعام.

طوال فترة الغداء لم يتوقف خالد عن الحديث، كان يحدث علي عن الورشة وعن العمل ولا يجد منه سوى المهمة وبعض الردود القصيرة. لعلي شخصية هادئة جداً، يبدو حتى أهدأ من خالد. ملامحة متخمة بالطيبة والحنو، كم عمره يا ترى؟ تساءلت، وأنت تحديق في وجهه أكثر من شاشة الهاتف. لاحظت أن لديه شعيرات بيضاء ناتئة في صدغيه، وجلداً مجعداً حول عينيه الواسعتين. هل هو في أواسط الثلاثين؟

أطرقت عينيك حين التفت إليك فجأة، وقال:

- حدثني خالد أنك صحفي.

هزرت رأسك، ونظر إليك خالد، وابتسم.

- هل تكتب في السياسة؟

- لا، في المواضيع الاجتماعية وحسب.

- جميل، لك عمود مخصص إذاً؟

- لا. أنا أرسل المقالة متى ما كتبتها، وليس لي عمود مخصص، فأنا لا أكتب بشكل منتظم.

أجبتته بارتباك، فعاد يسأل:

- هل تكتب باسمك الحقيقي أم باسم مستعار؟

ابتلعت ريقاً يسيراً وازداد ارتباكك أكثر فأكثر. هل سيبحث عن الاسم لو أخبرته؟ هل سيفتش في الصحيفة عن مقالات لا وجود لها؟ بم تجيبه؟

- يا علي، من يكتب باسم مستعار في هذا الوقت؟ لا أحد. أنا اكتب باسمي، ولكن، مضى وقت طويل على آخر مقالة أرسلتها، ربما شهر، أو أكثر.

- هل ظهرت مرةً في مقابلة في أحد البرامج التلفزيونية؟

- لا!

التفت علي إلى خالد مستغرباً، ثم قال:

- لماذا! أنت من الأشخاص الفعّالين في المجتمع المتفاعلين مع قضاياها، لماذا لم تتم مقابلتك كما يُقابل الصحفيون في كثير من البرامج؟

- لا أدري! بصراحة لا أدري. أنا أساساً، لا أحب هذا. لا أحب الظهور في القنوات، لست جريئاً بما يكفي، ولا أعتبر نفسي جديراً بالظهور.

كان كلامك متقطعاً، استغرقت بين كل جملة وجملة لحظة لتفكر. نبرة الثقة في أحاديثك اختفت، وأسلحتك التي تستخدمها للإقناع كلها تبددت، وخرج حديثك خاوياً إلا من رعشة المتوتر وارتباك الكاذب.

في آخر لحظة، نظر خالد لعلي، وقال مبتسماً:

- فيصل ناشط في الأعمال الاجتماعية أكثر من الكتابة الصحفية. إنه يزور الفقراء في بيوتهم، ويدرس حالاتهم ويقدم لهم المساعدات المعنوية!

- لقد أخبرتني بهذا. فيصل، لطالما حدثني خالد عنك وعن تواضعك، وعن أخلاقك السامية الفريدة. أنت من العينات التي بالكاد نراها من حولنا يا فيصل. إن مجتمعنا محظوظ بوجود أشخاص مثلك، أشخاص رحماء متعاونون لديهم رغبة يدفعها الأمل العظيم في استصلاح سلبيات المجتمع. أشخاص لا يجلسون على مكاتبهم ويأمرون، بل يخرجون بأنفسهم ويخالطون كل طبقات المجتمع ليروا العالم من حولهم كيف يعيش. أشخاص، فوق هذا كله، يعملون بلا مقابل، لأنهم يفعلون هذا بدافع الإنسانية وحدها. خالد محظوظ بصدافتك، ونحن عموماً، محظوظان بجلوسك معنا.

تفاجأت بلسانه الذي انطلق فجأة، تفاجأت بالتفاصيل التي نقلها خالد إليه وبالمديح الذي أمطرت به من غير مقدمات. كان حديثه متخماً بمشاعر الإعجاب والافتخار، وما كاد ينهيه حتى رأيته يذكر الله ويسمي عليك. نظرت إلى عيني خالد مندهشاً، ثم شكرت علي بإحراج، وتنامى في داخلك شعور غريب.

حين انتهى الغداء، لملم خالد سفرة الطعام وخرج ليضعها في القمامة. في حين كنت غارقاً في التفكير ونظراتك تسبح في الفراغ، رجع خالد إلى الغرفة وأخرج من خزائنه ثلاثة الشاي المعدنية، وقال، وهو يرتدي نعليه عند الباب:

- سأذهب لأحضر الشاي من المطعم القريب، أرجوكما لا تغادرا، أريد أن أجلس سوياً.

قالها بتوسل، وحين أومأت إليه ابتسم، وخرج ليترككما وحيدتين. التفتت إلى علي فوجدته ينظر إليك وقرأت في وجهه آلاف التساؤلات. أشعل سجارة، وجلس ناصباً إحدى ساقيه، وسألك باهتمام:

- هل درست علم الاجتماع؟

- لا، درست علم النفس.

- علم النفس!

- ما الغريب في هذا!

اتسعت ابتسامته فجأة:

- إذاً لا شك أنك تعرف فرويد ونظرياته المثيرة للجدل، واعتقاداته بأن الجنس هو القوة الوحيدة الكامنة التي تسيطر البشر من الولادة إلى الممات، ولا بد أنك سمعت مرة عن عقدة أوديب التي لا ينفك فرويد نفسه يكررها ويرجع كثيراً من السلوكيات إليها؟

- كيف حصلت على هذه المعلومات؟!!

سألته بتعجب، كان يجلس وكأنه عالم فذ يستعد لجلسة نقاش.

- عبر القراءة.

- أنت قارئ!

- بالطبع، أحب أن أقرأ عن العلماء والعظماء والثوار والسياسيين. قرأت عن كارل ماركس مؤسس الشيوعية العالمية وعن نظريته المادية الجدلية، قرأت عن جيفارا، الطبيب الثائر الذي شارك في الثورة الكوبية ضد النظام الديكتاتوري آنذاك، قرأت عن لينين وستالين، وقرأت روايات تولستوي كلها. مؤخراً، زاد اهتمامي بطب النفس، وصرت أقرأ عن العلماء النفسيين، مثل فرويد وديكارت.

- حقاً! متى قرأت عن كل هؤلاء؟

- منذ عامين وأنا أقرأ، لا أكاد أنتهي من كتاب حتى أبدأ بالآخر.

- ومن أين تحصل على الكتب؟

- لدي مكتبة صغيرة في غرفتي، أزودها بالكتب الجديدة من حين إلى حين. وحين أعود من عملي، أجلس في غرفتي طويلاً وأقرأ.

تعجبت، بدأ حديثه يشدك، وتشوقت لسماع المزيد. التفتت إليه بجسدك كله، وسألته باهتمام:

- ما نوع وظيفتك يا علي؟

- أنا أعمل مُصلحاً ميكانيكياً، أصلح الأجهزة المنزلية وبعض الإلكترونيات، ولي محل صغير قريب من هنا.

- وما الذي جعل ميكانيكياً مثلك يقرأ؟

سألته بشيء من السخرية، فابتسم ابتسامة تشبه الضحكة:

- ألا يقرأ الميكانيكيون؟ القراءة ليست حكرًا على أحد. ميكانيكياً كنتُ أو حارساً أو حتى عامل نظافة فلا فرق، كلنا قد نمتلك شغف القراءة.

فتحت عينيك بدهشة:

- ولكن ما تقرأه أنت لا يقرؤه هواة القراءة عادة، خاصة ما يتعلق بطب النفس.

- أنا شغوف بالتعلم، لهذا أحب أن أقرأ الكتب العلمية وسير العظماء. هل ستصدقني لو قلت لك إنني قرأت مبادئ إسحاق نيوتن، و"كفاحي" الذي كتبه هتلر بنفسه، وعكفت على مجلدات البداية والنهاية حتى أنهيتها؟

لم تنطق بكلمة، ولم يرَ في عينيك إلا الدهشة والتعجب. أطفأ سيجارته في الصينية المعدنية ثم نهض فجأة، وقال جاداً:

- تعال معي، سأريك مكتبتي.

في تلك اللحظة، رأيت غرفة علي لأول مرة.

الغرفة التي تقع في الممر قبل الصالة، تلك كانت غرفة علي، الميكانيكي، التي يخيل لزارها حين يدخلها أنه في ورشة تشليح.

غرفة واسعة بيضاء تغطيها سجادة بنية، في يسارها يتربع سرير حديدي أسود، بجانبه خزانة خشبية في الزاوية اليسرى. الزاوية اليمنى من الغرفة، كانت عالماً آخر. على الأرض، مروحة مخلوطة تتدلى أسلاكها منها، بجانبها تلفاز بلا غطاء، وقطعة حديد يبدو أنها تنتمي لمدفأة، وعدد كبير جداً من المفكات والمسامير المنتورة على الأرض. كان منظرًا عادياً جداً، لم تتقزز، لم تشعر بضيق أو غثيان، ولم تحدق في الأشياء بنظرة كارهة حتى. كنت متشوقاً لرؤية الكتب النفسية التي تحدث عنها علي، تبعته حيث وقف أمام صندوق خشبي كبير، وحين انحنى إليه وفتحه، رأيت بداخله عالماً، بل عوالم عديدة، عوالم من العلم والتاريخ والأدب والفن.

كتب ذات عناوين غريبة، كتب من خمس مئة صفحة وأكثر، كتب لمؤلفين أعاجم، وكتب طبعت منذ عقود. سرعان ما داهمتك ذكريات الدراسة الجامعية ما إن لمحت مجموعة الكتب النفسية التي تحويها مكتبته، وشعرت بالحنين إلى تلك الأيام وأنت تقرأ أسمائها وأسماء العلماء. امتزج الحنين بالكُره والشوق بالنفور، وجمال الذكريات بتعاسة واقعها. أحسست بالدنيا تغييم في عينيك لما رأيت كتاباً مألوفاً ذا غلاف أخضر، التقطته، ورحت تتأمله لثوانٍ بطيئة قبل أن تقول لعلي بتفاجؤ:

- سيكولوجيا الذكاء، جان بياجيه!!

- ما به؟

- هل قرأت هذا الكتاب؟

- نعم.

- وما رأيك بجان بياجيه؟ جان بياجيه رائد المدرسة المعرفية البنائية، الذي قال بأن المعرفة بيئية، أي إن الذكاء والسمات الشخصية تؤثر عليها البيئة وحسب، متجاهلاً دور الوراثة والجينات؟

لم يكن سؤالاً من فراغ، شيء ما في داخلك يقول إن علياً يملك رأياً مختلفاً.

- جان بياجيه كان ينادي بتأثير العوامل البيئية والتربوية على البناء الشخصي وينكر الدور البيولوجي في مكون الشخصية. وأنا لا أرى هذا صحيحاً تماماً.

- يعني أن الذكاء قد يكون وراثياً، ولا يقتصر الدور على البيئة.

- صحيح، الشخصية والذكاء لا يعتمدان على الوراثة ولا على الاكتساب الاجتماعي والتربوي، يعتمدان على التفاعل فيما بينهما، أي تفاعل بين الموروثات وبين المحيط، وقد

يكون لأحد هذين الشئيين تأثير أقوى في بعض الحالات. هذا ما يثبتته كل من كلارك هل وأدون قاثري وإيريك فروم.

- من هؤلاء!

- علماء المدرسة السلوكية والتحليلية.

- آخ، لو كنت أعرف هذا قبل ست سنوات!

رجعتما إلى غرفة خالد، واستمع علي لحكاية انسحابك من الجامعة، حكاية ذلك اليوم الذي لم يمض على خير أبداً.

يومها، كان الأستاذ يناقش الطلاب في نظريات جان بياجيه حول الذكاء. أوضح بحديثه أنه متفق تماماً مع ما يقوله بياجيه، وأن الذكاء بيئي حتمي. رفعت يدك معترضاً، مثل كل مرة يقول فيها أحد الأساتذة رأيه. حين انتبه إليك، استاءت ملامحه، وأشار إليك بالتحدث.

أخبرته بثقة أنك لا ترى بياجيه محقاً تماماً فيما يراه، هناك دور أساس للجينات الموروثة والعوامل البيولوجية الأخرى في اكتساب الذكاء وتكوين الشخصية لا يمكن تجاهله بهذا الشكل. لم يكن الأستاذ في مزاج جيد ليسمع اعتراضات الطلاب، الوقت لا يكفي، المعلومات كثيرة، والاستماع إلى اعتراض طالب يتحدث نافخاً صدره بثقة هو أكثر ما يمكن أن يكرهه الأستاذ. يزداد الأمر سوءاً حين يكون هذا الطالب هو أنت، كان يعتقد أن معارضة آراء الأساتذة وانتقادها هي هوايتك المحببة. يتحمل الأستاذ الجامعي -غالباً- كل المشاعر السيئة إلا أن يثبت أحد الطلاب خطأه وقله فهمه ويوقعه بموقف محرج أمام الطلاب. أخذ الأستاذ يناقشك متمسكاً برأيه، وحين طال النقاش ازداد تضجراً، وسألك بسخرية: من أنت؟ من أنت حتى تنتقد عالماً مثل جان بياجيه؟! شعرت بالإهانة، ولا تدري كيف جاءتك الجرأة لتقول له إن انتقاد الأفكار العامة هو حق للجميع، ومن العار أن يقول أستاذ جامعي مثله هذا الكلام. اكتفى الأستاذ بجملة واحدة: فيصل، أنت مطرود. كانت تلك الحادثة، هي القشة التي قصمت ظهرك، تحملت كل ما يحدث لك في الجامعة طوال ثلاث سنوات والآن لم يعد بوسعك التحمل أكثر.

تكرر غيابك عن المحاضرات بعد ذلك اليوم وتوالت الإنذارات تبعاً، حتى حُرمت من ثلاث مواد إضافة إلى ثلاث كنت تحملها، وهكذا قررت أن تنسحب من الجامعة انسحاباً نهائياً.

لو كنت تقرأ مثل علي، لاستطعت أن تتكلم مثله كلاماً مدعماً بالأدلة، لما صُنِفَ كلامك على أنه مجرد آراء شخصية ولما صار موقفك ضعيفاً في أغلب الأحيان. لا تدري كيف استطعت تذكر كل هذه التفاصيل التي سردتها لعلي، ولا تدري كيف تجرأت على تذوق الشاي العدني الذي أحضره خالد أثناء حديثكما وكان الموازين كلها انقلبت رأساً على عقب.

ما إن تذوقت الشاي، حتى أحسست بنكهة القرنفل والحليب والهيل تلسع لسانك، كانت لذیذة رغم وضوحها وحدة طعمها. جلس خالد بجوارك بعد أن سكب الشاي لعلي، وراح يراقبكما وأنتما تتحدثان بانسجام.

سألت علي، فور انتهاء هذا الحوار، بينما لا تزال آثار الدهشة واضحة في نبرتك:

- ألم ينتبه أحدٌ لكونك على هذا المستوى من الثقافة؟ ألم تسمع يوماً ثناءً أو إشادة من أحد؟

- من سينتبه يا فيصل؟ الميكانيكيون في المحلات المجاورة؟ العمال في الشارع؟ أم نوري وأصدقائه؟ هل يمكن أن أجد أحداً يسألني عن رأيي في روايات تولستوي السياسية أو عن نظريات ماركس، أو عن معلومة هنا أو هناك؟ لا يمكن لقارئ مثقف أن يُظهر مستوى ثقافته إلا حين يخوض حوار علمياً أو يسأله أحد، وقد يعيش المثقف منا حياة كاملة، دون أن يسأله أحد.

عرفت من علي، خلال هذه الجلسة، أن عمره ثلاثة وثلاثون عاماً، وأنه يعيش هنا بلا عائلة، فقد تركها في اليمن منذ خمس سنوات. أخبرك بأنه جاء إلى هنا ليجمع المال ليعالج عقمه الذي حرمه رائحة الأطفال وحلم الأبوة، وأنه عمل ميكانيكياً منذ أول شهر جاء فيه إلى السعودية. سألته حين أنهى حديثه بتعجب:

- إذاً خمس سنوات وأنت تقيم هنا، ألم تجمع المال الكافي حتى الآن؟

نظر إليك بحزن، كان يخشى هذه اللحظة، التي يسأله فيها أحد هذا السؤال. تنهد، وأشاح بوجهه في الفضاء، وظل يخفض رأسه حتى التصق ذقنه ب صدره. التفتت إلى خالد مندهشاً ومتسائلاً، فرأيتَه يحدق بعلي صامتاً وعيناه حزینتان.

- ما حدث لعلي قبل سنتين لم يكن شيئاً سهلاً أبداً.

نطق خالد، بعد لحظة من الصمت. سألته بدهشة:

- ماذا حدث؟

سكت، وبعد ثوانٍ، رفع علي رأسه، فرأيت وجهه قد اسود وشحب، وعيناه تحولتا إلى مغارتين مظلمتين. قال بلهجة يذوب لها القلب غماً:

- ظننت يا فيصل حين رجعت من السعودية أنني سأجد اليمن تفتح ذراعيها لي وتبتسم في وجهي ابتسامتها المألوفة، الجميلة رغم الجوع ورغم الفقر. لقد عشت طيلة حياتي في محافظة صغيرة شمال اليمن في بيت شعبي وسط جيران فقراء طيبين ورحيمي القلب، ووسط جماعة كنت أخالنا من فرط توادنا وتآلفنا عائلة واحدة. كنت أرى الجميع يبتسم رغم الفقر، يتفاعل رغم المعاناة، ويعطي رغم الحاجة. من خلال تلك الحياة التي عشتها آمنت بعدة أشياء، أولها أن لا شيء كالفقر يهذب النفس ويغرس في القلب الرحمة والتعاون، وثانيها أن الإنسان يغدر حين يشبع، لا حين يجوع. آمنتُ أن هذه هي اليمن، وهذا هو وجهها الرقيق فإذا بها تصدمني يوماً بوجه آخر لم أجد للرحمة أثراً في تقاسيمه.

- ماذا حدث يا علي؟ تكلم!

- سافرت قبل سنتين إلى اليمن، عائداً بسيارتي ومعني حقيبتني المملأ بالنقود. لم أعرف يا فيصل أن قطاع الطرق ينتشرون في الحدود، وقد عمروا عشوائياتهم وبيوتهم الحجرية ليعسكروا فيها. بعد أن تجاوزت البوابة ببضعة كيلوات حوصرت بسيارتين، ثم هجم علي في لحظة، أربعة رجال بملابس سوداء وأشمعة تغطي نصف وجوههم. سُحبت من سيارتي غضباً بعد أن كسر أحدهم زجاجها وفتح الباب، وأخرج أحدهم سلاحاً وخنجرأ أخذ يلوح به أمام عيني وهدد بغرسه في يدي إن لم أخبرهم برقم الحقيبة السري. أمام هذا الرعب كله شعرت أن حياتي قد انتهت، وأدركت أن صرخاتي في هذه الصحراء الشاسعة المقفرة لن يسمعها سوى الجبال والحصى والجن. لا داعي لأن أخبرك ماذا حدث في النهاية يا فيصل لأنك عرفت بلا شك، ولكن لا بد أن تعرف أن يدي، قبل أن تُفتح الحقيبة وتُسرق قد تمزقت عروقها وسال دمها أمام عيني وأني سقطت بعدها لغيوبة، دامت أسبوعين.

- لا إله إلا الله! يعني أن النقود التي جمعتها اختفت، هكذا بغمضة عين!!

سألته بدهشة، فتنهد وقال:

- فقدت المال وفقدت معه الأمل والتفاؤل والروح. حين استفتت وجدنتي صرت جسداً بلا روح، طلقت زوجتي لأنني شعرت أنني ظلمتها معي بما يكفي وسافرت إلى السعودية في أسرع وقت. من يومها، وأنا أخاف واقشعر كلما لاحت لي صورة اليمن، أو تذكرت أيام طفولتي وشبابي فيها. كرهت تلك الأرض وقررت أن أبقى بعيداً عنها قدر الإمكان. أعرف أن الأرض لا علاقة لها بما يفعله المجرمون عليها ولكن ما صادفته في الحدود تحديداً أشعرتني أن هذه الأرض أرض شؤم، تستقبل زوارها بالمصائب والنكبات.

- في المرة الثانية، لا تضع نقودك في حقيبة أبداً.

- لن تكون هناك مرة ثانية يا صديقي.

قالها بحزن، وساد الصمت.

امتألت الغرفة كآبة وحرزناً بعد حكاية علي، ومضى وقت، قبل أن يقف علي، ويقول مستأذناً:

- يا أصدقاء، لدي شغل وعلي أن أذهب الآن. خالد، شكراً على الشاي. فيصل، أريد أن نجلس معاً مثل هذه الجلسة في الجمعة القادمة فقد استمتعت كثيراً معك، إلى اللقاء.

غادر الغرفة، وأغلق الباب خلفه. التفتت إلى خالد فرأيته جالساً بهدوء، ضاماً ركبتيه إلى صدره ويحاوط ساقيه بذراعيه. سمعته يتنهد، ويقول بأسف:

- مسكين، أليس كذلك؟

- بلى، ولكنني أراه متماسكاً رغم كل ما حدث. جميل أنه عاود العمل مباشرة ولم ييأس.

- هذا الإنسان طيب القلب، لقد تبرع بإيصالي إلى المدرسة وإعادتي منها كل يوم.

- هل هو من يحضر لك الطعام؟

- لا، طعامي أشتريه بنفسه من المطعم القريب، باستثناء الغداء، نتشارك في شرائه أنا وعلي.

- كم مرة تذهب إلى المطعم في اليوم؟

- قبل أن أذهب إلى الورشة عصرأ أشتري شطيرة أكلها على الطريق، وفي المساء أشتري واحدة أخرى أو اثنتين، وفي الصباح أيضاً قبل أن أذهب إلى المدرسة.

- هل تخرج في أول الشروق لتمشي تحت البرد القارس على رجلك يومياً، فقط من أجل الفطور؟

هز رأسه، وقبل أن تتكلم قال بهدوء:

- المطعم قريب جداً يا فيصل، لن تتخيل مدى قربه.

سكت للحظات. لم يستسغ نظرات التعاطف التي أمطرته بها بعد هذا الكلام، لم يتحمل رؤية الشفقة وهي تنز من عينيك وتطفح. وقف، توجه نحو خزائنه ليأخذ ثوبه المعلق،

وشرع يرتديه وهو يقول بجدية:

- تعال، سأريك كيف يبدو مكانه قريباً جداً.

أمام إصراره رضخت، وخرجت معه لترى أين يذهب كل صباح. في تلك اللحظة شعرت أنك ستعيش يوم خالد لحظة بلحظة، وستتذوق المعاناة معجونة بحلاوة الرضا وطراوة الاعتياد. اتجهتما إلى المنعطف الذي يلي البيت مباشرة، فأقبلتما على ممر ضيق وقصير، يزداد ضيقاً كلما اقتربتما من نهايته، وعلى جانبه صفان من السيارات القديمة، آثار قطرات المطر مطبوعة على نوافذها. مشيت بجوار خالد صامتاً، في كل خطوة كنت تستشعر أحاسيسه حين يمر في هذا المكان، وتتخيل اللحظة نفسها وقتما تشرق الشمس وترتدي السماء جلبابها الأزرق الأنيق.

كان المطعم يقع يميناً بعد الممر مباشرة، محل صغير بباب زجاجي يحتوي على طاولتين فقط ولم تكن تتوقع شيئاً أكبر من هذا، ولكن قائمته عامرة بالأصناف كما يقول خالد.

عمر، العامل الهندي السمين يعرف خالداً منذ أن افتتح المحل، يجهز طلبه قبل قدومه وكثيراً ما يعطيه بعض الأصناف المجانية مكافأة لكونه زبون المحل الأول. يفتتح محله في تمام السادسة صباحاً، ويكون خالد أول القادمين، وأول من يبتسم في وجهه ويحييه تحية الصباح.

بدت على وجه عمر حين دخلتما الفرحة والابتسامة، سارع بالتقاط كوبين ورقيين وأوشك أن يملأهما بالشاي قبل أن يبتسم له خالد ويشكره على كرمه.

- ألم أخبرك كم هو كريم وطيب القلب؟

سألك وهو يضحك، فأجبتته بسرحان:

- بلى. أنت محاط بالكرماء واللففاء يا خالد.

كل مرة يدهشك خالد أكثر فأكثر. تعجبت كيف يعتبر نفسه بلا أصدقاء وهو يعرف من كل جنسية وكل لون شخصاً واحداً أو أكثر. في حياته، رغم الشقاء، ثمة ما يرطب جفاف الوحدة والغربة ويخفف وجع الاشتياق. ابتسم خالد بعد جملتك هذه التي لم يجد لها رداً، ولم يمض وقت طويل حتى خرجتما عائدين إلى البيت.

في هذه اللحظة، انبعث صوت الأذان قادماً من بعيد، صوت خاشع بلكنة هندية واضحة، يتردد في الأفق. تفاجأت حين طلب منك خالد أن ترافقه إلى المسجد، وتوجه بسيره

مباشرة إليه. لم تدرِ ماذا تفعل، مسجد، وضوء، صلاة! شعرت بقلبك يخفق سريعاً، ومن غير شعور، قادتك قدماك خلف خالد، إلى المسجد الحجري في آخر الشارع.

مع كل خطوة كان صوت الأذان يتجلى أكثر فأكثر، وكلما اقتربت أخذ الخوف يتسع في قلبك شيئاً فشيئاً. تفاجأت بضالة مساحته حين وصلت، وعلى نحو غريب، غمرتك حالة من الصمت. رأيت خالداً يتوجه نحو مغاسل الوضوء ويتوضأ ففعلت كما يفعل، وخرجت بروح جديدة غير التي دخلت قبل قليل. ازدحم المسجد تدريجياً مع تدفق المصلين من كل مكان، المعاطف الشتوية من كل لون، البشريات كذلك من كل لون، امتزجت والأجناس والألوان والروائح معاً تحت سقف من الخشب.

صادفت أولئك المراهقين الأفارقة الذين تراهم كل يوم، ابتسموا جميعاً حينما رأوك، فشعرت بأنك صرت أكثر من رجل مألوف يقابلونه عند مفرق الحارة كل يوم.

أقيمت الصلاة، واصطف الجميع متراصين. هذا المكان، الذي تذوب فيه كل الفروقات وتمتزج، اصطف فيه الآسيويون والأفارقة صفاً واحداً، ووجدت نفسك تقف من بينهم، واحداً يشبههم، منتصباً بين خالد وبين رجل هندي، لحيته سوداء طويلة. كنتم جسداً واحداً متماسكاً، انصهرت من بينهم واختفيت، ولم تجد في نفسك شيئاً يميزك.

بعد تكبيرة الإحرام الأولى، منذ خمس سنوات، كنت في أضعف لحظاتك، لحظة يشتبك فيها الخوف بالرجاء والراحة بالندم. صليت بسكون وشرود، وكانت صلاتك الأولى بمثابة رحلة في الذاكرة، رحلة استرجعت فيها كل ذكريات السنين الخالية وأيام الجنوح والتهيه.

وانتهت الصلاة، خرجت تبحث عن حذائك بين كومة النعل الملقاة حتى وجدته أخيراً، وخرج خالد بعد لحظات وهو يستغفر ويهمل. اقترحت عليه أن تخرجا للتجول في وضوح النهار فوافق، ومضى العصر كله في رحلة تخللها القليل من الكلام، والكثير من الصمت.

وجاء الليل، ورجعتما إلى البيت، بينما كانت المأذنة لا تزال تصدح بتلاوة الشيخ عبد الجليل وصداها يتردد في الأفق. كان عبد الجليل، الشيخ السوداني الذي يؤم المسجد منذ سنوات، معروفاً بتلاوته العذبة وصوته الشجي الدافئ، وكان يحب أن يطيل القراءة في صلاتي المغرب والعشاء. يتوافد الكثيرون للصلاة في المسجد من عمالة المحلات القريبة وأصحاب المنازل في هاتين الصلاتين تحديداً، لذا يحب خالد أن يصلي في المسجد الآخر القريب من الورشة حتى يجد مكاناً في الصف الأول.

أخبرك خالد بكل هذه التفاصيل وأنت تركز سيارتك قريباً من البيت. حين نزلتما، كانت هناك مفاجأة بانتظار خالد.

حين دخل إلى الصالة، تفاجأ بأن أصدقاء نوري قد تضاعف عددهم، وأن البيت قد أمسى ملجأ لعدد من عمال النظافة والمشردين الفقراء.

وقف في منتصف الصالة مذهولاً، نظر إلى كومة الأواني والطعام المتبسط في الوسط، وإلى التلفاز الذي يعرض فيلماً هندياً بفتيات عاريات البطن، واحتقنت أوردة جبينه بالدم والحقد. كنت تقف وراءه مباشرة، تتأمل الوجوه والمكان بملامح خالية من أي تعبير، حتى سمعته يهمس بضيق:

- أليس من الأفضل لو يأتي ذلك الحقيير الآن ليرى ما يفعله نوري وأصداؤه في بيته بدلاً من أن يفرد عضلاته على عبد الرحمن؟

ابتسمت بسخرية، وتبعته حيث مشى إلى غرفته مستاءً. خلع ثوبه وشغل المدفأة ثم جلس على السرير، فيما بقيت أنت واقفاً أمام الباب، تراقب شلة نوري من فرجته الضيقة. سألك خالد بعد لحظات عن سبب وقوفك هذا فضحكت، واقتربت لتجلس أمامه مبتسماً:

- ألم تسمع بمقولة "شر البلية ما يضحك"؟

ابتسم بحزن. فسألته بحنية:

- ما الذي يحزنك؟

- سيجلسون لآخر الليل يا فيصل!

- ما شأنك بهم؟ أنت دائماً في الغرفة.

- أعرف، ولكن أصواتهم مزعجة، كما أنني لا أشعر بالارتياح في وجودهم.

- خالد، ما دمت تسكن بيتاً مشتركاً فمن الطبيعي جداً أن تحدث أمور كهذه.

نظر إليك وهو يضيق عينيه:

- إذاً ألا يوجد حل؟

- الحل هو الانتقال.

زفر باستياء:

- لا أستطيع يا فيصل، تعرف أن وظيفتي قريبة من هنا، ولدي من يوصلني إلى المدرسة كل يوم.

رأيته يشيح بعينيه إلى الفراغ، تهرباً من نظراتك التي كادت أن تخرق لبه. تعرف أنه يكذب، تعرف أن حجته الأولى هي المال. هل يمكنه أن يجد مكاناً رخيصاً يشترك في دفع إيجاره الزهيد مع أربعة أشخاص غير هذا المكان؟ مستحيل. لكن لا أحد، سوى الله، يعرف هدفه الذي يجمع من أجله المال بهذه الطريقة. تبدو الحياة التي فرضها على نفسه من أجل هذا الهدف موهلة في الشقاء، ولكنه تكيف معها بأعجوبة. نظرت إلى خزانة الملابس وتذكرت أنه مرةً قد أخرج منها بعض الأواني أمام عينيك، فعرفت أنه حين لم يجد مطبخاً صالحاً كان هذا هو حله الوحيد.

وحين انعدمت غسالة للملابس، صار يغسل ملابسه في المغسلة وينشرها على المدفأة، وحين لم يكن باستطاعته أن يطبخ طعامه في البيت، صار يجلبه من الخارج. يا لهذا الولد، تكرهه لعناده، تعظمه لصبره وتحمله.

- فيصل أنا آسف. أعرف أنني أزعجك بكثرة شكواي وفي النهاية أرفض كل حلولك، أنا آسف جداً.

- لا تقل هذا يا خالد، ما فائدة الصديق الذي لا يستمع لشكوى صديقه ويمتص أحزانه وهمومه؟

وضعت يدك على كتفه وابتسمت، وأغلق الموضوع نهائياً، بعد هذه الجملة.

من يدري، لعل نوري وأصدقاؤه يصبحون يوماً سبباً في جعل خالد يفكر بالانتقال!

مضى يوم الجمعة، ودنت أجمل ساعة فيه بالنسبة لخالد، الساعة التي يعود فيها ضمير إلى البيت، ويكون متفرغاً ليحكي له شيئاً من الحكايات، عن الأرض النقية الطاهرة، أو "باكستان".

سمع منه الكثير عن هذا المكان، حتى صار يخال أنه يعرف قراها وشوارعها وزواربها تماماً مثل ضمير. سمع منه عن محمد علي جناح أول وأعظم قائد في باكستان، وكيف قادها إلى الاستقلال بالأغلبية المسلمة عن الهند والهندوس. حدثه عن كشمير، المنطقة التي تعاقبت على حكمها القبائل والإمبراطوريات ولم يكتب لها أن تستقل حتى يومنا هذا، وحدثه عن عادات وثقافات القبائل الكبرى في باكستان، البنجابيون والبلوشيون.

خلال أشهر، أصبح خالد يعرف عن باكستان ما لا يعرفه الكثيرون. في كل جمعة يجلسان معاً في زاوية الغرفة، ساعة أو أكثر فيها خالد المثير، تنتهي الجلسة بعد يغادر ضمير إلى غرفته، ويستسلم خالد للنوم.

وجاءت الساعة المنتظرة، ودخل ضمير إلى الغرفة مبتسماً ووجهه طلقاً، ملتحفاً بوشاحه الأخضر العريض. صافح خالدأً بحرارة، وصافحك كأنك شخص يعرفه منذ زمن طويل. يتميز ضمير بروحه الاجتماعية المرححة، يعرف، خلال سنوات عيشه الطويلة هنا، من الأصدقاء السعوديين ما لا تعرفه أنت ولا خالد، ويحفظ من الرياض وجوهها العديدة، الوجه المثالي، الذي يظهر دائماً في القنوات والمجلات، والوجه القبيح الذي تظهره الصحف في مقالاتها الكاشفة عن الحقيقة، والوجه الثالث المهمش فيما بينهما.

جلس هو وخالد سوياً مستندين على الجدار، وانضمت إليهما بعد دعوة خالد، وبعد ثوانٍ من التردد والانتظار. هذه المرة قرر ضمير أن يتجرأ، ويحكي لكما قصة عشقه التي انطوت واندفت قبل سبع سنوات.

يومها كان سائق شاحنة، يقود شاحنته الحمراء المزدهمة بالنقوش والألوان يومياً من بيشاور إلى إسلام آباد محملاً بعض الأقمشة والبضائع وبييعها على أصحاب المحلات. التقاها في سوق النساء، محتجبة بخمار الأحمر الخفيف، والتقت النظرة بالنظرة، ثم التقى البرد بالدفع، والجفاف بالري.

ورغم أفواج البشر الهائلة التي تملأ السوق، ظل يواعدها يومياً عند باب السوق، وكأنهما وحيدين. كانت تعرف شاحنته إذا وصل، بخلاف كل الشاحنات المزينة بالنقوش والألوان هناك، كانت شاحنته مميزة، ترتسم صورة محمد علي جناح شامخة على ظهرها.

وحين ترى تلك الشاحنة، تطلب من أختها الصغرى أن تنتبه للبضاعة، كي يتسنى لها أن تغيب لملاقة ضمير، ولا يستمر اللقاء عادةً، أكثر من ربع ساعة.

وكل قصص الحب غير المشروعة هناك، بُترت هذه العلاقة فجأة قبل أن تنتصف حتى. ذات يوم، قرر والد فاطمة زيارة محل ابنتيه، فلم يجد فاطمة هناك. أخبرته الصغرى أنها تستأذن يومياً وتختفي في الزحام، وحين راح يبحث عنها، وجدها هي وضمير، يقفان عند إحدى عربات الطعام المنتشرة على الطريق، في انتظار وجبتين خفيفتين. عنفت فاطمة،

ضربت وجلدت، ومنعت من السوق إلى الأبد. آخر ما سمعه ضمير عنها أنها صارت تعمل خادمة في أحد البيوت، قبل أن تنتقل هي وأسرته إلى لاهور.

نهاية كئيبة كانت، ولكنها في مجتمع منغلق مثل مجتمع باكستان الفقير، كانت متوقعة جداً. لم يكن خالد معتاداً على قصة مثل هذه، لقد اعتاد أن يستمع إلى وصف الحياة الفقيرة هناك، أن يتخيل مشهد الفلاحين يوم الحصاد، نساء الجبل وهن يحلبن الشياه، وشوارع المدينة المكتظة بالشاحنات والدراجات. أن يغمض عينيه ويتخيل الطبيعة في كشمير، مراعي الأبقار في وزيرستان، حيث السهول والجبال، واللون الأخضر الأبدى. ولكن قصة جديدة مثل هذه أشعلت في رأسه فكرة، التفتت إليك بحماس مفاجئ، وقال:

- فيصل، ما رأيك أن تكتب هذه القصة كرواية؟!

- رواية! أنا لا أكتب الروايات.

- أعرف، ولكنك كاتب على أية حال. اسمع، لدينا فكرة عظيمة هنا، وحكاية تستحق أن تكتب. سيكون بطل الرواية هو ضمير، نكتب عن طفولته البائسة مع أسرته الفقيرة، ثم عن شبابه حين كبر وعمل كسائق شاحنة، ثم حين التقى بحبه الأولي. سنجعل نهايتهما الزواج لا الفراق، وسنضمّن في الرواية، إلى جانب وصف الطبيعة والحياة الاجتماعية هناك، شيئاً من تاريخ باكستان السياسي. ما رأيك؟ أخبرني علي مرة أن أكثر الروائيين العظماء يحرصون على تضمين هذه الجوانب في رواياتهم، ستكون روايتك عظيمة يا فيصل!

حينها، ابتسمت ابتسامة واسعة، وكانت هذه آخر طقوس يوم الجمعة.

(10)

تمضي الأيام القادمة على نحو جديد ..

تمضي، وأنت تذوب بين البسطاء، وتجالسهم، وتصلي معهم في مسجد الحارة الصغير، المكان الوحيد الذي تتلاشى فيه كل الفروقات وتذوب. تمضي، وأنت تكتسب في كل يوم صفة جديدة، وتخلع أخرى قديمة، وتستبدل عادة مكان عادة حتى صرت لا تكاد تشبه ما كان عليه فيصل القديم.

ولأنك تجاهد كل يوم لئلا يطرق الاكتئاب جدار صدرك مجدداً، صرت أكثر انبساطاً وتقبلاً لما يحدث حولك، ولم يعد صدرك كما كان، يُراكم الأحقاد ويعظمها.

كل يوم، تتفاجأ بأن الجميع يحبك على نحو غريب.. خالد، وعلي، وضمير الذي يبتسم دائماً في وجهك دون أن يكون ذلك بنية الحصول على مال، وأخيراً.. حسان. حسان هو أحد الأفرقة الذين تقابلهم عند مفرق الحارة، صومالي عمره ثلاث عشرة سنة، تلقاه دائماً يلعب بكرته الجلدية في الشارع، وحين ينتبه لمجيئك، يمسك كرتة بيده ويقف راسماً على شفتيه الجافتين ابتسامة مرحة. كان هو أول من ابتدأ السلام والسؤال، ومع الأيام، صار يستند أحياناً بمرفقيه على حافة نافذتك ليروي إليك بعض الأحاديث القصيرة المضحكة، عن المدرسة والأصدقاء. الجميع يستلطف وجودك أكثر مما تتخيل، وبالنسبة لخالد وعلي، كان حضورك أمراً هاماً جداً.

لم يكن علي يجلس مع خالد في غرفته باستثناء يوم الجمعة. بعد تلك الجمعة، صار يزور غرفته يومياً، وفي كل مرة يأتي جالباً معه قضية جديدة، أو معلومة غريبة يناقشها معك، في جلسة يتوسطها إبريق الشاي وكؤوسه، وبعض المكسرات الرديئة.

في كل فترة يقرأ كتاباً جديداً عن عالم نفسي جديد، يتأثر بأقواله ويتعمق بأفكاره وتأخذه نظرياته إلى درجة الإيمان. يزور غرفة خالد في العاشرة ليلاً من كل يوم، حيث تكون، أنت وخالد، جالسين على السرير وسط كومة من الكتب المدرسية والأوراق والأقلام.

يروى إليك ما يقوله أدلر، ما يثبته جون ديوي أو ديفيد هيوم، فيشدك حديثه وتبتدئان معاً جلسة نقاش مليئة بالمعلومات العميقة والمصطلحات الغريبة. تمتد هذه الجلسة لحوالي ساعة أو أكثر، ثم يستأذن علي في النهاية، ليغادر إلى غرفته إلى النوم.

يتصور خالد حين تبتدئان النقاش، أنه يجلس مع عالمين متحذلقين لا يتكلمان إلا بلهجة العلماء الزاخرة بالمصطلحات الثقيلة، ويحس علي أنه وجد أخيراً عقلاً يكافئ عقله ويشاركة هذا الاهتمام المميز. أما أنت، فكان شعورك مزيحاً من التعجب والدهشة، والراحة العجيبة.

من كان يتخيل أنك ستجد في بيت كهذا رجالاً بعقلية عالم، وأنكما، في غرفة صغيرة متواضعة، ستجلسان جلسة عقليين مثقفين، لتتناقشا في أكثر العلوم والنظريات النفسية تعقيداً؟ في كل مرة تحاول فيها تجاهله يجذبك حديثه، وفي كل مرة تستهين بمعلوماته يفاجئك بمعلومات أعمق. وجدت في عقله ما لم تجده في عقول أساتذة الجامعة العنيدة المستبدة، ولكونه يملك عقلاً متفتحاً ومتفهماً، كان النقاش معه سهلاً ولذيذاً.

طوال الأيام الماضية لم تفارق فكرة الرواية مخيلة خالد، كان يذهب لغرفة ضمير أثناء انشغالك مع علي ليشرح له الفكرة ويجمع منه بعض المعلومات الجديدة، وفي نهاية اليوم،

يعود إليك حاملاً مفكرته الصغيرة، ليقول مستبشراً:

- لقد خطرت في بالي فكرة جديدة!

حاولت كثيراً أن تقنعه بأن الصحفي لا يمكنه أن يكتب رواية إلا إذا امتلك مخيلة القاص وصبر الروائي، وفي كل مرة، كان يكرر عليك أمنيته الجديدة، برجاء وتوسل عظيمين:

- أريد أن يكون لنا نتاج أدبي مشترك، أنا وأنت!

منذ متى بدأ خالد يهتم بالروايات والتأليف؟ تتذكر أنك سألته مرةً هذا السؤال، وفي تلك اللحظة، دار بينكما حوار لن تستطيع نسيانه مهما حاولت، الحوار الذي سمعت فيه أجمل جملة من خالد.

- منذ متى بدأت تهتم بالروايات والأدب!

- منذ أن اقتنيت رواية جميلة من مكتبة علي. رواية استحوذت على كل مشاعري!

- حقاً؟ وماذا قرأت من مكتبة علي؟

- لم يعجبني سوى كتابين، أحدهما رواية، والآخر كتاب يتحدث عن جيفارا. أتعرف؟ اكتشفت شيئاً، أنت تشبه جيفارا كثيراً.

- أنا!

- أجل!، جيفارا في رحلته حول أمريكا الجنوبية استشعر الظلم الواقع على الفلاحين الفقراء والعمال في المناجم، فقاده ذلك إلى المشاركة في الثورة ضد النظام الديكتاتوري الظالم. أنت، في جولتك حول أفقر أحياء الرياض، استشعرت بؤس الوافدين ومعاناتهم، فقادك هذا إلى الكتابة!

يا الله، كيف خرج خالد بهذا الاستنتاج العجيب؟ وكيف لجملة، خرجت بعفوية، أن تنقل كل هذا الكم من المشاعر الصادقة والمحبة العميقة؟ لا شيء أوجع من جملة محملة بمشاعر لا تستحقها، ولا شيء أجمل، وأحزن، وأبكى من عيني خالد وهو يقولها، نظرة الامتنان، ولمعة الحب والصدق، والسعادة الطاغية.

كل شيء لم يعد كما كان أول مرة، وكل المشاعر القديمة فيك، ظلت تفقد طراحتها وطرواتها تدريجياً حتى دفنتها الأيام وأقامت فوق ضريحها نصباً تذكاريّاً. تتذكر جيداً كيف كان منظر العمارات القديمة المتلاصقة في حي الفيصلية جالِباً للاكتئاب، كيف كانت الشوارع الضيقة بأرصفتها المكسورة تنفث غازاً كاتماً للأنفاس، وكيف كُنْتَ تستعيز طويلاً

كلما تراءت لك صورة الحارة: دهاليز الموت وبيوت الأشباح. لا يمكن أن يعود للاكتئاب طعمه الحقيقي بعد أن اكتأبت حتى تيبس صدرك وجفت عيناك، ولا يمكن لجلدك الأملس أن يظل حساساً وطرياً حتى الآن.

بقيت هناك مساحة جديدة خالية في صدرك ظل خالد وعلي وحسان يزرعانها بالفرح والتفاؤل والحب، يخبرك حسان بأنك لطيف فتنبت في صدرك زهرة، ويشيد علي بثقافتك ونضجك فتنبت زهرة أكبر، ويشعرك خالد بأنك أعظم صديق في الوجود فيصبح صدرك جنة خضراء.

بيت الفيصلية، ومديح علي، وقصص ضمير، وجلسة خالد والشاي العدني، وابتسامة حسان، وطعم المياه المالحة المتدفقة من صنابير حمامات المسجد. الآن وأخيراً، وجدت أموراً جميلة تحكيها للمي، إذا ما سألتك مجدداً، سؤالها الموجه الحزين:

- فيصل، كيف يبدو بيت خالد؟

السبت، 2 رجب، 1437هـ

مضى العصر كله وأنت تفكر، غارق في غرفتك وفي سكونك، والسيجارات تتناوب على مكانها في فمك، واحدة تلو الأخرى. حل الليل، وارتفعت في سقف الغرفة سحابة من دخان، وجاءت الفكرة فجأة، في منتهى السهولة والبساطة، رغم أنها لم تخطر في بالك من قبل. نهضت تغسل وجهك، وأسرعت إلى لمي لتسألها عن بعض التفاصيل التي ستساعدك في العمل مجدداً، في بدء خطة جديدة مع خالد، بعد خمسة أسابيع من التوقف.

- لمي، كيف كان والدك يعامل خالد؟

سؤال موجه، فتح في قلبها منافذ للألم، وشحن عقلها بالذكريات المرة والأشجان. روت إليك، حزينة، بعض المواقف التي ظلم فيها خالد في طفولته ومراهقته، بداية من الأعمال الشاقة التي كُلف بها منذ صغره، مروراً بالمسؤولية المُرهقة نفسياً وجسدياً، ونهايةً بالعقوبات الجائرة والتوبيخ.

كنت، وأنت تسمع منها هذه المواقف، تحللها في عقلك، تذوب في تفاصيلها، تعطي لكل شيء سبباً وتفسيراً، وتستنتج من كل موقف فكرة جديدة. لم تلبث طويلاً حتى شكرتها وخرجت، وسؤال واحد يدور في رأسك: كيف يمكن أن تحدث لفيصل، وحيد والديه المدلل، مواقف تشبه تلك التي حدثت لخالد؟ الأمر يحتاج إلى خطة جديدة، وإلى كذبة جديدة.

تعتزم الآن على بداية جديدة مختلفة تماماً عن سابقتها. اليوم، سوف تترك الحديث مع خالد عن الأعمال الخيرية التي قمت بها، وعن المواقف المختلفة التي تنبئ جميعها بأنك خلقت ولم تُخلق في صدرك بقعة للشر. سوف تترك أحاديثك الفلسفية التي توصي بأن يساعد الإنسان غيره ويكون مثالياً، وستكشف لخالد جانباً جديداً من حياتك لم يكن يعرفه من قبل، الجانب الأسري والاجتماعي.

لقد آمن خالد، بقلبه ولسانه، بأنك أعظم شخص رآه في حياته، وهذا الأمر يبدو إلى هذا الحد كافياً جداً. حان الوقت اليوم لأن يشعر بأنك مثله، بأنك تشبهه، بأنكما على الدرجة نفسها من المعاناة وأنكما تجرعتما معاً الألم نفسه رغم اختلاف الحياتين.

لا بد أن يدرك بأن فيصل، الصديق الأرحم، يعرف تماماً طعم الظلم الذي تذوقه خالد في طفولته ولم يفارق حليمات لسانه، والذي لطالما خشي وتردد في وصفه له.

بدءاً من اليوم، سوف تشكو إليه كثيراً، سوف تشكو لتشعره بأن الشكوى بين الأصدقاء هي وسيلة للتقارب والتراحم ومناصفة الهموم، وأنه مخطئ تماماً في تصوره عنها حين اعتقد أنها وسيلة مهينة لتسول العاطفة وطلب الشفقة.

طوال الطريق مكثت تفكر في إجابته لسؤالك الأول، وخلال دقائق طويلة بطيئة، وصلت إلى بيت خالد. قبل أن تنزل، تفاجأت مجدداً بأولئك الباكستانيين الثلاثة، وأحدهم ينظر إليك من بعيد، ينظر في عمق عينيك، وصاحبه يجلسان بجانبه على الدكة المقابلة، هادئين ومسترخيين. ما الذي تغير اليوم؟ أين اختفت الرجفة التي تصيب أجسادهم كلما وصلت إلى الحارة؟ أين الخوف والدهشة ونظرات الشك التي يعقبها ركض جنوني؟ تتذكر أنك سألت خالد في الأسبوع الماضي عما يدور بأذهان هؤلاء الثلاثة، وتتذكر جيداً كيف انفجر ضاحكاً وهو يتخيل الموقف:

- لا شك وأنهم يظنونك أحد موظفي الشرطة، أو الجوازات!

كان جوابه مفاجئاً، فسألته بتعجب:

- عجيب! هل يرتدي موظفو الشرطة ثوباً وشماغاً ويستقلون سيارة كامري بيضاء؟ ألا يبدو من مظهري أنني مواطن عادي جداً؟

أجاب وهو يضحك:

- بلى، وإلا لما تجاوزت تلك المنطقة المشددة عند مفرق الحارة بهذه السهولة!
أخيراً، عرف هؤلاء الثلاثة أنك مواطن عادي، على أدنى درجة من المواطنة، وأقصى درجة من البساطة.

أشاح العامل الباكستاني بعينه بعيداً حين حدقت فيهما بقوة، ثم ارتسمت على شفتيك ابتسامة ساخرة. طرقت الباب بمفتاحك، فتح خالد، وجلست قبالتة على سريره الحديدي. فجأة، تبدلت الابتسامة الساخرة إلى حزن مصطنع، ونظرت إلى وجه خالد البشوش بنظرة حزينة، وبالحنن نفسه سألته:

- ما أخبار الورشة يا خالد؟

- لا جديد سوى أن العمل يتضاعف كل يوم.

تنهدت:

- وأنا لم أزاوّل أي نشاط خيري منذ شهر تقريباً.

- لماذا!

سألك باهتمام مفرط، فابتسمت داخلياً، وشعرت أنك بدأت تمسك بالخيط الأول.

- لا أعرف، لم يعد مزاجي جيداً كما كان.

عقد حاجبيه، وسألك، بنبرة حزينة:

- هل بدأت أشغلك عن عملك؟

- أبدأ يا خالد! أنت لم تفهمني.

سكنت قليلاً، أشحت بعينيك إلى الأرض، وسرعان ما تلونت نبرتك، تماماً كما خطت:

- أتصدق؟ أتمنى أن أمتلك نصف صبرك يا خالد. بصراحة، لدي أب سيئ جداً، أب جاف وصارم أشك أحياناً أنه يحمل في قلبه ذرة حنية. منذ طفولتي وهو يعاملني بصرامة شديدة مطبقاً معي أقسى القوانين، وحين كبرت، ازدادت معاملته جفافاً وسوءاً، خصوصاً بعد طلاق أمي، فلم تعد مشاعر الأبوة ولا البنوة تربط بيننا. اليوم، حصل موقف سيئ،

سيئ جداً، فتلقيت منه توبيخاً شديداً وشتائم قاسية، وكلمات لم أسمعها في حياتي قط. ربما لهذا السبب أنا أتحدث إليك الآن. لقد تعبت يا خالد ولم يبق بداخلي صبر، ما الحل؟

أعدت سؤالك الأخير على مسمعيه، لم يجب، فشرعت تفتش في ملامحه عن كلام. رأيت الظلام، فجأة، وهو يسود وجهه المشرق المستنير، ورأيت أذرع الصدمة وهي تخنق الملامح البشوشة التي كانت قبل قليل نابضة بالحياة. دُهشت وأنت ترى انتكاس حالته العجيب أمام عينيك، ثم سمعته يسألك بصدمة، بوجه متجمد ونبرة مترددة:

- أهذا صحيح يا فيصل؟

أومأت، فسكت قليلاً، وسمعت منه تهيدة، تفصح عن ضيق عظيم يحتل أعماقه.

- شخصيات الآباء تتشابه كثيراً.

- هل يعقل أن هناك أباً مثل أبي؟

- بلا شك، وأقولها لك من الآن، هذه مشكلة ليس لها حل.

شعرت أنه بجملته الأخيرة أغلق في وجهك باباً، فأبيت إلا أن تواصل الشكوى. أخبرتك لَمْ بأن أباه يوماً قد أجبر خالد على أن يعطيه ماله الذي جمعه -قرشاً على قرش- لشراء دراجته الهوائية المفضلة. ضاعت أحلام خالد وهو يسلم أباه المال صاغراً، وتذكر كم كان يعاني وهو يجمع مصروفه المدرسي يوماً بعد يوم. كنت قد فكرت في الأمر ملياً قبل وصولك إلى بيت خالد، وفي غضون دقائق، استطعت أن تؤلف قصة مشابهة لهذه القصة، لتصبح الرجل الذي مكث شهوراً يجمع نقوداً للسفر فاستولى أبوه على كل ماله بحجة واهية.

أردت من خلال هذه القصة أن تذكّره بوجع الطفولة، فحرصت على إضافة تفاصيل مشابهة وتعمدت أن تصف شعوراً مطابقاً علك تعصر في داخله بقعة حساسة فيدفعه الألم إلى الكلام. لم يكتفِ خالد بالسكوت، أخذ يواسيك بكلماته، أخذ يتحدث ويتحدث، ويوصي ويعظ، وينصح بالصبر كما يُشدد على البر. كان يعرف تماماً أن نصائح كهذه لا تجدي نفعاً، أنها لو كانت تغير شيئاً، لغيرت حياته قبل كل شيء. لهذا السبب غلبه الحزن، وأظلم وجهه، وكاد من فرط تعاطفه وشفقته، وضيقه وحزنه، أن يبكي. لم يجد بعد أن نفدت من عقله كل الكلمات غير أن يقول جملة واحدة، جملة خرجت من صميم قلبه:

- على الأقل، لديك والدة، تزورها متى شئت.

أشحت بعينيك، وشعرت بنظراته الحزينة تحرقك، وتنفذ عميقاً مثل شظايا. حُزن هذا الولد ليس شيئاً هيناً أبداً، إنه يكوي القلب ويفتته حتى يغدو رماداً. لهذا السبب شعرت بلسعات الضمير وانقباضاته، وغادرت بيته سريعاً، أبكر من المعتاد.

في اليوم التالي تكرر الأمر نفسه، وجئت بمشكلة جديدة وقصة جديدة، ورأيت تعابير الدهشة والشفقة والحزن وهي تتسلسل على وجه خالد، واحدة تلو الأخرى. في اليوم الثالث لم يكن أمراً صائباً أن تأتي بقصة أخرى مشابهة، فاكثفت بالحديث عن المشاكل العائلية عموماً، وعن قسوة الآباء، ومرارة الحياة في ظلها. تتسرب أحياناً من بين أحاديثك بعض الشكاوى الصادقة، فيطول الأمر أكثر، وتصبح الأجواء أكثر حزناً وكآبة.

-أتعرف يا خالد، لقد هجرت بيتنا منذ أشهر، وأنا الآن أعيش في شقتي الخالية وحيداً.

- لقد عشت فترة طويلة لا أعود فيها إلى البيت إلا والجميع مشغولون. أبي في العمل، زوجته في غرفتها، ومصاييح الصالة مغلقة، والظلام يسكن الممرات. أشعر أن لا أحد يرحب بمجيئي، وأن المكان كله يرفضني.

- أتعرف أنني لا أزور أمي إلا مرة كل ثلاثة أيام، ولم أعد أبيت عندها أبداً؟ لم تبدأ الحرب بعد بيني وبين زوجها، لكن نظراته التي لا أرتاح لها أبداً، تنذر بذلك.

وبين حقيقة وحقيقة، يصمت خالد، ويسرح بخياله، ويبدأ بدفن كفيه في حضنه والعبث بهما في وضعية خاشعة مستكينة. رغم كل الأشياء التي تدعو للحديث يختار الصمت، ويفضل أن يترك همومه تغلي بداخله، على أن يلفظها ويرتاح.

وينقضي اليوم الرابع، وتغدو جلسة الشكاوى ومشاركة الهموم عادة مألوفة، وجزءاً من الروتين اليومي. على عكس الأيام الأخيرة الماضية لم تزر الابتسامة وجه خالد أبداً، وغاب نور وجهه مع غيابها، واختفى صوته فلم يعد يتكلم إلا لماماً. أصبحت أجواء الغرفة أكثر اختناقاً، وصار خالد يستأذنك للنوم أبكر من العادة، ربما ليداري دموعه في الوسادة، قبل أن تهطل بغزارة.

تبدلت الأوضاع، يا فيصل، وصرت فجأة طوق النجاة، الذي يُطبق على الأعناق ليخنقها، ويمنع عنها أوكسجين الحياة. تبدلت الأوضاع، وصرت تخصص يومياً جلسات تدوس فيها على قلب خالد، لتوقظ الألام النائمة، وتفتق الجرح القديم. في آخر مرة استأذنتك فيها للنوم مبكراً، أسدلت على جسده لحافاً ثقيلاً، وأقسمت بعدها أن لا تقترب نحو المنطقة المحظورة أبداً، حتى لا تطأ جرحه العميق.

الثلاثاء، 12 رجب 1437هـ

قبل يومين من الآن، تكلم خالد فجأة، وقرر أن يشاركك شيئاً من معاناته وهمومه. ابتداءً بهوموم الدراسة، وانتهى عندها. صارت جلسة البوح اليومية وسيلة لتبادل الآراء والنصائح، وساعة يتعلم منها خالد الكثير. في كل يوم، تجلسان فوق السرير، متقابلين، أسفل النجفة البيضاء الذي يخفت ضوءها كل يوم. يحدثك خالد مهموماً عن صرامة أستاذ الدين، وجلافة أستاذ الأحياء، والسخرية المبطنة، التي يتلقاها أحياناً، من أحد الطلبة. وحين ينتهي من شكواه، تتعلق عيناه القلقتان بعينيك الحنونتيتين باحثة عن حل، فيفيض صدرك حناناً وعطفاً، وتنطلق سلسلة الوصايا من فمك، والنصائح المغلفة بالحب والحرص.

تشعر، أحياناً، أنك بدأت تأخذ دور المرشد الطلابي الذي قصر أو تخلى عن دوره في مدرسة خالد، والأرجح أن خالداً بات يشعر أيضاً بالشعور نفسه، فصار يستشيرك في كل الأمور ويسألك عن كل الأشياء، ويعتقد، في كل مرة، أنه سيجد عندك إجابات جاهزة.

اليوم، ابتدأت سلسلة جديدة من الاسئلة، وظهر لدى خالد اهتمام جديد بالسلوكيات البشرية وتفسيرها، أخذ يتنامى على نحو غريب. سألك عن سبب هذا السلوك الذي يصدر من بعض المعلمين، وعن سخرية بعض الطلاب من بعضهم، وعن اللذة الداخلية التي تصاحب هذا الفعل.

ما الذي يجعلهم يحسون بالرجولة تتدفق في عروقهم كلما آذوا بعضهم بعضاً؟ هل هي نزعة سادية بحاجة إلى تشخيص أم هي تداعيات المراهقة ومشاعرها المألوفة؟ أخبرته أن الشرور تأتي بكافة الأشكال والألوان، لا حدود للشرور البشرية كما أنه لا حدود للسماء، وليس بالضرورة أن يكون لهذه الشرور سبب محدد وملموس في جميع الأحوال. السخرية من الغير، حين تأتي من المراهقين، قد تكون لهدف إرضاء النفس، وتعزيز الشعور بالفوقية، وتمجيد قيمة الذات، عن طريق الحط من قيم الآخرين. يحب البعض أن يؤمن بأنه أفضل من بعض الأشخاص المقربين الذين يعرفهم، لأنه مع هذا الإيمان يظفر بأشياء كثيرة، ولكي يعزز من هذا الإيمان، عليه أن يحط من قيمة أولئك الأشخاص، إلى أن يكبر وينشغل بذاته.

يعرف خالد أن بداخل كل نفس بشرية بقعة من الشر، ولكنه لا يعرف أنهم متى ما أتاحت لهم الفرصة الكاملة بلا قيود، سيبدؤون بإطلاقها بصورة مفرطة، وبلا شعور. لذا، فالسكوت أمام السخرية وتمريرها وتجاهلها لا يعالج الأمر في كثير من الأحيان. حين حدثته بكل هذا الأمور أطلق تنهيدة عميقة، ثم أخبرك، بمزاج سيئ، كيف أنه يكره عمر المراهقة، وكيف أنه يرى المراهقين كتلاً معقدة من المشاعر النفسية تتشكل على صورة إنسان، لا تحل خيوطهم ولا تتفكك أبداً. ربما سيكون صادقاً حقاً لو كان يتحدث عن نفسه على وجه الخصوص، وفي تلك اللحظة، التي أوشكت فيها أن تصارحه بعقده النفسية، صارحك بشيء لم تتوقعه أبداً، ليغير مجرى الحديث.

- خمن ما هو المستقبل الذي لطالما حلمت به؟

- ماذا؟

- طبيب، كم تمنيت أن أصبح طبيباً.

- هذا جميل يا خالد! جميل جداً!

ابتسمت ابتسامة عريضة، وسكتت تتخيله طبيباً، بعد عشر سنوات أو أكثر، يغوص جسده الضئيل في معطفه الأبيض الواسع. تتخيله وقد تغير حاله، واستملى جلده، حينها ستصبح ذكريات الورشة وحي الفيصلية أطياً تمر في باله سريعاً، وستصبح الوجوه، كل الوجوه التي رآها في هذا البيت، أشباحاً تراوده من حين إلى حين.

نظرت إلى معصميه الجافين، وإلى الطبقة السوداء الرمادية، وإلى الخطوط الأفقية المحفورة في الجلد، وهمست:

- ستصبح يداك ناعمتين، لن تكون كأيدي مصلحي السيارات أبداً.

نظر إلى يديه في حضنه، وسرعان ما غطاهما بأكمامه خجلاً.

- كل المعاناة ستنتهي ذات يوم. لا يهمني أن أصبح طبيباً بقدر أن أعيش مرتاح البال. لا شيء يوازي راحة البال.

- صحيح، لكن هذه سلبية. تقليص الطموحات بهذه الصورة يعني أنك لا تمتلك من الشجاعة شيئاً لتحقيقها. ما بك؟ ألا تستطيع أن تكون طبيباً مرتاح البال؟

سكت، وظل يطالعك، فعرفت أنه لا يملك جواباً. خاطبته بهدوء:

- دعني أخبرك بشيء. أتعرف يا خالد ماذا تُسمى شخصيتك في علم النفس؟ الشخصية الشكاكة المُرتابة، التي تسيء الظن وتشك دائماً في صدق الآخرين وولائهم. أتدري ما سبب هذا كله؟ لأنك متشائم، لأنك سوداوي، لأنك سلبي وتعييس دوماً.

فتح عينيه متفاجئاً مستنكراً هذا الهجوم، ثم سرعان ما أرخى عينيه، وتهد.

- أنت محق. ولكن ماذا بيدي أن أفعل؟ أخاف أن يخيب ظني إن تعلقت بأحد أو أسرفت بالتفاؤل. هذا الخوف متأصل في شخصيتي، لا أملك شيئاً حياله.

- أتدري ما المشكلة؟ هذا الخوف لم ينتج عن تجربة سابقة، إنما هو نتيجة تشاؤم مفرط، وهنا المشكلة. خالد، الحياة تعيسة جداً إذا عشتها بهذه الصورة، أعرف بأن حاضرك شاق وكئيب، ولكن هذا لا يعني، أبداً، بأن المستقبل سيكون على هذا النحو. بصراحة تفاجأت كثيراً وتفاءلت حين عرفت بأنك -على الأقل- تملك نصف حلم، ولكن جملتك الأخيرة هدمت كل الآمال. ما المانع أن تصبح طبيباً في المستقبل؟

أشاح بنظره إلى الفراغ، ورأيت لمعة الحلم في عينيه تخفت وتختفي.

- لا أدري، لا أجد نفسي جديراً تماماً بمهنة الطب، إنها تفوق إمكانياتي وقدراتي.

- بل لأنك في عين نفسك أصغر وأحققر من أن تكون طبيباً، أليس كذلك؟

- فلنقل كذلك، هل يوجد حل؟

رفعت حاجبيك مصدوماً، وخاطبته، بنبرة مذهولة:

- لماذا يا خالد؟! بصراحة، لم أتفاجأ بقدر ما حزنت عليك وأشفقت على حالك.

سكنت قليلاً، رأيته يغير جلسته، يضم ركبتيه إلى صدره ويحاوطهما بذراعه. كان حريصاً على أن لا ينظر في عينيك، ورغم هذا واصلت الحديث:

- لا يمكنك أن تصبح عظيماً ما دمت تملك هذه النظرة، كل عظيم كان عظيماً في عين نفسه قبل أن يصبح عظيماً في أعين الناس.

- ألن تكون هناك صعوبات وعوائق؟! أليس الطب هو أصعب التخصصات وأطولها دراسة؟

- بلى، ولكن التفاؤل ليس أن نظن بأننا سنجد كل الطرق ممهدة إلى أحلامنا، التفاؤل هو أن نؤمن بأن العواقب كثيرة، كثيرة جداً ولكننا سنتخطاها، وسنعيش رغم اشتدادها.

- كفى، أنا لست فاشلاً، أنا أحلم دائماً بأمنيات صغيرة، كأن أحصل على علامة كاملة، أو أحظى بجائزة تفوق، أو ألقى تشجيعاً من أحد المدرسين. كلما حققت أمنية صغيرة تأتي الأمنية القادمة أكبر، وأكبر. وهكذا بالتدريج. لن أرجح احتمالية دراستي للطب فلا أريد أن أتوقع شيئاً لن تبلغه قامتي القصيرة حتى لا أصاب بالإحباط.

- تحتاج إلى طبيب نفسي.

ضحك ضحكة صغيرة، ثم نظر عالياً إلى السقف، وهمس:

- لا تكن قاسياً. فيصل، المصباح يحتاج إلى تغيير، ما رأيك أن تساعدني؟؟
نظرت في وجهه مصدوماً، لم يخطئ خالد في شيء، كان يطلب المساعدة.

الاربعاء، 13 رجب، 1437هـ

وصلت إلى البيت في تمام العاشرة ليلاً، ولم يكن ثمة صوت أو حركة في الحارة. كان الظلام ثقيلاً يثير في القلب وحشة، والسماء السوداء ملبدة بالغيوم، مما يشي بأن المطر وشيك. استقبلك خالد عند الباب، رأيت، وبدلته الزرقاء الجديدة، ينزل إلى العتبة الصغيرة ويحييك بحفاوة. رغم أنك أوشتك أن تصبح واحداً من أصحاب البيت بل أكثر، لا يزال خالد يصر على استقبالك دائماً بحفاوة مثلما يستقبل ضيفاً جديداً. دخلت معه إلى الصالة، فألفيت علي جالساً على المسندة الحمراء أمام التلفاز، مكتفياً بملابسه الداخلية البيضاء، وجهاز التحكم يستقر في حضنه، وبجواره صحن المكسرات. التفت مبتسماً حين انتبه لدخولك، وقال مُرحباً:

- أهلاً، أيها الصحفي.

بادلته ابتسامة صغيرة، يصر هذا الرجل، دائماً، على مناداتك بالصحفي أو الناشط، ولا يفوت جملة دون أن يعزز فيها من مقامك أو يظهر فيها احتراماً مُفرطاً. نظرت إلى ما ينظر إليه عبر التلفاز وسألته بمداعبة:

- علي ينظر إلى التلفاز! ماذا حل بالدنيا؟؟

جلست على المسندة، ناصباً ساقيك وملقياً ذراعيك على ركبتيك، فيما جلس خالد متربعاً. رأيت علي يبتسم حتى بانت تجاعيد عينيه، ثم تفاجأت به، وهو يقول بنبرة مختلفة، غيرها الحزن:

- أتابع الأخبار.

لم يكن بحاجة ليخبرك بما يشاهده، فالشاشة الصغيرة كانت تنطق بمشاهد الحرب ودخان التفجيرات، وتفتح على مشاهد الفقر والجوع والعري. لم يكن علي بحاجة ليضيف تعليقا على الصور، لكن الحزن المكبوت في صدره الضيق مثل الغاز السام دفعه إلى الكلام. مضى علي يحكي، ويشرح، ويتأوه، حتى شعرت أنه لن يسكت أبداً.

الحزب تشتد ضراوة يا فيصل، والأوضاع تتأزم يوماً بعد يوم. الشعب، في كل بقعة من اليمن، يكافح للحصول على الطعام، ورغيف الخبز بات يُعد حلماً، وإن كان يابساً. كل الأشياء يا فيصل باتت تعد - إلى جانب الخبز - ترفاً ونوعاً من الرفاهية، حتى الخدمات الأساسية الأخرى، وشبكات الإنترنت، والكهرباء. أتعرف ماذا حل بالكهرباء؟ لقد انقطعت في كثير من البيوت، وكثير من الشوارع، وكثير من القرى والمدن. أصبحت التفجيرات، والقنابل اليدوية هي الشيء الوحيد الذي يضيء أرجاء المدينة، كأنها بذلك تشفق عليها من الظلام. أغلقت المستشفيات يا فيصل لشح الخدمات، جُند الأطفال لدى الحوثيين، وانتهكت البراءة، وشابت وجوه الأطفال قبل أوانها.

أصبح السفر هو الملجأ الوحيد لمن سأم الحرب والفقر، إذ لم تعد هناك بقعة واحدة للعيش. كل يوم، يتدفق الناس جماعات جماعات إلى مطار العاصمة، ويبقى الآخرون عالقون في مدنهم، عاجزون عن الوصول إلى المطار، بسبب الحرب وتعطل الطرق وانعدام الأمن فيها. أتعرف ما مصير هؤلاء العاجزين؟ إنهم أمام خيارين، إما أن يسلكوا طريق الخطر المُلغم إلى الحدود السعودية، تهريباً، أو يقطعوا البحر العريض، إلى شواطئ جيبوتي والصومال. في الأمس كان الأفارقة ينزحون من إفريقيا إلى اليمن هرباً من الجوع بحثاً عن حياة أفضل، واليوم، أصبح اليمنيون يستعينون بهم، لهيربواهم على القوارب، إلى إفريقيا المظلمة، دون أن يضمنوا لهم الوصول. فإن عاشوا وصلوا، وإلا ابتلعتهم أمواج البحر. رأيت كيف يُداول الله الأيام بين الناس؟ وكيف تتقلب الأحوال؟

أطرق عينيه، ثم مسح وجهه المُعتم الشاحب براحتيه، وظل يطالع الفراغ، ساكناً. لم يجد خالد، بعد أن نظر إلى وجهك الخالي من أي تفاعل سوى قليل من التأثر، إلا أن يهمس بهدوء:

- الله المستعان ..

استغرقت دقيقة كاملة حتى استطعت أن تقول شيئاً تُخفّف به على علي، ولم تخرج الكلمات هذه المرة، رغم صدقها، إلا بصعوبة:

- هذه مأساة عظيمة، كان الله في عونكم.

- آمين، شكراً يا فيصل. لم أكن ممن يهتمون بمتابعة الأخبار، كنت قد قررت، منذ فترة طويلة، أن أغمض عيني وأغلق أذني عن كل شيء يتعلق بهذا الوطن، فما دمت لن أعود له أبداً، لم أكدر خاطري بسماع أخباره ورؤية مأساته؟ لكن، بعد الاتصال الذي جاءني اليوم، من صديق يخبرني بأن ابنته المريضة توفيت في المستشفى بانتظار العلاج الذي لن يأتي أبداً، وهو الذي فقد أخاه قبلها جراء القصف، أدركت أنه لا جدوى من الهرب والتنكر، وأني حتى لو غيرت جنسيتي وهويتي ونزحت بعيداً، فالمعاناة ستلحقني ما دمت يمينياً. سأظل دائماً أتالم معنوياً على إخواني اليمنيين، في كل مكان.

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

ثم سكتت، وسكت خالد، ولم يعرف أحداً منكما كيف يواسي هذا القلب المفطور. دائماً ما يضعك علي في مواقف صعبة وكأنه يعرف المواضع الحساسة أين تكون، وكأنه اكتشف حكايتك كلها فصار يزوج بك متعمداً أمام الأدوار التي يستحيل تمثيلها وإتقانها. لم يكن كلام علي سهلاً أبداً، ولم تكن المأساة المّبكية، التي حكاها بلسانه، ذات وقع ضعيف. ورغم هذا، شيء ما في داخلك كان يعجز عن التعاطي والتفاعل مع هذه الأمور كما هو مطلوب. يخبرك صوتك الداخلي، كلما أردت أن تتكلم، بأنك متناقض إلى حد لم يبلغه أحد، وأنت ذو وجوه عديدة، لا يكاد واحدٌ منها يشبه الآخر.

لم يهدأ هذا الصوت حتى غير علي قناة الأخبار، وتبدل الموضوع، وأخذ خالد يتحدث بأحاديثه المعتادة، ما بين الدراسة والورشة.

لكن علي تكلم فجأة، وعيناه ثابتتان على التلفاز. بدا، من نبرة صوته، كأنه يتكلم من قعر صندوق:

- مشكلتي يا فيصل أنني ضعيف، لا أقوى على سماع هذه الأخبار والقصص، وأمضي طوال الليل متقلباً في فراشي عاجزاً عن النوم. لا أدري ماذا سيحدث لو كنت أراها تجري أمام عيني. حدثني أنت، لا بد أنك مررت على عشرات الحالات الإنسانية التي يذوب لها القلب أسى وحنناً، ولا بد أن عينيك ارتشفت بعض مشاهد الجوع والعري بكل تفاصيلها، كيف استطعت أن تتحمل؟

- الاعتياذ يا علي!

وجاءت هذه الإجابة في عقلك أسرع من المتوقع، قصيرة ومقنعة في الوقت ذاته. نظر خالد في عينيك وعلى شفثيه شبح ابتسامة، وحين رأيت عيناه تتوهج، استعدت من جملة قد لا تجد لها جواباً.

- ما زلت أتمنى أن تأخذني معك حين تساعد إحدى العوائل.

- ولكنك ستحزن يا خالد.

- لا بأس، أريد أن أزور البيوت وأرى عيون الأطفال، وأسمع شكاوى النساء، ودعواتهم الطيبة لنا قبل أن نرحل.

- سيفمرك بحر من الاكتئاب لا نهاية له. قد لا تستطيع النوم، تماماً مثلما كنت أعاني في البداية.

- ولكني سأتعلم الكثير، بلا شك هي تجربة مفيدة ولو كان يعقبها اكتئاب طويل.

ابتسمت ابتسامة حزينة، ومثل كل مرة، هُزمت أمام إصراره.

- ان شاء الله يا خالد. هل من شيء نفعله اليوم؟ نخرج لنتمشى؟ أو نجلس لترجم بعض الكلمات الإنجليزية؟

- نجلس، ونشرب الشاي مع بعض الأحاديث.

نهض مسرعاً إلى غرفته، ليأخذ ثلاجة الشاي ويرتدي نعليه. فتح الباب المُفضي إلى الشارع، أراد أن يخرج، ولكن شيئاً ما، جعله يغلق الباب بسرعة مفاجئة، ويعود إلى الصالة خائفاً فزعاً. قال، وهو يخاطب علي بعينين جاحظتين:

-علي، المطر ينزل!

تعرف تماماً ماذا يعني أن ينزل المطر على سقف بيت الفيصلية. ولكن كيف حين يكون بهذه الغزارة؟ بدأ المطر خفيفاً، بضع قطرات قليلة صوتها مسموع، يشبه صوت الحصيات الصغيرة وهي تتناثر فوق السقوف. ثم انفجر صوت الرعد، وهطل المطر بغزارة، وتسرب صوت قادم من الشارع، يشبه صوت السيل الجارف. لمحت، في عيني خالد، مزيجاً من

الخوف والقلق، وعلى محيّا علي، مزيجاً من الخوف والضيّق. هل سينهد السقف؟ تساءلت، ثم رأيت علي ينهض بفرع، ويمشي مسرعاً إلى غرفته، وهو يخاطب خالد:

- خالد، أحضر بعض القدور من المطبخ بسرعة، سأذهب لأحرّك سريري إلى الجهة الأخرى. لا أنسى كيف أصبحت رائحته في المرة السابقة بعد أن تسرب إليه الماء من السقف!

وفي ظرف ثانية، اختفى الاثنان، وبقيت في الصالة وحيداً. هذه المرة تجاسرت، ورفعت عينيك عالياً إلى السقف، لثبصر المنظر الذي لطالما تحاشيت النظر إليه.

سقف بيت الفيصلية كان مرعباً، أخوف ما يمكن أن تنتهي إليه النظرات وأبشع ما تعجز الألسنة عن وصفه. تشعر أن زواياه التي يتفشى فيها العفن الأسود مكان موبوء، وأن الجحور والثقوب المنتشرة في نواحيه مستعمرات هائلة للحشرات والقوارض الصغيرة. لم يكن بحاجة لمزيد من الماء حتى يذوب دهانه المتبقي، ولا لمزيد من الرطوبة لتنمو فيه صنوف جديدة من البكتيريا والفطريات.

رأيت خالدأ يخرج من المطبخ ويضع قدراً في وسط الصالة، وسرعان ما ظهرت بقعة مائية صغيرة على السقف، أخذت تتسع وتتنامي، ثم سال منها الماء، ليسقط مباشرة في القدر المعدني. كان وجه خالد قلقاً وملامحه متخمة بالرهبة والخوف، وجسده، من فرط قلقه، لا يكاد يسكن لحظة. عاد إلى المطبخ مجدداً ليحضر قدراً آخر بعد أن سألت قطرات جديدة من بقعة قريبة، وبقي واقفاً في الوسط رافعاً رأسه إلى السقف، متخشباً وخائفاً. ناديته مرة فلم يُجب، ولم تدري ما الذي أصابه في تلك اللحظة. حين عاد علي مسرعاً إلى الصالة، هرع الاثنان إلى التلفاز، تكاتفوا على حمله، وسارا ببطء وترنح، إلى غرفة خالد. عادا إلى الصالة منهكين، ووقفوا في الوسط يتأملان السقف، بوجهين يختزلان علامات الذعر كلها.

- علي، ما الذي يجري؟ لم حملتما التلفاز إلى الغرفة؟

- حتى لا يصل إليه الماء!

نظرت إليهما بدهشة، هل يجب أن يبعدا كل شيء في الصالة حتى لا يصل إليه الماء؟ قبل أن تتكلم، صار الماء يتسرب من الحد الذي يلتقي به السقف بالجدار الأيمن خلف التلفاز، ويسيل خطوطاً طولية، ثم يتسرب من بقعة ما فوق طاولة الخشب، ليتساقط مباشرة في المكان الذي كان يستقر عليه التلفاز. في لحظة، تخيلت أن السقف سينكسر، وأن المياه التي ستتصبب مثل شلال ستغدو بحراً يغمر أجسادكم ويبتلع معه كل شيء. عاد خالد ليحلب مزيداً من القدور، ومزيداً من السطول والحاويات البلاستيكية. في غضون دقائق، كان قد أخرج نصف أواني المطبخ، ووزعها على أرضية الصالة بعشوائية. سقط على المسندة خائباً يتنهد، وخرج صوته مغموراً باليأس:

- لا فائدة يا علي، ستصبح الصالة بحيرة صغيرة.

جلس علي قريباً منه، ألقى ذراعيه على ركبتيه. ولم تمض دقيقة، حتى سمعا صوت خرير الماء قادماً من المطبخ. تفجر الماء من بعض الثقوب الكبيرة التي انتشرت على جدار المطبخ، إذ تعفنت الأقمشة التي حشرها ضمير بداخلها وانكشمت مع الأيام فلم يعد باستطاعتها أن تسد كل الفتحات. كان علي علي، مضطراً، أن يجلب مزيداً من القمصان والخُرق القديمة من غرفة ضمير، وكان علي خالد أن يجلب السلم من غرفة علي، ويحضر نفسه للصعود.

عند باب المطبخ وقفت، تراقب ما سيفعلانه بصمت وذهول. صعد خالد فوق السلم، تناول من علي بعض الأقمشة وحشرها في فتحات الجدار، واحدة تلو الأخرى. حين نزل، كانت أكمامه رطبة، وقميصه متسخ ببعض الطين، والماء يتقاطر من خصلات شعره الأمامية. خلع نظارته ليمسح زجاجها المبلل، وحين التحمت نظراته بنظراتك، ابتسم بقلة حيلة.

- كيف يسمح ضمير بأن تُستخدم قمصانه الداخلية سدادات لثقوب الجدران؟

سألته بضحكة، فأجاب وهو يضحك:

- تضحيات! هذا أقل ما يُضحى به في هذا البيت.

بعد أكثر من عشرين دقيقة توقف المطر، مُخلفاً مستنقعات دائرية صغيرة تشكلت على أرضية الصالة، ورائحة عجيبة انتشرت في الأرجاء، مزيجاً من رائحة الاسمنت المبلل والطين. حين هدأت الأجواء وسكنت الأجساد، نظر خالد وعلي إليك بوجهين قلقين خجولين، بدا عليهما لمحة حزن ولمحة انكسار، والكثير من الإحراج. شعرت أن علي يتمنى أن تغوص به الأرض من فرط خجله، وفي لحظة، تقدما إليك بضع خطوات، مثل طفلين مُذنبين:

- فيصل، نلتمس العذر منك، لا أدري حقاً ماذا أقول.

قال علي، فنظرت إلى خالد الذي يقف خلفه بخطوة، وجهه إلى الأرض وعيناه حزینتان.

- لا مشكلة يا علي، الأمر كان طارئاً.

- هذا البيت لا يليق بمقامك يا فيصل. مكانك ليس هنا، يبدو أن الحال التي وصلنا إليها باتت لا تُطاق.

- يا الله، وهل يليق بك أنت يا علي أو حتى بخالد؟

خيّم الصمت لدقيقة، علي يتنهد، يسحب نفساً، يزفر بضيق، وخالد وجهه إلى الأرض، ربما يشتم نفسه، ويبكي على ظروفه. هل ينسحب الأصدقاء إن لم يجدوا مكاناً مُلائماً يليق بزيارتهم؟ لا بد أن هذه الفكرة، بالإضافة إلى جملة علي التي تقول بأن المكان لا يليق بك، تدوران الآن في رأسه، وتنشران بداخله ظلاماً يتسع، وتسحقانه ببطء. سارعت بنفي هذه الفكرة، بالغت في طمأنته بالكلمات الصادقة والوعود، وفي لحظة انتهاء الزيارة، غادرت منزله بجسدك، ولكن طيفاً منك قد بقي معه طوال الليل، شيء من روحك، وشيء من كلماتك الصادقة، يواسيه، ويبدد خوفاً في قلبه.

(12)

هذه الكذبة بدأت تستولي على حياتك، على سلوكياتك، على مشاعرك وكل تصرفاتك. ما عادت تستنزف الجهد من روحك والطاقة من خلاياك، وما عادت طبيعية مثل كل الأكاذيب، يصاحبها شعور بالتناقض وخليط من الندم والضيق.

منذ أن بدأت هذه الكذبة، تتحول شيئاً فشيئاً، إلى شكل من أشكال الحقيقة، أصبحت جوارحك تدرك ماذا عليها أن تفعل اليوم، وكل يوم. صارت بذلك تحفظ الدور الذي تؤديه، تماماً كما لو كانت مفطورة عليه. أدركت، بعد هذه التجربة الطويلة، أن المرء باستطاعته أن يصبح حليماً إذا تحلّم، وأن الأقنعة التي نرتديها طويلاً قد تصبح يوماً جزءاً من ملامحنا ولن يكون لها خاصية النزع والتبديل. يخطئ من يظن أن الإنسان مرهون بأطباعه مسجون بها، المرء بإرادته يستطيع أن يغيّر ألف عادة قبيحة ويخلعها مثل ثوب قديم.

وحين صرت واحداً من عائلة بيت الفيصلية، فرداً من هذه المجموعة المتناقضة الغريبة، أصبحت تعرف، عن كل فرد، حكاية ماضيه ومأساة حاضره، وقصة طفولته وحياته مجتمعه، وأزمة وطنه، التي تسمعها وتراها بوضوح، عبر كلماته التي تنزف حزناً. أصبحت

تعرف، عن كل فرد، أكثر مما يعرفه عن نفسه، وتقرأ الكلام في وجه من لا يتكلم، وتنطلق كلماتك اللطيفة بتلقائية، مواسية ومتخمة بالحنو، كما لو كنت تكلم خالداً أو لَمْى.

كنت، في كل يوم، تسمع من علي شيئاً عن اليمن. في ظرف أيام، سمعت منه جزءاً من التاريخ السياسي لليمن، منذ أيام العثمانيين، وحتى اليوم. سمعت عن الصراعات التي تشتعل بين الطوائف، الاحتكاكات المذهبية التي تحدث من وقت لآخر، بين الزيدية والشافعية.

سألته عن تنظيم القاعدة، الحوثيين، فشرح لك، في جلسة واحدة، كيف نشأت كل هذه الأحزاب والتنظيمات، إلى أي مذهب وفكر ينتمون، وما هي مبادئهم وأهدافهم. كنت تشعر، أثناء حديثه، بأنك أبسط من أن تستوعب هذه التعقيدات والآراء المتشابكة، تسمعه وهو يذكر آراء المحللين والإعلاميين المتناقضة، تسمعه وهو يصفهم بأنهم كاذبون ومضللون، تسمعه، وهو يصف العالم بأكمله أنه مخدوع، وتشعر في كل جلسة، أنك في حضرة محلل سياسي، حديثه فوق عمره، فوق هيئته الذليلة، فوق قامته الكسيحة.

ويوماً بعد يوم، ينتقل الحديث من السياسة، إلى الحياة الاجتماعية. يتجه علي بحديثه، ليصف عادات الأسر وثقافات القبائل، وحياة الفقر والجوع، ثم يمضي إلى حياته الخاصة، ويبدأ بسرد الحكايات، حكاية تلو الأخرى. تجلس أنت وخالد بجوار صينية الشاي المعدنية، على المساند الطويلة التي يتقلص عددها كل يوم، ويأخذ علي دور الحكواتي، ويجلس ناصباً ساقه اليمنى المكشوفة، وذراعه تتدلى من فوق ركبته.

يبدأ بسرد الحكايات، حكاية بعد أخرى. حكاية من طفولته الحافية، حين كان صبياً فقيراً في خامسته، يرتدي ثوباً أصفر ويقطع الحوارى الضيقة بقدميه العاريتين. كان يحوم قريباً من الدكاكين، ليسرق الحلوى والعصير في غفلة من البائع. يعود إلى بيته الحجري الشعبي، طبقات الطوب المرصوف بعشوائية والألوان الترابية بدرجاتها المتباينة، والنوافذ الخشبية المتآكلة. يجد والدته في الصالة بجوار الموقد، أو في المطبخ أمام القدر المعدني، أو فوق السطح تطعم الدجاجات. وحين يفشل في إخفاء الحلوى عنها، تحمي قضيماً من حديد فوق الجمر، وتكوي يديه، ولا يتوب.

وحكاية أخرى، من مراهقته الشاقة. منذ أن بلغ الثانية عشرة وهو يعامل كرجل، في اليمن، يعتبر الصبي رجلاً في سن مبكرة، وتعتبر الفتاة امرأة، في سنتها العاشرة أو قبلها بقليل. صار يخرج يومياً، لبحث عن عمل، أي عمل يوفر له بعض المال. يساعد أصحاب المتاجر في ترتيب بضائعهم، يساعد المشتريين في حملها ونقلها، ويساعد جاره المسن في ربط أغنامه داخل الحظيرة. وحين يحل المساء، يعود وقد اشترى خبزاً وطعاماً لأسرته، كان يتعاون هو ووالده في تحمل هذه المسؤولية، تماماً مثل البالغين.

كنت تناقشه أثناء حديثه، وتسأله عن كثير من التفاصيل، فيما يظل خالد منصتاً. وحين ينتهي من حديثه، تكتشفان أنكما شربتما الشاي كله، وأن الوقت قد مضى، بأسرع ما يمكنه أن يمضي .

ويأتي يوم جديد، وتعاد الجلسة مجدداً، ويدنو علي بحديثه من المواضيع الحساسة، خطوة بعد خطوة. يفتح موضوعاً جديداً، وينتقل، من سيرة اليمنيين في اليمن، إلى اليمنيين في السعودية.

هل يوجد في السعودية بأكملها، جالية عربية أكفأ من اليمنيين؟ يتساءل علي، ثم تتنامى بداخله فجأة روح الوطنية، وتنبض خلاياه انتماءً وفخراً.

اليمنيون كادحون يا فيصل، كادحون أكثر مما أتخيل. هل يوجد أحد، في العالم كله، ينكر بأنهم ذوو أيدٍ ماهرة، محترفة في كل صنعة، وعقول مفكرة، تحتضن في كل مجال خبرة، وأجساد قوية، رغم هزالها، يتكى عليها العالم كله، وتكابد فوق ما يطاق؟

في التجارة والاستثمار، يضرب المثل في التجار الحضارمة، وفي مجال الخياطة الرجالية، يضرب المثل في الخياط اليمني، وفي مجال الصيانة الإلكترونية، والصيانة الحاسوبية، وحتى صيانة السيارات، يثبت اليمني، أن له في كل مجال خبرة وبصمة مميزة، لا يكاد يقلدها أحد.

والبائع اليمني البسيط، من بين كثير من الباعة، يبيع بسعر زهيد. عادة ما تجد عند التاجر اليمني الفقير أرخص الأسعار، يعرف اليمنيون غالباً، أن الربح الزهيد الدائم على المدى الطويل أفضل من الربح الكثير على المدى القصير، هذه قاعدة، يسير كثير منهم على نهجها.

لا أدري هل أستحق أن أعتبر واحداً منهم، أم إن هذه الأوصاف أكبر مني؟

بهذا السؤال ينهي حديثه، ثم يبتسم، وهو ينظر إلى الفراغ. يعود لينبش في المواضيع الحساسة أكثر فأكثر، ينظر إلى عينيك، وي طرح مجدداً، سؤالاً آخر.

أتعرف ما الذي يربط اليمنيين بالسعوديين؟ أشياء كثيرة مشتركة. اليمنيون أكثر تمسكاً بدينهم، أكثر تحفظاً في عاداتهم وتقاليدهم، يشبهون السعوديين في تحفظهم والتزامهم. ومظاهر التحفظ في اليمن تتضح في شوارعها وأسواقها، من منظر النساء بعباءاتهم وأغطيتهم، المنظر الذي يكاد يكون نفسه في السعودية، لا فرق بين الصورتين.

والعادات، في أكثرها تكون مشتركة، في الزواج مثلاً، يهتم اليمنيون كثيراً بالأصول القبلية، حيث يحرصون على السؤال عن أصول الخاطب ودمه وعرقه، مثلما يسألون عن دينه

وأخلاقه. وفي الأعراس، يعتبر إطلاق النيران مظهراً من مظاهر الاحتفال. ولليمنيين والسعوديين، خصوصاً قبائل الجنوب، سحنة واحدة، وملامح متشابهة، في كثير من الأحيان. نحن أكثر من جيران، وبيننا جذور ضاربة في العمق يا فيصل، بيننا دماء وروابط مشتركة وثيقة، لا يحلها شيء.

يقول جملته الأخيرة وهو ينظر في عمق عينيك، ولا يجد رداً. يلاحظ أن الصوت الذي كان يسأله ويناقشه - ويواسيه أحياناً- ابتلعه الصمت، ولم يعد يخرج أبداً.

وتمضي الأيام، وهو يشاهد، يومياً، الأخبار التي تفتح جروحه، والمشاهد التي تصب في عينيه الماء، ثم ينزف داخلياً، ويدفعه ألمه إلى الحديث. يتحدث ويحكي، يحكي ويشكي، يشكي ويبكي، ولا يسمع إلا بعض المواساة، وبعض الدعوات المخنوقة.

ضمير أيضاً كان يتحدث ويروي، ولكنه لم يكن يشكو مثل علي. هذا الرجل، بحكاياته المتخمة بالتفاصيل كان الوحيد الذي باستطاعته أن يجعلك تُبحر في تخيل حياة القرى بتفاصيلها، حيث البيوت الحجرية المتلاصقة، وأرجاؤها الداخلية. كان يجعلك تغمض عينيك، وتتخيل الأرضية القاسية التي يملؤها الحصى، تنور الخبز الحجري في الوسط، البقرة المربوطة بجوار الباب، القن الصغير في الزاوية، والدجاجات التي تحوم خارجه بأريحية، وتأكل طعامها مع أفراد المنزل، من الصحن مباشرة، كأنها تكاد تصبح جزءاً من العائلة.

كان باستطاعته أن يجعلك ترى صور الأزقة الضيقة بين البيوت، وحمالي الحطب الذين يقطعونها ذهاباً وإياباً، والمارة الحفاة، يعودون في آخر النهار، حين تدنو ظلال المساء، وعلى رؤوسهم قِربُ المياه. كان باستطاعته أن يغمرك في بحر الحياة البدائية وبساطة العيش، ثم ينتشك بسهولة إلى مكان آخر، إلى حياة المدن والصخب والتلوث، حين يصف المدينة بشوارعها، بأسواقها المزدهمة بالبشر، وعربات الأطعمة ذات الصواني المعدنية، تنتشر على جانبي الطريق، ينادي أصحابها على الخبز الرقيق والطعام المقلي.

وحين تسمع منه كل هذه الحكايات، يلح في خاطرك سؤال وحيد، كيف تبدو الرياض في عينيه؟

هل سيصف لأهل القرى نعيم الرياض الذي لم يتذوقوا طعمه من قبل؟ أن السيارات في شوارعها تفوق أعداد البشر؟ أن شوارعها مضاءة دائماً بأضواء ذهبية ساطعة تعمل على مدار الساعة؟ أن البيوت، على حد سواء، مشيدة من حجر عازل، ولها أسقف عازلة، وأرضيات مبلطة بالرخام والسيراميك، أو مفروشة، في أدنى الحالات، بما يريح الأقدام ويقيها من البرد؟

أم سيكون واقعياً أكثر، ليصفها بالوجه الذي رآها عليه: الأرصفة المكسورة، العمارات المتهالكة، الشوارع المغلقة بسبب الإصلاحات التي لن تنتهي قبل مئة عام، ينابيع المجاري الطافحة في كل مكان، العصابات الإفريقية التي تبيع المخدرات علناً، والرائحة النتنة؟

كيف سيتخيل أهل القرى في باكستان الحياة في هذه المدينة؟

تسأل خالد فيبتسم، ويفتح مفكرته الصغيرة، ويناديك إلى الكتابة.

- سؤال لا يصدر إلا عن صحفي. هيا يا فيصل، ماذا ستكتب تحت هذا العنوان؟

تبتسم لابتسامته، تبتسم لابتسامته تشبه الضحكة، وتتساءل، كيف أصبحت الحياة بهذه البهجة واللطافة؟ وكيف أصبحت حكايات سكان بيت الفيصلية ممتعة إلى هذا الحد؟

ربما لأن مواضيع علي الحساسة لم تعد حساسة بعد الآن، ولأنك بدوت أكثر تواضعاً وسماحة من قبل، ولأن الفروقات أوشكت أن تذوب، ليصبح جزء منك في علي، وجزء منك في خالد. أصبح خالد مع الأيام يقلد كلماتك محاكياً أسلوبك في الكلام، وبدأ علي يجرب كتابة المقالات تماماً مثل صحفي، وبدأت أنت تميل إلى استكشاف الكتب الغريبة، تماماً مثل علي. كل هذا، إلى جانب الجلوس على المساند، مع الشاي الذي يعده مطعم عمر، وأكياس الأرز الأصفر وسفر البلاستيك، كانت أشياء لم تتذوق طعمها من قبل.

(13)

لم يكن خالد يتفاعل مع أحاديث علي مثلما يتفاعل مع حكايات ضمير.

كان سكوته غريباً كلما شرع علي بالحديث في مواضيعه المعتادة، كان هدوؤه أغرب. وكلما استرسل علي في شكواه، تعثره حالة من السكون والشroud، وتسافر به خواطره إلى مكان بعيد، وتظله غيمة رمادية لا يعرف سببها، فيبدو منطفاً أكثر من العادة. لا يجيب، لا يتفاعل، لا يعلق، ولا يستيقظ من غفوته إلا إذا التفتت إليه، فينظر إليك صامتاً، ثم يعود إلى شروده.

كان الأمر في بدايته عادياً، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الريبة أو الاستغراب. هل يستغرب أحد من خالد صمته وهدوءه؟ منذ متى كان طبعه المألوف أمراً يثير الريبة والشك؟

ذات يوم، انبثقت في رأسك فكرة، خاطرة، مثل كل الخواطر المجنونة التي ترد في عقولنا أحياناً بلا تخطيط، ولكنها بدت غريبة جداً في بدايتها. استطاعت هذه الفكرة، أن تتشبث بك قبل أن تمررها سريعاً مثل كل الخواطر العابرة، ثم اتسعت وتعمقت أكثر، وتحولت إلى هاجس، وتحول هاجسها إلى هم.

كانت فكرة غريبة، مجنونة، تشبه الوسواس التي نستعيد منها ونحاول طردها قبل أن تتشبث في أدمغتنا وتستحوذ على تفكيرنا. كانت وحيماً، نزلت فجأة من العدم، بلا أسباب ولا مقدمات، وبمجرد ما تبدأ بالتفكير فيها، يعتريك خوف من نوع غريب، ويتسع الشك في قلبك مثل لطفة سوداء، وتتساءل بصدمة، ماذا لو كانت هذه الفكرة حقيقة؟

هل يمكن أن يكون خالد واحداً منهم؟ يطفو سؤال من أعماق عقلك، وأنت جالس على سرير خالد، تتأمل في وجهه وسحنته، ملامحه الهادئة المسالمة، لون جلده الرملي، ومسحة الهدوء في عينيه.

تسمعه يتكلم في مواضيعه المعتادة وأنت غائب في تفاصيل وجهه، غارق في التفكير. وحين تنتهي الزيارة تعود إلى الشقة مهموماً، وتستلقي على سريرك، وتصارعك الأفكار الغريبة. تمر في خيالك كل اللحظات القديمة التي قضيتها مع خالد، كل الحقائق التي تعرفها عنه وعن لى، وتشرع في ربط الحقائق ببعضها، والأمور بأسبابها. إن كان الأمر صحيحاً فلم لم يتكلم خالد طوال هذه المدة؟ كيف أخفى الأمر؟ تتساءل وأنت غائص في فراشك، عاجز عن النوم، وعينك مفتوحتان في جوف الظلام. كلما فكرت أكثر، كلما أحسست بواقعية الفكرة، ومنطقية الاحتمالات، وتخيلت فداحة الأمر، لو كان حقيقة.

ينطوي الليل ويأتي النهار بغتة، وتنظر إلى لى نهاراً، وهي جالسة بقربك على المائدة، تتناول غداءها بسرحة. تزول كل وساوس الليل فجأة، ويرادك إحساس باستحالة الفكرة، وبأن هذيان الليل وخواطره كانت مجرد أوهام. تشعر بشيء من الارتياح المؤقت، وسرعان ما يزول حين تزور خالد مساءً. تعود الشكوك لتساورك، وتبدأ بمراقبة وجهه وملامحه بطريقة غريبة، وكأن الحقيقة قد تظهر جلياً عليها.

أتخبر خالد بأنك قد بدأت تشك في شيء، أم تسأله مباشرة بلا مقدمات؟ كان بوسعك أن تسأل لى، إن كان ما تشك به حقيقة، وهي بدورها تجيبك عن كل شيء، وتقطع سبيل هذه الشكوك. سؤال واحد، كان بوسعه أن يشرح لك كل شيء، ولكنك عجزت ونفشى الخوف في عقلك، كمن يخشى أن تصبح مخاوفه حقيقة، كمن يكره أن يُفجع بالأمر.

ولحظة بعد لحظة، تتعامل مع الفكرة وكأنها حقيقة لا مفر منها. تسلم بها وتستسلم لها، ويطبق الضيق على صدرك. يلاحظ خالد في نظراتك بعض العتاب، يشعر بالنظرات الأليفة الدافئة قد بدأت تعاتبه وتقرصه، ولا يفهم السبب. وحين تغادر بيته ليلاً محملاً بالإحباط واليأس، تقابل لى في الصالة، وتعيد رؤيتها إليك بعض الأمل. تنظر إلى وجهها الصغير بتمعن، تزيدك ملامحها حيرة فوق حيرة، ويهمس صوتك الداخلي، مستحيل.

الاثنين، 25 رجب 1437هـ

في ليلة دافئة هادئة فريدة، جلست مع خالد على سريره الحديدي، ولم يكن ثمة مواقف ترويانها، أو مواضيع جديدة تتحدثان بها.

انتهت كل الأحاديث، وخوت الصدور من الحكايات، وشغرت القلوب تماماً، إلا من أسرار الليل. سيطر الهدوء على الأجواء، وفي لحظة من لحظات هذه الليلة الهادئة التي لم تنس تفاصيلها أبداً، سألك خالد سؤالاً تفاجأت به كثيراً، ولا تدري كيف استدعى سؤاله البسيط، كثيراً من الذكريات والأوجاع.

- فيصل هل لديك أصدقاء؟ لم تحدثني مرةً عن أصدقائك، أليس هذا غريباً؟

خطر في بالك فهد، ولم تدري كيف تجيب.

- لا أملك أصدقاءً حقيقيين، كل الذين مروا في حياتي سيئون وأنذال، ولا أدري إن كان من بينهم من كان يحمل لي شعوراً صادقاً.

- لماذا!!

تساءل بغرابة، فأجبته:

- لا أدري يا خالد، كلما فرحت بصداقة جديدة مع أحدهم شبت الخلافات بيني وبينه وانهمرت من فوقنا المشكلات كأنها تتقصدنا، وسرعان ما نفترق في النهاية.

- هذا غريب فعلاً!

- حظي سبيء مع الصداقات، لا أدري لماذا.

كان عليك أن تشرح له أكثر، ولكنك اكتفيت بهذه الإجابة، وسكتت. ومع دفء الليل وسكون الأجواء، شعرت، لأول مرة، بأن الأسرار في داخلك بدأت تتزاحم وتفيض، وأحسست بها، توشك أن تتجاوز مساحة صدرك، لتصل إلى حد الحنجرة. أهي التي تسعرت وهاجت مع سكون الليل؟ أم إن المساحة في صدرك قد بدأت تضيق وتتقلص، لتصبح عاجزة عن احتوائها؟ لا تدري ما الذي حصل، سوى أن الكلمات تدافعت فجأة، وخرجت فجأة، وأن لسانك انطلق بسلاسة، ليروي لخالد حكايات الماضي، ويصف له أيام الجنوح والتهيه.

بدأت، بلا شعور، تفتح عينيه على شخصية لا يعرفها، على حقائق لم يسمعها ولم يتخيلها من قبل، ومضيت تحكي.

- أتدري يا خالد؟ ربما علي أن أشرح لك السبب الحقيقي وراء هذا الأمر. سابقاً، كنت شخصاً مختلفاً تماماً عما تراه الآن، صدق أو لا تصدق، لقد كنت شيطاناً بصورة إنسان. لم تبق فتاة لم أغازلها، لم تبق فتاة لم أعبت معها، لم تبق فتاة لم أتأوه معها علي الهاتف في خضم الليل. كان خبثي عظيماً، وحيلي لا حد لها ولا نهاية، وشباكي بوسعها أن تمتد لتقتنص أنى فتاة على وجه الأرض. كنت أصاحب من يشبهني من الرجال، نتناقل العادات الفاسدة ونتبادل الفتيات مثلما يتبادل الأطفال ألعابهم ودُمَاهم، ونجتمع في أقبح الأماكن، مواخير نجسة، نتكيف مع أجوائها مثلما نتكيف مع قذارة أرواحنا.

لا تلبث صداقتنا وقتاً طويلاً إذ سرعان ما تتفشى السخرية بيننا ونشرع في نبز بعضنا بأقذر الألقاب، يقذف أحدها الآخر بسهولة وكأن الأمر اعتيادي جداً، وتنحدر الأوضاع أكثر فأكثر، إلى درجة لا يمكن تخيلها، حين يسمع أحدهنا سيرة أخته، أو والدته، تتردد على أقذر لسان. أنا أسف يا خالد، أسف على هذه التفاصيل، ولكني يجب أن أشرح لك لماذا يصبح استمرار الصداقة مستحيلاً جداً. تعرفت يا خالد ذات يوم على فهد، شاب لا يختلف عن أولئك الذين أصاحبهم عادةً بيد أن شيئاً واحداً يميزه، وهو أنه من عائلة متدينة جداً. أبوه يعمل في الهيئة، أمه معلمة فقه، وإخوته حفاظ للقرآن ولا أدري كيف نتأ هو من بينهم نبتة فاسدة. كان يشبهني كثيراً، أحببت شخصيته وأحاديثه، وعرفني هو بدوره على أصدقائه الخمسة، واستمرت صداقتنا إلى ما يقارب الأربعة أشهر.

ذات ليلة، قررت، أن نجتمع في استراحتي التي اشتريتها قبل مدة، والتي حرصت أن تكون أبعد ما يكون عن الأنظار. اتفقت معهم أن نستمتع في هذه الليلة بكل لحظة وأن نظفر بكل ثوانيتها، وأن نجهزها بكل الملذات، لنجعل منها ليلة لا تنسى. لا أنسى كيف طمأنتهم بأني اخترت مكاناً لا يفطن إليه أحد، أن استراحتي هذه لا مكان لها على الخريطة، وأنها منزوية في أرض مقطوعة، لا يمكن أن تلمح فيها سيارة للشرطة. كنت أومل نفسي بسهرة لذيذة، أفعل فيها ما يحلو لي، وأرتشف كل لحظات المتعة وأنا مرتاح البال. بدأت السهرة عند

الثانية عشرة مساءً، حضرت الفتيات على الموعد، جُهزت الطاولة بمختلف الأطعمة والمشروبات، الخمر كان حاضراً، الكؤوس على عدد الحاضرين، وسيجارات الحشيش لمن يريد. في منتصف السهرة تقريباً، أو قبل أن تشتعل فتيلة الليل الأخير، خرجت أنا لأحضر بعض النواقص، وغبت وقتاً طويلاً، إلى ما يقارب الساعة أو أكثر. أتُعرف ماذا وجدت حين عدت؟ وجدت سيارات الشرطة تستقبلني بحفاوة، ثلاث سيارات أو أكثر، وإلى جانبها تقف سيارة الهيئة بشموخ، بيضاء كالحليب، تلمع وسط الليل.

يهز خالد رأسه مصدوماً، وتواصل أنت سرد الحكاية.

- لم أخف في حياتي مثل ما خفت تلك اللحظة، شعرت أن الهواء من حولي نفذ، أن خلاياي تجمدت، وأن قلبي وصل حنجرتي حقيقةً لا مجازاً. ركنت سيارتي في أول الحارة، كان الظلام مهيباً، وعقلي من فرط الخوف قد بدأ يرسم أبشع الخيالات، سيناريويات مرعبة أخذت تجري في عقلي بصورة مفاجئة. تخيلت لو أنني أساق إلى السجن، تخيلت لو أن أبي يدري، تخيلت فهد يُجر مغصوباً بأيادي الشرطة، ثم ما لبثت أن رأيته فعلاً، وكانت الصورة أبشع من الخيال.

لم أستطع نسيان صرخته التي خرجت بقوة من ثنايا حلقه المتحشرج المخنوق، ولا أنسى كيف جمد الرعب أطرافي واستدرت سريعاً قبل أن ينتبه لوجودي أحد. ذهبت إلى البيت مفجوعاً، أغلقت باب غرفتي وأنا أسمع دقات قلبي، وأسمع معها دوي صفارات الشرطة، يرن في أذني بوضوح. استلقيت على سريرتي، كنت أشعر أن النجاة مستحيلة، أعرف تماماً أن أحداً منهم لن يتكتم على خبر وجودي هناك، وأيقنت أن اتصالاً من الشرطة سيباغتني بعد قليل.

- يا الله، وكيف نجوت؟

- قضيت الليل كله أفكر في حل، ومع طلوع الفجر، استدعيت إلى المركز، وحين وقفت أمام الضابط، أنكرت كل شيء. تخيلت يا خالد؟ هكذا ببساطة، أنكرت صداقتي مع فهد، أنكرت جلوسي معهم، وأنكرت ببساطة، كل ما اتهمت به. كيف فعلت هذا؟ الأمر أبسط مما تظن، ادعيت بأنني الشاب البريء الصالح الذي لا حول له ولا دراية، الذي يمتلك استراحة باسمه اعتاد أن يؤجرها دوماً للشباب العُزاب، حتى استأجرها مجموعة شباب هداهم الله، حولوها إلى واحدة من بيوت اللهو والخمور. هداهم الله! كنت مرتاحاً وأنا أتكلم، كنت هادئاً ومستكيناً يا خالد، بينما في داخلي تموج مشاعر الخوف، تكاد تدفعني إلى الانهيار. كاد فهد أن يجن وهو يسمع كلامي هذا، حاول أن يثبت العكس، ولكن عجزه عن إحضار الدليل وغضبه الشديد وصراخه في وجه الضابط ولعناته التي كان يطلقها في وجهي أوغرت صدر الضابط عليه فقام بطرده مباشرة من المكان، ثم سمح لي بالخروج. يا الله، كانت معجزة يا خالد، ولكني ما إن خرجت من مركز الشرطة حتى دلفت في دوامة من الاكتئاب

لا طرف لها ولا نهاية، لم أذق طعم الهناء من يومها وما زلت صريع كآبتي، وما زال فهد يتوعدني بالانتقام.

- وما الذي يجعله يهدد بالانتقام؟ أيعني أنه لو كان في مكانك لن يفعل مثلما فعلت؟

- لا أدري، ربما كره أنايتي، أو ربما أوجعته العقوبة التي لاقاها من أبيه وتضايق حين تذكر أنني لو كُشفت أيضاً فلن تكون عقوبة أبي على الدرجة نفسها أبداً. والذي ليس كوالد فهد، لا يتعامل بالضرب ولا بالحبس، ولكن كرهه مخيف جداً حين يكرهه، وجفاؤه قاسٍ جداً.

سكت خالد قليلاً، وراح يفكر. أمام سكوته رحت تتساءل ما إذا كان يفكر بالطريقة التي تخشاها، وما إذا كان مصدوماً بوجهك الآخر الذي سمع عنه فجأة. سحبت نفساً طويلاً، وقلت:

- أظن أنني لم أتغير؟ أنا يا خالد بلغت مرحلة جديدة من النقاء، مرحلة جديدة من الإنسانية، وتحولت تماماً إلى شخص آخر. استبدلت روعي القديمة روحاً جديدة أخرى ناصعة البياض، وقلبي، الذي صارت تتملكه دموع الأبرياء، لم يعد أبداً كما كان.

هل يمكن أن يكره خالد شخصاً وصل معه إلى أعماق درجات الأخوة والحب من أجل شخصية قديمة لم يرها أبداً، ونزوات لم يسمع بها سوى اليوم؟ أبداً. ابتسم خالد حتى رأيت غمازته الطويلة تأخذ شكلها بوضوح في عظمة فكه، وعينيته تغوصان. سمعته يقول:

- لا داعي لهذا الكلام.

يا الله ما أجمله من تطمين. ربما كانت أجمل رسالة تتلقاها اليوم، أجمل لحظة تعيشها تحت سقف هذه الغرفة، ولكن ما حدث بعدها، كان فظيماً جداً.

غادر خالد مستأذناً إلى دورة المياه، فبقيت في غرفته وحيداً. اعتراك الهاجس ذاته، ولمحت حقيبته مرمية عند قدم السرير، فالتقطتها بلا شعور، ورحت تفتش عن شيء، شيء يُثبت هوية خالد. كانت الفكرة لا تزال تدور في رأسك، وهذه اللحظة التي غاب فيها خالد، لا تستطيع التفريط بها.

انتفضت، حين لمحت بطاقته البيضاء، مدسوسة في جيب حقيبته. أخرجتها بسرعة، قلبتها بلا تفكير، ورحت تتلمى في حروفها بعينين جاحظتين.

"هوية مقيم" تخشبت أطرافك، وأنت تقرأ العبارة الواضحة، المكتوبة بالخط العريض، في رأس البطاقة. نزلت تبحث عن تفاصيل أخرى، وكأن العبارة لا تكفي لتثبت صدق حدسك.

قرأت جنسيته المكتوبة بوضوح، قرأتها بصوتك الداخلي وصوتك الحقيقي، ثم حولت عينيك إلى صورته الصغيرة على اليسار، ووجهه الذي كان مختلفاً.

خالد مقيم يا فيصل، مثله مثل علي، مثله مثل عبد الرحمن، مثله مثل ضمير. تهبط هذه الحقيقة على قلبك قاسية وثقيلة، مثل كتلة من صخر. سحبت نفساً عميقاً، وبهدوء، أعدت بطاقته إلى مكانها، ثم غادرت غرفته صامتاً.

الفصل الثالث:

« الرحيل »

(1)

لا بد أن ما حدث كان حلمًا، كان خرافة، كان ضرباً من ضروب المستحيل.

ماذا يمكن أن تسمي ما حدث قبل قليل؟ الحلم الذي يشبه الحقيقة، أم الحقيقة التي تشبه الحلم؟ أم تسميه نكتة الموسم، اسم ساخر، يليق بهذه المهزلة؟

أغلقت باب الغرفة وراءك، ومشيت بخطى هادئة، وعينيك مصعقتين. كيف سارت الأمور على هذا النحو؟ كيف؟ تقطع الصالة مثل لص متخفٍ، تفتح باب السيارة وتجلس خلف المقود مهموماً، منهد الجسد حزين القلب. تشعر بأطرافك ترتخي وتسكن، تجيء سكينه الليل لتهبط على كتفيك، وصمته ليغمر قلبك. تشعر بجسدك كله يرتخي ويسكن، ولكن دماغك المجنون لا يهدأ أبداً. كيف حدث هذا كله، كيف؟

أرسلت عينيك في الفضاء المظلم خارج السيارة، ثم أرخيتهما إلى الأرض، وأطلقت تنهيدة بحجم هذه الصدمة. خالد يمني يا عالم، مثله مثل علي، مثله مثل عبد الرحمن. خالد يكذب، يكذب يا عالم، يكذب كما يكذب المتمرسون، ويتخفى كما يتخفى اللصوص، ويتعايش مع الكذبة كأنها حقيقة. أي صدمة أشنع من أن تدعي الذكاء والفتنة، ثم تكتشف بأنك المخدوع؟ أي سخرية أكبر من أن تكون أنت الممثل، ثم تكتشف أن العالم كله يمثل عليك؟ تبتسم ابتسامة صغيرة، وتراودك رغبة عجيبة، بالضحك المجنون. تزول الرغبة المجنونة بسرعة، تتضاءل الصدمة ويختفي الجنون، ويصبح دماغك أكثر عقلانية، ليشرع بتحليل الأمور، وربطها بأسبابها.

أتذكر اليوم الأول الذي رأيت فيه خالداً؟ تلوح في خاطرك صورته وهو بقميصه الأزرق القديم، والمنشفة المتسخة ملقاة على كتفه. تتذكر هيأته، وهو يقف في الورشة وسط العمال متكئاً على سيارة، أو منحنيماً إليها، ويداه لا تخلو، عادة، من حديدة أو مفتاح. تتذكر صورة الوجه الأسمر الحزين والملامح المنهكة بالتعب، والقامة الهزيلة التي، كما يقول علي، تنكئ عليها الدنيا بأكملها.

ألم تكن حياة خالد في الورشة تشكل صورة العامل اليمني المألوفة، بلا تميز ولا اختلاف؟
ألم تكن الملامح المسالمة الهادئة قاسماً مشتركاً بينه وبين عشرات اليمنيين الذين تراهم
حوله وفي كل مكان؟ مرة أخرى، تتنهد بعمق، وتشعر بعينيك تتفتح فجأة، على كل الحقائق
الغائبة والمنسية.

فكرت في كونه وحيداً بلا أهل، بلا أقارب متجاورين، وبكونه يرتاح لوجود علي وعبد
الرحمن معه في البيت نفسه، أكثر من غيرهم. ليس غريباً أن يشعر الإنسان بالأنس
والارتياح حين يقيم مع أبناء جلدته، إنهما يزيلان عنه شعور الوحشة، ووجودهما حوله
يشعره بشيء من الانتماء، ما يخفف عليه وطأة الغربة. ألا تبدو هذه الحقائق أسطع من
نجمة؟ كيف لم تلاحظ وتستنكر شيئاً غير سكوته أمام أحاديث علي؟

مرة ثالثة، تتنهد تنهيدة بحجم هذا الحزن، وتسال نفسك، والآن ماذا؟

الآن أنت وحدك أكثر من أي وقت مضى، مخدوع وضعيف، ضعيف ووحيد، والحياة كلها
تمشي عكس ما تريد. تشعر أن القدر يمتحنك لا يسخر منك، وأنه يصمم على تأديك، وأن
الحياة لم يعد بوسعها أن تمضي مضيها المعتاد، دون أن تطحن رأسك مع كل خطوة.

تسحب نفساً طويلاً، وتتحرك من المكان بسرعة، قبل أن يخرج خالد. أتذكر حين رأيت
خالداً لأول مرة، وكيف احتقنت في جبينك دماء الحمية والغضب حين شاهدت سعودياً
بذلك المنظر؟ أتذكر كيف تحولت إلى كتلة من الغضب حين اكتشفت أنه يسكن مع علي
وعبد الرحمن في بيت واحد وصممت على إخراجه من هناك، وكيف صارت تصرفاتك
المندفعة والهائجة اليوم مدعاة للسخرية؟ من ينسى هذا؟ تبتسم ابتسامة ضئيلة،
ويستحوذ الحزن على قلبك.

تشعل سيجارة وأنت في الطريق، وتتسلل الأفكار السيئة إلى دماغك، على رؤوس أقدامها.
سيبدأ ذلك الصوت المقيت داخل رأسك عمله اليوم، ربما في النصف الأخير من الليل، أو
أبكر بقليل. سوف يسخر منك كثيراً، سوف يزيد من فداحة الموقف، وسوف يشعرك
بالإهانة والانخداع. سوف يسدد كلماته المهينة والجارحة إلى موطن الجرح، ولكن إياك أن
تستسلم له مثل كل مرة، إياك. تسحب نفساً أطول، وتتذكر دوامة البكاء التي غرقت فيها
يوم انتقمت من عبد الرحمن، وتشعر بالدموع تلسع عينيك. كيف يمكنك أن تعبر هذه
الصدمة بلا بكاء، بلا اكتئاب؟ كيف يمكنك أن تسكت هذا الصوت قبل أن يتحول إلى
كابوس؟

إياك أن تضعف، وأنت الذي يجب أن يمنح الأمن والأمان للآخرين. لقد خلقت لتكون الجدار
الذي تستند عليه لِمى قبل أخيها، الجدار الذي يحمل بداخله قلباً رقيقاً، يمنح الدفء
والعطاء بلا حدود. لقد خلقت لتكون مرشداً اجتماعياً، أخصائياً نفسياً، مدرساً خصوصياً،

وجسداً يتكى عليه الأطفال والكبار. من يمكن أن يجمع بين كل هذا الأدوار سوى الأب؟ لا أحد سواك، لا أحد.

تفكر بالأمر من زاوية أخرى، خالد لم يكذب. إنه فقط أخفى الأمر، ولا بد أن هناك سبباً وراء هذا. هل يستطيع هذا الولد أن يقرأ ما تفكر فيه؟ هل يعرف أن في قلبك كثيراً من العنصرية والكره، وخبثاً يختبئ وراء الملامح الأليفة الدافئة؟

تري ما الذي جعله يسكت؟ تتنهد مجدداً، أنت لازلت تفكر بالأمر كأنه يخص خالد وحده، وكأن لى لا علاقة لها بالأمر. لماذا أخفت الأمر هي أيضاً؟ تتصور هذه الطفلة كأعد طفلة رأيتها في حياتك. تتصورها كتلة هائلة من الأسرار لا يعرف عنها سوى الله، ولا ينفذ إلى داخلها أحد. منذ أن جاءت وهي محاطة بهالة من الغموض لا تنقشع، تخفي بعضاً من الحقائق وتكشف أخرى بلا سبب، وتتقلب، في شخصيتها، بين طفلة بريئة وامرأة حادة الذكاء. إنها تذهلك دائماً، في كلامها وفي سكوتها، في طفولتها وفي نضجها، في براءتها وفي خبثها العظيم. أمام أي نوع من الأطفال أنت؟ تعض شفطيك، وتشتهي لو تفتح رأسها الصغير، لتري كيف تفكر.

وصلت إلى الشقة في غضون نصف ساعة، وبحثت عن لى بعينيك قبل أن تغلق الباب. سمعت صوتاً في المطبخ، فأتجته إليه بلا تفكير. رأيتها هناك، جالسة على الكرسي الخشبي أمام الطاولة، تتناول عشاءها بهدوء، ورأسها كالعادة، قريب من الصحن.

حين دخلت، رفعت رأسها إليك، فرأيت ملامحها مسترخية، ووجهها مرتاح. بهدوء تام، اقتربت إليها صامتاً، ثم وضعت كفيك على الطاولة، مباعداً بينهما، وانحنيت قليلاً نحو الأمام، فلم يعد يفصلها عنك، سوى مسافة قصيرة.

سألته بلهجة حادة، في لحظة، تشبه لحظات التحقيق الصارمة، لحظة يسكن فيها الهواء والنفس، وخلايا الجسد كله:

- لماذا لم تخبريني أنك لست سعودية؟

شعرت لى، أن الزمن توقف عند هذه اللحظة. رأيت الصدمة وهي تصفع وجهها البشوش الرقيق، والخوف وهو يبدد ارتياحها واسترخاءها. تركت الملعقة بهدوء، ثم أرخت عينيها إلى الأرض، ولم تتكلم أبداً.

في تلك اللحظة، جلست على الكرسي المقابل لها، ووضعت ذراعيك على الطاولة، وصدرك يكاد يلتصق بحافتها. سحبت نفساً عميقاً، تبدلت نبرة صوتك، ليكسوها الحزن، وشيء من السخرية المرة:

- لى، هل تظنينى وحشاً لا يؤمن له جانب؟ ألا ترين ذلك الحنان الفائض الذى أعاملك به منذ جئت إلى هنا؟ هل كل هذا غير مرئى بالنسبة لك؟

غمرتها الصدمة أكثر، وتكالبت عليها مشاعر الخوف والحزن. سألتك بدهشة، وصوتها قريب من البكاء:

- ما هذا الكلام؟

- لا أدري يا لى، أجيبيني أنت!

أطرقت عينيها مجدداً، تجمعت الدموع فى عينيها، وهمست، بغصة:

- ترددت.

- لماذا؟

- خشيت أن ... خشيت أن تغضب.

-أغضب لماذا؟!!!!

سألتها بصدمة، فأجابت:

- لأننى لم أخبرك من البداية.

- لا إله إلا الله! أهذه إجابة يا لى؟ لماذا كتمت الأمر من البداية؟

انهمرت دموعها أكثر، ولكنها لا زالت متماسكة، رغم الحزن. سمعتها ترجوك بصوتها المنخفض ألا تصرخ، كانت مغمورة بخوفها، وبحزنها الممتد. قالت، بعد شهيق طويل:

- كان خالد يوصينى بهذا الأمر منذ أن دخلنا المدرسة. كان يقول لى أن لا أخبر أحداً إلا عند الضرورة، أعرف تماماً ما الذى كان يعانیه.

- يا الله! أتعين أن إخبارى ليس أمراً ضرورياً؟

- لا، لم أقصد هذا. فى البداية لم أفكر أن أخبرك يا فيصل، لقد تجاهلت الموضوع تماماً مثلما كنت أتجاهله دائماً. كانت هناك أشياء كثيرة تمنعني من التفكير فيه، خوفاً العميق فى تلك اللحظة، وحزنى المترامى جداً، وقلقى تجاه مصيرى. لم أكن أتخيل، يا فيصل، أنني سأبقى هنا طوال هذه المدة، كنت أظن أن بقائى لن يتجاوز أسبوعاً على أكثر تقدير،

لهذا فضلت السكوت. ومع مضي الأيام، كان الأمر يصعب أكثر فأكثر، وكان خوفي يتعمق ويزداد، وكلما فكرت في الأمر، خشيت أن تعاتبني بعد سكوتي الطويل.

أرسلت إليك نظرة حزينة خاطفة مغمورة بالذنب، ثم سرعان ما أطرقت، وراحت تعبت بأصابعها في حضنها. كانت تعلم أن كلامها ليس مقنعاً، كانت تعلم أن تبريرها واهن وضعيف. كساها شعور موجه بالذنب، وراحت تتأسف، وتشتتم نفسها، بأبكى نبرة.

أمام حالتها تلك، وجدت نفسك عاجزاً وخائراً وضعيفاً. تمنيت أن تناقشها بشيء من الجدية، أو تعاتبها بشيء من القسوة. تمنيت، على الأقل، لو تقرصها بعينيك، ولكن الأمر كان أصعب مما تتصور. أمام دموعها استسلمت، مثل كل مرة، ووجدت نفسك مكبلاً ومهزوماً وضعيفاً. من بوسعه أن يتغلب على دموع لى؟ ربما كثيرون في هذا العالم، ولكن حتماً ليس أنت، ليس أنت.

أشحت بعينيك إلى الفراغ، وتركتها تبكي بهدوء. بعد دقيقتين، سكنث أنفاسها، وجفت الدموع على وجنتيها، إلا قطرات قليلة، تبلل رموشها. همست لها، بعد زفرة ثقيلة:

- لم يضايقني سكوتك بقدر ما فعله بي سكوت خالد. لا أدري ما مشكلة هذا الولد، أما زال لا يثق بي؟ أيعتبرني غريباً رغم كل هذا القرب والحنان والحب؟

- لا يا فيصل، إنه يخاف وحسب.

- أليس خوفه نابعاً من نقص الثقة؟ هذه كارثة يا لى. إن كان قد تردد في إخباري بجنسيته الحقيقية فكيف سيخبرني بهوموم ومشاكله الشخصية؟ كيف سأساعده إن لم يفتح قلبه لي؟

نظرت إليك بعينين تغلفهما الدموع، ولم تهمس بكلمة. سألتها عما كان يعاينيه خالد بالضبط في طفولته، فحككت لك، وهي تبكي، مواقف حُفرت في ذاكرة خالد شكلت في قلبة ندبة قديمة، وما زالت مشاعرها محفوظة وحاضرة، رغم تشوش معالمها.

" كان يؤلمه يا فيصل أن يسمع ولداً ينعتة بجنسيته وكأنها شتيمة، حين يتكلم، اسكت يا يماني، وحين يمشي باتجاه المقصف، ابتعد يا يماني، وحين يسدد هدفاً ضد خصمه في مباريات الحارة يسمع الكلمة ذاتها، ولكن من عشرات الأفواه. أشعروه أن لا حق له في الكلام ولا الشراء ولا اللعب. لم يكن ضعيفاً أبداً، كان يرد على الجميع، ولكن ما يؤلمه حقاً ويهز كبرياءه أنه حين يسمع هذه الكلمة، يرددها، بلا شعور، بشتيمة أو لعنة. يشعر بالخجل من نفسه، كيف يغضب من استنقاصهم لجنسيته وهو بنفسه يعتبرها شتيمة يجب ألا يسكت عليها؟ لقد غيروا من نظرتهم لجنسيته ولنفسه، وكان هذا هو ما حطم نفسيته. كان يوصيني يا فيصل أن أخفي الأمر عن الفتيات في المدرسة بقدر ما أستطيع، وأن لا

أخبرهم إلا عند الضرورة. يقول: "فلنحظ يا لى ببعض الحب، ببعض الأخوة، ببعض التقدير. إنهم يعتبروننا إخوانهم حتى نخبرهم بالحقيقة، فيتغير كل شيء". إنه لا يثق بأحد يا فيصل، سامحه، إنه لا يعرفك".

أغمضت عينيك، بعدما أنهت لى حديثها، وأوجعتك جملتها الأخيرة، وجعلها بالحقيقة. ألا تعرف لى أنك تشكل نموذجاً واضحاً لأولاد الحارة، وشخصية تجسد كثيراً من تصرفاتهم، رغم اختلاف الظروف؟ تسمع صوتك الداخلي وهو يشتمك بعنف، ويلعنك بقسوة، ويرن داخل رأسك مثل آلة بدأت عملها بجنون. سحبت نفساً عميقاً تحاول به تثبيت نفسك، وأنت موشك على الانهيار. اقتربت برأسك نحو رأسها الصغير، وهمست لها حزناً:

- أنا آسف.

مددت يدك على الطاولة، وفتحت كفك إليها، ورجوتها بعينيك، أن تضع يدها هي الأخرى، فيلتقي الجرح ببلسمه، والوجع بشفائه. تنهدت، ومررت في خاطرك رحلة الشقاء كلها، التجربة التي عبرتها بكل صعوباتها وآلامها، وشعرت أن لى لا تفهم شيئاً مما مررت به، وأن الشعور أصعب من أن يشرح أو يفسر. يعيش الشاب حياة غارقة بالترف والمجون، يطفو على بحر من الرفاهية والعبث، حتى إذا صار أباً، وتملكته مشاعر الأبوة وتداعياتها، استقام فجأة.

همست للى باللم:

- أنا متعب جداً، أخبريني ماذا أفعل الآن؟ أخوك لا يتكلم، وأنا سئمت من المحاولة معه، وأشعر أن طاقتي نفذت وأنا أمشي في طريق مسدود. أنا لم أفشل يا لى، لقد استطعت أن أبلغ في قلبه مكانة لم يبلغها أحد، وأشعر، من فرط تقاربنا، أن صداقتنا ستكون أبدية، ما دام يحمل لي الشعور ذاته. ماذا أفعل؟ أخبريني أنت، هل هناك طريقة، أو لغة، أو نبذة، يستسلم خالد عندها، ويبوح بكل شيء؟ لم أترك شيئاً لم أجربه معه، وأنا الآن متعب ومهموم، وأشعر أن الحمل يزداد ثقلاً يوماً بعد يوم. أخطط الآن لأن أخذ إجازة، وأتوقف عدداً من الأيام ريثما أرتاح وأستجمع طاقتي من جديد. أنا متعب يا لى، اسمحي لي، سأتوقف قليلاً.

كنت متعباً جداً، إن روحك منهكة لأن ضميرك لم ينم أبداً منذ تلك اللحظة التي استيقظ فيها لأول مرة، لأنك تفكر في الضعف الذي يغلف لى والذي يغمر قلب خالد، لأنك تتصارع مع إنسانيتك، وهل يدفع الإنسان ثمن إنسانيته، إلا من سبات عينيه؟ غادرت المطبخ إلى غرفتك، لم تنبس ببنت شفه، ولم تلتفت إلى لى أبداً.

(2)

4 شعبان 1437هـ

يوم الأربعاء، بعد مضي أكثر من أسبوع من الانقطاع، كنت قد أوشكت على الوصول إلى الحارة، حينما اتصل خالد من هاتف علي، صدفة، في الوقت الذي كنت تركن فيه سيارتك أمام الباب.

- ألن تأتي يا فيصل؟

تحسست حزنه عبر صوته، بدا مختلفاً وغريباً، وكأنه استيقظ للتو، أو كأنه كان يبكي. ما به؟ هل ظل طوال فترة غيابك يعيش غريق حزنه، أم أن ثمة مكروهاً قد أصابه؟ أخبرته أنك قد وصلت، ثم نزلت من السيارة، والتقيته عند الباب. حين رأيت وجهه، شعرت أنك تراه لأول مرة، واختفت ابتسامتك، بددتها الدهشة والخوف.

كانت عيناه محمرتين، منطفئتين، تكاد لا ترى مع ذبولها، ووجهه مُغتمٌ ومكوم. شعرت أن بقعتي الليل تحت عينيه قد تمددت لتغطي وجهه كله، وأن حزناً جديداً قد نزل على قلبه. ما الذي أصابه؟ ألن يجيب؟ ألن يفصح ولو لمرة؟ إلى متى سيسكت هذا الولد؟

كان من الممكن أن ينتهي اليوم كل شيء، وأن تغادر بيت خالد سائماً ويائساً بلا عودة، وتعود إلى لمى حتى يكتب الله قدراً جديداً. ولكن اليوم، أعلنت بداية جديدة، بداية منعطف جديد، وتبدلت الأشياء كلها، لتولد قصة جديدة، من رحم النهاية.

صافحته خدماً لخد، كان يبتسم محاولاً إخفاء حزنه، وكانت ابتسامته شاحبة، توحى بحزنه أكثر مما تخفيه. دخلت معه إلى الغرفة، وجلست على سريره الحديدي، ورحت تتأمل الغرفة كمن اشتاق إلى أرجائها بعد طول غياب. سألته:

- ماذا فعلت في الأيام الماضية؟

- لا شيء.

خرج صوته مبوحاً، ضئيلاً، بالكاد يسمع، فشعرت أن حزنه أعظم مما تتخيل. لوهلة، ابتسمت داخلياً، وداهمك إحساس قادم من مكان بعيد، أن خالداً في هذا اليوم سيتكلم، حتى يفرغ آخر قطرة من حزنه. سرعان ما رسمت على وجهك علامات الحزن، وهمست:

- أعتذر عن هذا الغياب، انشغلت بعض الشيء.

- لا بأس.

تبلورت دمعة في عين خالد، ولم ينبس بكلمة أخرى. وضعت يدك على كتفه، وسألته بشيء من الاستغراب، عن حالته وحزنه. همس وهو ينظر إلى حضنه:

- توقعت أنني فقدت صديقاً حميماً.

- يا الله. كم تهوى التشاؤم يا خالد!

شيئاً فشيئاً، لاحظت أن وجهه يتغير تدريجياً، تحمر العينان فتتجمع فيهما الدموع، وترتجف الشفتان فتزيد الأمر سوءاً. سحب نفساً عميقاً، وأخرجه زفيراً متقطعاً، وكانت هذه هي أول مقدمات البكاء. في هذه اللحظة شعرت بقلبك يخفق بقوة، وشعرت به يكاد يهوي، حينما نطق خالد بتلك الجملة:

- فيصل، في غيابك، حدث شيء.

سكت وكان لا نية له ليُكمل، فسألته بقلب منقبض:

- اللهم اجعله خيراً، ماذا؟

مسح عينيه بهدوء، طفرت دمعة صغيرة، تلتها أخرى، ثم صارت الدموع سيلاً ينزف بغزارة، من عينيه الداميتين.

بدأ حديثه بجملة واحدة، مهدت الطريق إلى الحكاية كلها، ثم استحالت دموعه نهران، يشقان وجنتيه طولاً:

- أخبرتك مرة أنني لا أملك عائلة، هذا صحيح، غير أن لدي أختاً واحدة، تصغرني بأربعة أعوام...

من هذه الجمل، انطلق يتحدث عن كثير من الأمور، ويكشف كثيراً من التفاصيل. تحدث عن كونه يتيماً في البداية، ثم تطرق إلى علاقته مع أبيه وزوجة أبيه، وراح يصف مرارة

الحياة التي كان يعيشها وهو بأضعف حالاته. تحدث عن لى، ذكر شيئاً من حكايات طفولته معها، حكايات تشبه التي روتها لى من قبل، حكايات خالية من التفاصيل.

كان حديثه مبهماً وغامضاً، يختصر كثيراً من الحقائق في جمل قصيرة متقطعة، ويتنقل بين الأحداث بلا فواصل ولا مقدمات. كنت تستمع إليه صامتاً، تهز رأسك محثاً إياه على مواصلة السرد، وهو يحاول بصعوبة، استجماع أنفاسه ومقاومة دموعه معاً. في لحظة ما، توقف قليلاً عن الكلام، ثم اقترب برأسه إليك، فشعرت بأن أمراً غريباً قد أصابه. نظرت في عمق عينيه الغارقتين، وسمعتة وهو يهمس:

- ذات يوم، قبل عشرة أشهر من هذه اللحظة، تركتها مع زوجة أبي وغادرت المنزل بحثاً عن عمل. وعدتها أن أعود بعد سنة، ولكني عدت قبل أربعة أيام، ولم أجدّها هناك.

تحول الهواء للحظة، إلى شيء صلب، تغص به الحناجر، ويأبى على النزول.

- ماذا!!! ماذا فعلت؟؟!!!

نزلت جملته الأخيرة على رأسك مثل الصخرة، ولم تصدق ما تسمع. بقيت ساكناً لأكثر من دقيقة تعيد جملته في رأسك، ثم نظرت إليه مذهولاً، تطلب منه أن يشرح أو يعيد. بكى خالد، في هذه اللحظة التي لم يسبق لها مثيل. نصب ساقيه ثم دفن رأسه بقوة بين ركبتيه، وسقطت نظاراته على الأرض، وبكى بحرقة، بكاء المكتئب المكلوم. سمعته وهو يؤكد جملته الأخيرة، بصوت مبحوح أرهقه البكاء:

- لم أجدّها هناك، لقد اختفت يا فيصل.

- أرجوك، اهدأ قليلاً واشرح لي كل شيء. متى ذهبت؟ وكيف اكتشفت أنها اختفت؟

رفع رأسه بصعوبة، فرأيت وجهه الأسمر مسوداً ومخنوقاً. كان خائراً وذابلاً، تناول منديلاً مسح به عينيه وأنفه، ثم تنهد، تنهيدة حزينة، يذوب لها القلب. كنت تراقبه صامتاً، تحس بقلبك ينبض بجنون، يرتفع نبضه إلى قمة رأسك تارة، ثم يهبط إلى أخفض جسدك تارة أخرى. أصغيت إليه وهو يتحدث حانياً رأسه إلى الأرض، ويده تعبت بخيوط فراشه:

- ذهبت قبل يوم السبت إلى منزلنا، وحين قرعت الجرس، تفاجأت برجل غريب يستقبلني عند الباب. أتدري من كان؟ إنه زوجها، لقد تزوجت مجدداً بعد أبي، وأسكنته في منزلنا ببساطة. لم أصدق ما حدث، ابتلعت غضبي واضطرت لأن أعرفه بنفسي، ولكنه لم يدخلني بسهولة. أمرني أن أنتظر عند الباب ودخل، ثم عاد بعد دقائق، ليدخلني إلى الصالة. أحسست بشعور غريب ما إن دخلت، شعور يناقض كل معاني الراحة والاطمئنان، وحين

رأيت زوجة أبي تنتظرني في الصالة، عرفت أن هناك خطباً ما. سألتها عن لى مباشرةً فأمسكت يدي، و... وأخبرتني أنها

- ماتت؟؟

سألته، فرفع رأسه مصدوماً، وانقبض قلبك لصورة عينيه الغارقتين، ووجهه الذي كساه الاحمرار. هز رأسه نافياً، ثم همس بسخرية:

- لا، لم تقتلها، كانت أحن قليلاً.

- خالد أرجوك لا تتكلم بهذه الطريقة. لقد بدأت تخيفني!

- لقد اعترفت لي بكل شيء يا فيصل، أخبرتني بتفاصيل الجريمة وخطواتها، وصبت الفاجعة فوق رأسي بلا تمهيد. تقول إنها بدأت جريمتها في ذلك الأربعاء المشؤوم. يومها كانت تبحث عن وظيفة تملأ فراغ أوقاتها، لم تترك شركة أو مؤسسة إلا واتصلت بها، وفي اتصالها الأخير، حين شرحت للرجل ظروفها وأوضاعها، عرض عليها وظيفة من نوع آخر، خدمة بسيطة، تفعلها متى شاءت، وتنال مقابلها، في كل مرة، مبلغاً يعجبها. أخبرها أنه يريد فتاة، فتاة جميلة، يقضي معها ليلة كاملة، ويشبع بها جوعه الذي وصل أقصاه. خمسة آلاف مقدمة، وعشرة آلاف بعد استلام الفتاة، والموعود يحين بعد عشرين يوماً من ذلك الأربعاء المشؤوم. وافقت المجرمة، وافقت بسهولة رغم ترددتها، وراحت تفكر بحيرة، أي فتاة تحضر؟ تقول إنها لم تفكر بأختي أبداً، ولم تخطر في بالها من الأساس. فكرت في أخت صديقتها المطلقة، والتي انقطعت الكهرباء عن منزلهم منذ ثلاثة أيام، بحيث تحصل هي على العشرة آلاف حين تذهب، وتترك المبلغ المقدم لها. ثم سرعان ما استبعدت الفكرة، خشيةً من أن تفشل في إقناعها. ظلت على حيرتها وترددتها حتى لم يتبق سوى ثلاثة أيام على الموعد. حينها وقعت عينها على أختي، وخططت على تسليمها في الموعد، الحادية عشرة من مساء الاثنين، واستلامها في السادسة صباحاً من اليوم نفسه. لقد فعلتها يا فيصل! لقد فعلتها حقاً. خدعت أختي وقامت بأخذها إلى الاستراحة، وفي السادسة صباحاً عادت مجدداً، ولكن أحداً لم يكن هناك. طرقت باب الاستراحة فلم يفتح لها أحد، ثم أخبرها الحارس أن الشرطة جاءت ليلاً وداهمت المكان، قبضت على الرجال والفتيات وصادرت جميع الممنوعات، وقلبت الأوضاع رأساً على عقب ثم سارت بهدوء مع أول خيوط الفجر. تقول بأنها بكت حين سمعت ما يقوله الحارس، وحاولت الاتصال بالرجل ولكن هاتفه كان مغلقاً. وهكذا، رجعت المجرمة خالية اليدين، وما زالت نادمة إلى يومها هذا!

توقف خالد عن الكلام، وشعرت بنار في صدرك، تكوي قلبك حتى يغدو رماداً. بكى خالد، وسقطت من عينك دمعة تلتها دمعة، وشعرت بجلدك يقشعر وكأنما تغرس فيه أبرّ دقيقة، من شناعة الحكاية. اقتربت من جسد خالد الذي التف حول نفسه مثل حلزون، ودفن رأسه

مجدداً بين ركبتيه. جلست بجواره مباشرة وحأوطت كتفيه بذراعك اليمنى، وانحنيت فوقه، ليلتصق جزء من صدرك بظهره، وتصبح قريباً أكثر من أي وقت مضى. تمنيت أن يواسيه هذا العناق لأنك فقدت قدرتك على الكلام، أو أن يشعره بمعيتك وقربك إليه، في أصعب لحظاته.

سمعتة يهمس، وهو يبكي، وحزنه المترسب ينساب مع كل دمعة:

- قالت لي إنها هناك، في مركز الشرطة، اذهب وأخرجها من السجن!، لم أستطع أن أتحمل يا فيصل، وهجمت عليها لأطبق على عنقها بيدي الاثنتين. كدت أن أقتلها لولا أن زوجها حال بيننا، وأمسك بيدي، ليجرني بعنف نحو الباب. قال لي لا تأتِ إلى هنا مجدداً، هذا البيت باسم زوجتي، ولك أن تشتكي عند من شئت! آه يا فيصل، ليتني أموت، أنا مخنوق، أشعر بحزني يضغط على عنقي. كيف أصبحت في يوم وليلة بلا عائلة ولا بيت؟ كيف!!!

خرجت صرخة من أعماق روحه، صرخة مشحونة بالقهر والجنون، تنزف حزناً ولوعةً وألماً. كان ينتفض وهو يبكي، يلعن نفسه ألف مرة، يردد اسم لى بصوت رخيم، ثم يأن مثل حيوان جريح. كنت تجلس خلفه مباشرة، تطوق جسده النحيل بأقصى قوة، وتهمس بلا صوت، لى معي يا خالد، لى بخير.

تتمني لو أن هذا الصوت يخرج ليغدو مسموعاً، ولكن الأمنية أبعد من نجمة. تدفن أنفك عميقاً بين خصلات شعره، وتبكي بكاءً صامتاً لا يسمعه أحد. الأمر أعظم مما تتوقع يا فيصل، سيمتص من جهدك وطاقتك حتى آخر قطرة، وسيلفظك مثل ثمرة جافة ومهترئة. رغم أنك سمعت الحكاية من لى من قبل، إلا أنها جاءت من خالد موجعة أكثر، وتضاعفت الصدمة بعدما كشف خالد ما كانت تجهله لى. مضت الدقائق ثقيلة ومتباطئة، وخالد لا يزال دافئاً رأسه صريع حزنه، وصوت أنينه يخفت، ويتحول تدريجياً إلى شهيق وزفير. بعد برهة قصيرة، فاجأك بجملة جديدة، وصدمة جديدة، لا تقل عن سابقتها ألماً:

- لقد ذهبت إلى الشرطة في اليوم نفسه.

فرت من عينه دمعة أخرى، وواصل:

- سألتهم عن لى، قالوا لا توجد فتاة بهذا الاسم، لقد اختفت أختي!

سقط يبكي مجدداً، وهذه المرة، بلغ جنونه حداً لم يبلغه من قبل. بدأ يضرب جبينه بقسوة، ويشد شعره بعنف، ثم يدعو، بحرقة، على نفسه بالموت. في تلك اللحظة تمنيت أن يعود الزمن إلى الوراء، تمنيت أن تعود إلى سيرك الذي لا تدري متى تبلغ نهايته، أن تظل تسير حتى تموت، ولا ترى خالداً بهذه الحالة، أبداً. أمسكت يديه التي كان يضرب بهما نفسه، كبلته بإحكام فصار يرفس في مكانه مثل ذبيحة، ثم استسلم وخارت قواه.

استلقى على السرير، وضع جانب رأسه فوق فخذيك، ثم انقلب على وجهه، وصار يدفن جبينه عميقاً، يدفنه في فخذك ويبكي، ويحس بيدك تمسح على رأسه بحنو، وبفمك قريباً من أذنه، يواسيه ويسمي عليه. استغرق دقائق طويلة وهو يبكي وينشج، حتى أحسست بأنفاسه تهدأ وبجسده يتخدر ويثقل فوق فخذيك. رفع رأسه فجأة، زال الجنون وبقي الحزن، وسكنت الأعضاء وارتخت، إلا من رجفة يسيرة تسكن أطرافها. جلس متربعاً موجهاً جسده إليك، فيما كنت مستنداً على ظهر السرير، تمدد ساقيك على طول الفراش. بقلة حيلة همس، بنبرة كساها الضعف، وغلفها الانكسار:

- فكرت أن أقدم بلاغاً على اختفائها، ولكني لا أملك حتى صورة لها. ماذا أفعل يا فيصل؟

سألك بعينين غارقتين، فأمسكته من معصمه الأيمن وهمست له والدموع تملأ عينيك:

- لماذا هربت من المنزل؟ كيف تركت أختك بمفردها هناك؟ هذه حماقة يا خالد، حماقة لا يرتكبها إلا الجبناء.

كنت تعرف أن كلاماً مثل هذا سيزيده ألماً في لحظة ما كان ينقصه فيها أن يلومه أحد، ولكنها رغبة حارقة في صدرك أجبرتك على الكلام. قبل أن تراه يسقط مجدداً، أمسكت وجهه المبلل ببديك، وهمست:

- دعني أخبرك شيئاً، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تدخل فتاة السجن وهي في هذا العمر. في هذه الحالة، تودع في دار الرعاية، وتبقى هناك حتى يأتي ولي أمرها لاستلامها.

- حقاً!!

- أجل يا خالد.

- هل سأجدها يوماً؟

تساءل بحزن، فاجتذبتته حتى زرعت رأسه في صدرك. همست له:

- إن شاء الله.

- تراودني رغبة بالانتحار يا فيصل. أعتقد أنه لن يبكي ورائي أحد.

- بلى، أنا ولمى.

نزلت دموعه أكثر:

- إذا كانت على قيد الحياة.

- خالد، كفى أرجوك. أنا معك، سأظل معك دائماً. لمى هناك في دار الرعاية تنام وتأكل مثل كثير من الفتيات، أنا متأكد من هذا، وأنا هنا معك، سأساعدك في أخذها من هناك، وستراها عما قريب، إن شاء الله.

نظر إليك ملياً، ثم سقط يبكي مجدداً، وراحت أكتافه ترتعش، لتواكب شهقاته المتواصلة.

- هذا صوت قلبك يا فيصل. أنت تكذب لتطمئنني، وعقلي وعقلك يعرفان تماماً أن الأمر لا يمكنه أن يتم بهذه السهولة، أبداً.

تهددت، ورفعت رأسك عالياً إلى السقف، تسأل الله، بعينين دامعتين، أن يعينك على مواصلة هذا القلب المكسور. ما الذي حدث لكلماتك المواسية التي كتبتها منذ أشهر استعداداً لهذه اللحظة؟ إنها لا تخرج، وصوتك الحنون يخونك. بحزن وضعت يدك على ظهره، وهمست:

- اسمعني لحظة، أعرف أن المشكلة في رأسك صعبة ومعقدة، أعرف أنك تعتقد أنك ارتكبت ذنباً لن يغتفر، وأعرف أن حزنك العظيم لن يطويه شيء. ولكنني سأخبرك شيئاً، وأتمنى أن يصنع كلامي هذا فارقاً ولو بسيطاً. لمى لم تختفِ يا خالد، لا يمكن أن تكون الأرض قد ابتلعتهما كما تصور مخيلتك. إنها في دار الرعاية، محفوظة مع كثير من الفتيات في مثل سنهما، تنام وتأكل وتشرب معهن، وتعيش كما لو كانت بين أسرة وصديقات. هناك، يا خالد، تعيش الفتاة تحت رعاية نفسية واجتماعية متكاملة يقدمها أخصائيات مسؤولات عن الفتيات، ومشرفات نفسيات واجتماعيات مستعدات لأي حالة مستعصية. لا تقلق، إنها بأمان إن شاء الله.

- لكنها لن تعود كما كانت، أبداً.

بكيت أكثر، عانقته مجدداً، وقررت أن تبقى معه طوال الليل. مسكين هذا الولد، لا شك أن صوته الداخلي سيحرقه اليوم، وسيمنع عنه النوم، ليظل طوال ليله صريع مأساته. قررت، أن تكون اليوم صوته الداخلي، أن تجلس بجواره لتهمس في أذنه أنا معك، وأن تهدئ من مخاوفه بكلمات مواسية حنونة، يسمعها حتى يغفو، ويمتلئ بها دماغه بدلاً من أن تسيطر عليه الأفكار السوداء. تركته يستلقي على جنبه، وتركت يدك تعبت في شعره، حتى ينتصف الليل.

حين تجاوزت الساعة الثانية ليلاً، غفا خالد متعباً، وهدأت أنفاسه بعد بكاء طويل، ليستسلم لنوم عميق. كنت بجانبه طوال الليل، تستند على مرفقك قريباً من رأسه، ويدك الأخرى تتوغل بين خصلات شعره الجافة بنعومة وهدوء. تسمعه وهو يهذي، وهو يبكي، وتتخيل كم يلوم نفسه، وتموت في الثانية ألف مرة، حزناً عليه. مكثت طوال الليل تفكر في مأساته، ساعات مديدة والحزن يعصر قلبك والههم مقيم عليه، والكآبة تغمر صدرك على نحو لا تطيقه الروح.

كنت تعرف أنه يعرف أن كلامك هو محض مواساة غرضها التخدير، ويحزنك أنه ما من حيلة تؤكد له بها أن الحل بين يديك. تعيد أحداث اليوم في مخيلتك وتتساءل، هل حقاً ذهب خالد بنفسه، واكتشف اختفاء لى قبل أن يحين موعد عودته؟ كيف انحلت الأمور بشكل فجائي بلا تدخل ولا تخطيط؟ تشعر أن الأمر جاء أسرع من أوانه، رغم أنك قضيت عمراً في انتظاره. نظرت إلى خالد المستلقي على جنبه قريباً منك، وعلى خده تنام دمعة، مستقرة وجافة. تأملت وجهه النائم الحزين، يده التي يدفنها تحت خده، وجسده المتكور على نفسه. مسكين، لقد نام مثل صريع، نام وهو يلعن نفسه، وحده الله يعلم كم يعاني في مصيبته وحزنه المديد.

ترى بمَ يحلم؟ تتساءل وأنت تنظر إليه، وعقلك يسرح في مكان بعيد. ربما لا يحلم من الأساس، إنه يفكر، تمر في عقله أحداث الأمس ويراها صوراً أوضح من الطبيعة، كما لو كان في الحد الفاصل بين اليقظة والنوم. ترى أي نوع من السيناريوات تلك التي تدور في عقله؟ تتخيله يتصور أن مصيبته بحجم هذا الكون، عصية ومستحيلة. ربما يبكي داخلياً، يتخيل أنه فقد أخته للأبد، وأن حلم العودة الذي كان يخفف عنه مرارة العيش هنا قد انسحق وتطاير كذرات الرمال.

لقد كان يحلم، يحلم أن يعود في نهاية المطاف إلى بيته ويجد أخته هناك، أن يعيد معها ذكريات الطفولة ويخلقان حكايات أجمل، وأن ينام في آخر الليل مستدفئاً بقربها. كان حلماً، كان شمساً لا يرى خالد إلا طرفها الدافئ المضيء، والآن، منذ اختفى ذلك الطرف، استوعب خالد، أنه سيعيش في ظلمته الحالكة، إلى الأبد.

تفكر في كونه يمينياً، هذه، بحد ذاتها، معاناة. أن يكون خالد يمينياً يعني أنه غريب في مجتمعه بأكمله، وهذا يُراكم فوق همومه همماً آخر. لا بد أن ضياع لى في بلد آخر يزيد من فداحة المصيبة، ومع وحدته هنا، لا بد أنه يتصور نفسه الآن قطرة في محيط لا تنتمي إليه، تائهة ووحيدة وسط الظلام، والتيار كله يسبح ضدها. كيف لهذه الأحزان كلها أن تتراكم في قلب هذا الصغير؟

تشعر بالشفقة تعصر قلبك، بالههم يققات عليه، وبظلام الليل ووحشته يغمران جوفك. هذا الولد جزء منك، قطعة من قلبك، وحزنه الذي يمتص حيويته وطاقته ينفذ إليك ويتوغل

في صدرك حتى لو لم يبيح به أو يتكلم، كيف لو باح؟

الحزن اليوم جاء مختلفاً تماماً عما كان، إنه يبدو كما لو أن كل الأشياء انطفأت وفقدت روحها وبريقها، وكأن الحياة صارت رمادية وعدمية وفقدت أوكسجينها فصارت عسوية على العيش. من ينقذ خالد من حزنه العميق؟ من هذا الذي يملك القدرة على إنعاش روحه بالأمل؟ تتصور أن الأمر جاء أصعب مما كنت تتخيله، وتشعر أنك ضعيف أمام عظمة الموقف وفداحة المصيبة.

يبدو صعباً جداً أن تساعد ولداً مر بما مر به خالد وواجه الفجيرة حين انفجرت في وجهه بلا إنذار، ولكن الأمر يختلف، حين تكون أخته معك. تتساءل أي منحة وهبها الله إياك حين صيرك قادراً على معالجة أحزان هذا الولد وتطبيب جروحه منذ التقيته حتى اليوم؟ أن يُمنح خالد فرصة أخرى بعد غلظته الفادحة واختفائه الذي دام شهوراً، وأن تعاد إليه أخته -سليمة جسدياً ونفسياً- هو أكثر الاحتمالات بعداً واستحالة، إنها معجزة، ليست بمنظور خالد وحسب، بل بمنظور كل من يستمع إلى هذه الحكاية بتفاصيلها الموجهة.

ولكنك الآن تملك هذه المعجزة بين يديك، أنت الآن، بمنحة من الله، الوحيد المخول لحل هذه المشكلة، وإعادة الأشياء كما كانت، قبل أن يجرفها التيار. ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة، وتخيلت كم من الامتنان سيكون لك إن أعدت أخته إليه، وكم سيرسل الدعوات مغلفة باسمك، وسيشكرك شكراً عميقاً. أسدلت الغطاء على جسده قبل أن تخرج، ثم أرحت جسدك على مقعد السيارة، وابتدأت رحلة التفكير التي لن تنتهي أبداً.

قادت السيارة بصمت وسكون، وما إن وصلت، و دلفت إلى غرفتك، ورأيت وجهك في المرآة، انفجرت باكياً، لقد شعرت بأنك وحيد كما لم تشعر من قبل، تحتاج كتفاً تستند عليها وأذناً منصتة تبوح لها، وقلباً يشاركك الهموم. جلست على طرف السرير واضعاً رأسك بين يديك، ثم وقعت عينك على زاوية الغرفة، وراودتك رغبة حارقة، في لجوء من نوع آخر.

جلست في الزاوية متربهاً ومسحت وجهك بكفيك، ثم رفعتهما عالياً، وسمعت صوتك الرخيم، يتحدث إلى السماء.

يا رب، لا أعرف كيف تصاغ الدعوات، ولكني سأتحدث إليك كأنك صديقي المقرب، وكأنك صديقي الوحيد. لقد أسرفت بكذبي، تجاوزت حدود المعقول وزيفت حياتي، وتصنعت حتى فقدت حقيقتي وسجيتي. يا رب، أعرف أنني بلغت، هذه المرة، حداً لم أبلغه من قبل، ولكنك وحدك تعلم ما في نيتي. إنني أستخدم قدراتي من أجل طفلة، ولأول مرة، سخرت موهبتي من أجل، من أجل شيء يرضيك. يا رب، سأكذب الآن للمرة الأخيرة، وأعدك أن تكون هذه هي النقطة التي أتوقف عندها إلى الأبد. ستجيب كذبتني الأخيرة هائلة وعظيمة بما يتلاءم مع النهايات، ولهذا أسألك من كل قلبي.. أن تساعدني في كذبتني. هذه أمنية

جريئة وجسورة، ولكنك أعلم بما خلف الأمنيات. يا رب، اسألك أن تساعدني في هذه الكذبة، أنت صديقي الأوحـد منذ هذه اللحظة، لا تتركني وحيداً..

حينها، لم يعد الصوت الرخيم هامساً ورخيماً، لقد صار مسموعاً.

(3)

الخميس، 5 شعبان 1437 هـ

- خالد، هل لك أن تشرح لي كل شيء، من البداية إلى النهاية؟

أغمض عينيه، وهمس:

- ماذا تريد أن تعرف؟

- لماذا هربت من المنزل؟ كيف يصدر منك هذا التصرف؟

- أنا ضعيف يا فيصل، داخلي هش، لست قوياً بما يكفي لأتحمل كل هذه الضغوط. كانت الأيام التي سبقت يوم رحيلي صعبة وكئيبة، كانت لدي همومي الداخلية الخاصة، لم يكن المكان الذي يحيط بي صالحاً للعيش ولم يكن داخلي أيضاً مهياً لذلك. كل الأوطان كانت جحيماً، لا البيئة المحيطة بي ولا تلك التي في داخلي، لذا قررت أن أهرب، لعلني أنسى بعض آلامي حين أهاجر بعيداً عن زوجة أبي ومشاكل البيت. قررت أن أبحث عن وظيفة وأعود بعد سنة، أكون قد جمعت بعض المال، ليتسنى لي أن أوفر حياة كريمة، لي وللمى .

قلت مقاطعاً:

- لحظة يا خالد، ماذا عن الورث؟ ألم ترث من أبيك شيئاً؟

اغرورقت عيناه، ثم فاضت دمعاً:

- بلى، ولكنني كنت سأجمعه، لأعطيه في النهاية لزوجة أبي.

- لماذا؟

- حقها من البيت. ألم ترث هي جزءاً من البيت مثلنا؟ إنها تشاركنا في كل شيء، وإما أن أجمع ما ورثته لأعطيها نصيبها كاملاً، أو، أو أن اضطر لبيع البيت!

مسح دموعه، وأكمل:

- لا نريد أن نبيع بيتنا يا فيصل، ولا نريدها أن تسكن معنا، وجودها يخنق سعادتنا ويسلب طعم الحياة. ولأنني لا أريد أن نعيش بعد هذا السداد بفقر وإفلاس، قررت أن أرحل، سنة واحدة فقط، سنة واحدة يا فيصل ويعود كل شيء جميلاً كما كان، التلفاز والسهر وأفلام الكرتون، والحرية الأبدية، والسعادة التي لا ينغصها شيء. سيكون لدينا إنترنت! سنعيش حياة الرفاهية، وسنحرب كل ما حرمننا منه عوضاً عن هذه السنة الحافلة بالحزن والاشتياق والدموع. كنت أصبر نفسي يا فيصل! كنت أواسيها وأقهرها في الوقت نفسه، وأرغمها، بهذه الكلمات، على تحمل الألم والصعوبات.

هزئت رأسك بأسف:

- ما كان عليك أن تفعل هذا.

تدافع كلمات اللوم إلى حنجرتك تباعاً، وتحاول كبجها بصعوبة، رغم أنها مكثت في داخلك أمداً طويلاً. لم يحن الوقت لأن تلوم خالد على فعلته ولن يحين أبداً، وبكاؤه الذي يقطع نياط قلبك، في هذه اللحظة بالذات، لن يدعك تجرؤ على فعلها مهما حصل. جمل كثيرة كانت تنتظر وقتها لتخرج، وعتاب بحجم السماء كان مخبأً في داخلك، ينتظر فرصته المثلى، لينطلق ويؤثر. ولكنك اكتفيت بجملتك القصيرة المتتورة وأتبعتها بتنهيدة صغيرة، علها تشعره بعظم خطئه، فأشاح بعينيه بعيداً، وغرق في البكاء.

مرة أخرى، شعرت بالدموع تلسع عينيك. الفاجعة التي ألمت بخالد، وجهه المسود المكلوم، عجزك عن مواساته، والكلمات التي لا تخرج كانت عذابات، بالكاد تستطيع الصمود معها قبل أن يجرفك تيار البكاء. سمعته يهمس، حين هدأ قليلاً، بعد نوبة من البكاء:

- كان الأمر يفوق تحملي، يفوق صبري وصلابتي، كان أقوى من أن يحتمل أو يطاق. كبرنا نحن يا فيصل بظهور منحنية اعوجت من شظف العيش، وحين مات أبي، كُسرت ظهورنا إلى الأبد. لا أنسى كيف مررت قبل رحيلي بمشاعر غريبة جداً، مزيج من الجنون والاكنتاب العميق. كنت أسمع صوتاً بداخلي يحفزني على الرحيل، يقول لي ستفعلها، أنت قادر وشجاع وصلب، وهي سنة واحدة، ستمضي بسرعة البرق، ويعود كل شيء كما كان. كان

يصور لي أن الحياة خارج ذلك المنزل ستكون أفضل ولو كانت في منتهى الصعوبة والقسوة، وكان يهون عليّ أمر الرحيل. لقد همس في داخلي بالكلمات نفسها حين دخلت هذا البيت لأول مرة، وحين كنت أعاني يومياً في خروجي وعودتي من أجل الطعام، وحين أحسست بالوحدة القاتلة أكثر من أي وقت مضى، كان معي أيضاً. كان هذا الصوت، يدفعني أحياناً، بلا شعور، لأن أجبر نفسي على أمور صعبة لا تطاق، وأهمس لنفسي دائماً، لا بأس، لست أنت الذي تستسلم أمام عقبة أو مشكلة، أنت رجل، أنت أقوى بكثير. لا أدري ما سبب هذه الشعور الغريب، ربما لأنني فشلت في مواجهة مشاكل العائلة فصرت أحاول بلا شعور أن أجبر نفسي على حياة صعبة لأثبت لذاتي أنني، على الأقل، تحملت الوحدة وحياة الفقر والشقاء، أنني، من جانب آخر، تحملت ما لا يتحمله الرجال. كان جنوناً يا فيصل، كان شعوراً قاتلاً. بعث هاتفي الجوال حتى لا أفكر بالاتصال بلمى فيجبرني الحنين على الرجوع، وحرمت نفسي من أشياء كثيرة، لأوفر بعض المال. رأيت كيف حملني حزني إلى درجة قصوى من الجنون؟ لقد تغير تفكيري كلياً، أمسى محملاً بالشامة والوسوسة والجنون، وأنا الآن لا أشبهني أبداً.

أرعى عينيه إلى الأرض، وسكت ليتركك تتأمل إلى حجم المأساة، فداحة المصيبة، وإلى أي مدى قد يبلغ الحزن. شعرت به وهو يقترب منك ليدس رأسه بين ذراعك وفخذك، ويستلقي على جنبه بهدوء، مخبئاً كفيه بين فخذه. رفعت رأسك إلى السقف تقاوم دموعه، تكتم شهقة، وتدعو الله أن ينزل الطمانينة على قلب خالد قبل أن يلوكه الحزن .

كنت في حالتك تلك أحوج ما يكون إلى مساندة الله ومؤازرته ورعايته، أن يُنزل شيئاً من سكينته على قلب خالد ويترك الباقي عليك، وحده الذي باستطاعته أن يملأ وحشة قلبه بالأمل. سحبت نفساً عميقاً ثم همست:

- لا بأس عليك، لا بأس. أنا أتفهم ما مررت به، أتفهم سبب تغيرك ولكني لا أتفهم ولا أقدر سبب سكوتك الغريب. سألتك عن عائلتك وطلبت مني أن لا أسأل، ثم سألتك مجدداً وكذبت. لماذا؟ ألم أكن موجوداً معك دائماً؟ ألم أكن قريباً منك؟ ألم تكن تعرفني، أساعد الناس وأسمع شكواهم وأقف إلى جانبهم؟ لماذا لم تصارحني إذاً؟

- لأنها جريمة يا فيصل. هل سمعت أحداً يخبر بجريمته؟ كنت أعرف أنها جريمة، ولم يكن ينقصني أن أسمع لوماً من أحد. لا أريد أن يتهمني أحد بالجنون، بالتهور، بالحماقة والأناية وهو لم يعيش ما عشته ولم يجرب أن يكون في مكاني. لو كنت سأخبر أحداً لأخبرت أحداً من أقاربي لأنني لا أثق بصديق ولا معلم، أخاف أن أفتح جروحي أمام أحدهم ثم يخذلني، أخاف أن الام، وأخاف أن يساعدني أحد ثم يستغلني بصفتي مديناً له . أخاف من أشياء كثيرة، للأسف، أنا لا أثق بأحد يا فيصل، فطرت على هذه الصفة، ولا أستطيع تغييرها.

مجدداً، عاد يبكي، وفي تلك اللحظة، كنت قد بلغت حافة الهاوية، الحد الفاصل بين الثبات والانكسار، ولم تستطع مع جنون القهر وغصة البكاء أن تصمد أكثر. جذبتة مع رأسه وهو يبكي، وانصاع جسده الخائر ليديك بلا مقاومة. بقسوة، صرت تهزه من كتفيه، توبخه، تشير إلى صدغه بأصابعك بعنف، وتتكلم كأنما فاق جنونك كل شيء.

- ما يدور في رأسك هو سبب مصيبتك كلها، هو دمارك النفسي والجسدي والعقلي، هو.... آه يا خالد! أنت تقهرني كثيراً! كيف أتعامل أنا مع هذا العقل المريض الذي لا يفكر إلا بسوداوية؟ كيف بوسعي أن أساعد شخصاً يكره نفسه، يعاقب نفسه بنفسه، ويهاجمها كأنها العدو؟ اسمعني، إما أن تتوقف عن بكائك هذا ونفكر معاً كرجلين عاقلين وإلا فسأخرج من غرفتك هذه ولن أعود أبداً. أقسم أنني سأفعلها ولن ترى وجهي مرة أخرى، وستعرف حينها ما هو طعم الحزن!

حينها انتكست حالته أكثر، وعاد مثل ما كان ليلة أمس، يرفس مثل صريع ويئن كحيوان جريح. عانقته بشدة، عانقته حتى انتقل حزنه كله إلى صدرك، وبقيت ليلك كله تقاوم السقوط والبكاء وتكافح على الصمود .

بلا شعور، تأخذ دوراً جديداً لم تأخذه من قبل، ويستلقي خالد تحت يدك، على وسادته التي تشبه جسده، ضعيفة ومهترئة. تسترجع تلك الآيات التي تقرأها أمك على جسدك حين تزورها كل مرة وتتلوها بهدوء، على صدر خالد. يغيب صوته مع مضي الوقت ويهدأ، وتمكث بجواره، إلى منتصف الليل.

لم ينم خالد كما توقعت.

قبل الواحدة بقليل، نهض متثاقلاً، يرفع جسده بصعوبة كأن هناك صخرة تستقر فوق ظهره، ويجلس ببطء، مغموراً بسكينة الليل، وهدوء اللحظة، وعمّة الحزن.

جلس بسكون، كنت تنظر إليه، يدفن يديه في حضنه، ويتنهد، ثم يهمس بصوته الرخيم:

-أندري، ربما علينا من الآن أن نتصرف كرجلين.

سألته بعينيك، إن كان يفكر في شيء. فقال:

- سأقدم شكوى على زوجة أبي، وعلى زوجها أيضاً. لدي حدس عظيم بأنها تكذب، لم يعطها أبي بيته كما تدعي، أنا متأكد من هذا تماماً، ولكنني، لا أستطيع إثبات حدسي بدليل ملموس. هذه المرة، لن أكون ضعيفاً يا فيصل. لولا ضعفي لما تجرأت علي أكل حقي، لما تجرأت على استغلال أختي، ولما تجرأت على الاعتراف بهذا بسهولة وكان شيئاً لم يحصل. سأشتكي عليهم جميعاً يا فيصل، ثم سأبلغ عن اختفاء لمي، وأنت، ستأتي معي، لأنك الوحيد الذي أثق به.

يلتفت إليك، وهو يقول جملته الأخيرة، بلهجة المتوسلين. أطرقت عينيك إلى الأرض تفكر فيما يقوله، وفيما يجدر عليك فعله، بعد هذه اللحظة.

قضية، شكوى، شرطة ومحاكم، هذا أكثر ما كنت تخافه، أن يقحمك خالد في مخاطر لا يحمد عقباها، وأن تصبح مسألة الرفض مع رجاؤه المخنوق، وشفقتك العظيمة عليه، صعبة جداً. سكتت، وفي لحظة، لمح خالد في عينيك رفضاً وضيقة طفيفاً، فامتلات عيناه دمعاً، واقترب برأسه قليلاً، ليهمس:

- فيصل، أنا أحتاجك، أحتاج رجلاً معي. بإمكانني أن أستعين بعلي، ولكنني أحتاج رجلاً مثلك، رجلاً يعرف هذه البلد أكثر مني ومن علي، رجلاً يمكن أن يكثرثوا لوجوده، لأنني، أنا وعلي، لا أحد سيمنحنا تلك الأهمية.

- ماذا تقصد؟

سألته وأنت تنظر في عينيه بإحساس غريب، ثم سكتت الأجواء فجأة، واعترف خالد، اعترف، لأول مرة، بحاجته إلى صديق سعودي، ليكون عضيده، ليحميه ويسانده، ويسير أموره على النحو المطلوب، لأنه عاجز ومغترب ووحيد. اعترف أخيراً بكونه يمينياً، ثم أخذ يبكي، تحت وطأة الخجل وتأنيب الضمير، وتحت قسوة الواقع، وكل ما يمكنه أن يضغط عليه. تأسف بنبرة كسيرة، ورغم أنه لم يبزر كما بررت لمي، إلا أنك سامحته وتجاوزت الأمر، ووجدت نفسك تبرر له بتلقائية، وقلبك يغفر بسهولة، كأنه عالج نفسه بنفسه، وتقبل الحقيقة وعاشها قبل أن يُصدم بها.

انتهى العناق وانتهت الاعترافات، وتساءلت، ما الذي بقي دفيناً في صدر خالد المتختم بالخبايا والأسرار ولم يعترف به حتى الآن؟ تنأى بجسدك قليلاً عنه، وتتركه يستجمع أنفاسه ويستعيد ثباته، ويمسح بقايا البكاء. التفت بعد دقيقة، ليهمس بندم:

- ألسنت غاضباً يا فيصل؟

ابتسمت:

- لست غاضباً، أنا فقط ساخر على لهفتي لكتابة المقال الصحفي، ليس إلا.

ابتسم ابتسامة تشبه الضحكة، ثم عاد إلى اكتتابه سريعاً، وهمس:

- أتدري ما الموجه حقاً؟ أنك كنت تعتقد أن بوسعك تخفيف هذا الحزن القابع فوق صدري ثم اكتشفت مصيبة جديدة لم تحسب لها حساباً. لم أكن أنشاءم من فراغ، نظرتي السوداوية وانعدام أمني في الحياة لهما سبب، لا يمكن لأحد أن يعيش هذا الواقع بتفاؤل وسعادة. لا بد أنك تساءلت يوماً عن سبب تقصيري المادي على نفسي، عن سبب اختياري لهذا البيت، وعن سبب رفضي لكل أشكال الرفاهية في الحياة. أنا أحتاج إلى المال أكثر مما تتصور، أحتاج إلى دفع رسوم تجديد الإقامة ورسوم الدراسة في الجامعة، بالإضافة إلى كل تكاليف الحياة الأخرى. أحتاج إلى كفيل، ربما سأتقاسم معه رأيتي كل شهر، وأحتاج إلى أشخاص يساعدونني، وهذا بالتأكيد، لن يتم بلا مال. لا شيء مثل المال يمكنه أن يكون خادمك المُعين. لا أحد في هذا العالم مستعد لتقديم مساعدة بلا مال، إلا، إلا أنت.

تغشى الدموع عينيك في اللحظة التي همس بها بجملته الأخيرة، ثم تحوّل عينيك إلى الأرض، ويسود الحزن الأجواء، فتغيم الغرفة أكثر، ويخفت ضوؤها الوحيد.

بعد دقيقة، سأل خالد، بخيبة أمل:

- ألن تذهب معي؟

تنهدت:

- اسمعني خالد، ما رأيك أن تتنازل عن البيت، مؤقتاً فقط، مقابل أن يكون مالك كله لك؟

ابتسم بسخرية:

- وأين أسكن؟

- حالياً، في شقة مستأجرة. بعد سنوات، حين تكبر وتغدو أقوى وأصلب، سيكون باستطاعتك أن تقف في المحكمة أمام كل تلك الوجوه، وتنتزع حقلك المسلوب.

نظر إليك بعينين تطفح منهما الدهشة، فعرفت ما يدور في خاطره من تساؤلات.

- لemy، في دار الرعاية.

- وهل تظن أنني سأسكت على ما فعلته بها؟

كان سؤالاً مغموراً بالدموع. سكتت قليلاً، نظرت في عينيه طويلاً ثم همست:

- وإن كانت بخير؟

- كيف؟

لم تجبه، طفرت من عينك دمعة، وتساءلت، ماذا لو أجبرتك الظروف على الاعتراف؟ تظل طمأنينة الله هي الأمنية الوحيدة التي ترجوها الآن، أن تنزل على قلبه المعتم فتنيير وحشته، وتكون له قريناً وأنيساً. سمعته يسأل، بخيبة أمل:

- ألن تذهب معي؟

- خالد اسمعني. هل تصبر قليلاً من أجلي؟ أعني، لو تمنحني بعض الوقت، فسأفكر فيما يمكننا فعله وأبحث عن الطرق الأسلم، وسأستشير بعض الأشخاص المقربين. إن كنت تثق بي، إن كنت تثق بخبرتي في حل المشكلات وبنظرتي للأمور فسأقول لك أن هناك أملاً، وأرجوك، امنحني فرصة للتفكير.

- أنا أثق بك.

سكتت قليلاً ثم همست:

- إن لم نستطع إيجادها بلا بلاغ، فسأذهب معك إلى الشرطة.

ربتت على كتفه سريعاً، قبل أن تلملم أشياءك وتستأذنه في الخروج.

(4)

تبدو ضائعاً ومتشتتاً أكثر من أي لحظة مضت، حتى السيجارة لم يعد بوسعها أن تساعدك على التفكير.

أغلقت باب غرفتك واستلقيت، وما إن دفنت رأسك في الوسادة، تذكرت تفاصيل الرحلة الشاقة، الرحلة المتخمة بالعقبات والزخرفة بالعبر، من أولها إلى آخرها. تطفر من عينك دمعة، واليوم فقط، تتمنى أن تعود إلى بداية الرحلة، إلى حيث كانت روحك مشحونة بالتفاؤل والإصرار، قبل أن يغادرها الأمل وتذبل. كم كانت الرحلة جميلة قبل هذا، كم كانت الحياة أجمل، قبل أن يبكي خالد، وتظلم الدنيا في عينيك.

هل يمكن أن تُصلح الأمور كذبة؟ تشعر أن تربة دماغك قد تقحلت وفقدت قدرتها على الإنتاج، وأن كل الخواطر التي كانت تعبر منه وإليه قد استحالت كرة من الخيوط المتفرقة، لا يقود أحدها إلى فكرة أو نتيجة.

ترى متى سينتهي الأمر؟ ابتسمت ابتسامة صغيرة، وتخيلت لو تطول الرحلة أكثر، لتتذوق أشياءً جديدة وتفتح عينيك على مزيد من العجائب. سيأتي رمضان عما قريب، ربما ستصوم هذه السنة بمعية لى، وستعدان الإفطار معاً على طاولة المطبخ. ربما ستصلي التراويح مع خالد في مسجد الحارة وسيزدحم المسجد أكثر من ذي قبل، وستكون لك العادة اليومية ذاتها، المكوث على سريره ومواساته حتى يحين وقت الرحيل.

تبتسم مجدداً وتتنهد، ربما هذا ما كان سيحدث فعلاً لو لم يكتشف خالد اختفاء اخته، ولكن الحقيقة تقول، إن الأمور بعد هذه الصدمة، لن تعود كما كانت أبداً.

أدركت اليوم، أن طريق الكذب لا نهاية له، أنك كمن يبني الجدران الشاهقة ليتسلقها ويبلغ الحلم، ثم يكتشف في النهاية، أنه يبني على نفسه. يا لها من سخرية.

ولكن الله لا يخيب أمل الداعين، أين أنت عن هذه الحقيقة؟ لوهلة، تذكرت دعاءك الهامس في تلك الليلة، وبمجرد ما تراءت لك تلك الهيئة الخاشعة لك، تلك النبوة الراجية المبتهلة وذلك الخضوع الذي كنت عليه، نهضت من سريرك فجأة، ورحت تفتش في أدراج التسريحة، عن مفكرة أو ورقة. ستسطر تفاصيل كذبتك الجديدة على الورق، مثلما كنت تفعل في كل مرة. هرعت تفتش عن المفكرة القديمة بين الأدراج بأصابع مجنونة ويدين مرتعشتين، تتذكر أنها كانت تحوي بعض الملاحظات، ولكنها للأسف، مُزقت في لحظة غضب. نظرت إلى علبة المناديل على الجهة الأخرى من الطاولة، سنكون المفكرة الثانية هي علبة المناديل، ولكنها صغيرة وملأى بالرسوم.

كيف يمكن لعلبة مناديل أن تحتضن كذبة كبرى متشعبة التفاصيل؟ فتشت في الأدراج برعشة تسري في جسدك كله، كنت تفتش كأنما تنبش بين طيات دماغك عن فكرة أو حل، وحين غلفك اليأس لوهلة، وشعرت تدريجياً باستحالة الأمر، رجعت إلى السرير بخفي حنين، وفي منتصف الطريق، في منتصف الغرفة وقفت خائفاً مفجوعاً، وتساءلت، على مشارف الجنون والتهيه، كيف، كيف ستعود لى إلى أخيها؟

الجمعة، 6 شعبان 1437هـ

اليوم، بعد كل هذا التوهان، قررت اللجوء إلى فهد، عل باستطاعته أن يقول شيئاً، أو أن يصغي إليك، ويبدي بعض الاهتمام. خرجت إلى بيته في الثانية والنصف ظهراً، كان قد غادر ملحق جده إلى بيت أهله، وهو الآن يقيم معهم بصورة اعتيادية، وكأن شيئاً لم يكن.

ترى هل عادت المياه إلى مجاريها أم إنه لا يزال فاجراً في عين والده، مُغرراً في عين والدته، وطائشاً في عينيها معاً؟ حين وصلت، تفاجأت بهيأته التي تبذلت، وبلحيته التي طالت قليلاً، وبوجهه الذي شع نوراً داخلياً يُدهش الناظرين. ابتسمت في وجهه ابتسامة حزينة يملؤها الاشتياق، واقتربت تصافحه بحرارة، تشم في كتفه رائحة المسك والعود، وتفتح عينيك على إحدى عجائب الدنيا.

سبحان الذي يغير ولا يتغير! لم يزل متفاجئاً بحضورك حتى دخلت معه إلى المجلس، كان متعجباً من كونك لم تتغير بعد، ويستنكر تمسكك بهذه الصداقة رغم ارتخائها وضعفها.

لم تلبث وقتاً طويلاً حتى أخبرته أنك في ورطة، ثم حدثته عن كل ما جرى، منذ أن جاءت لحظة الضعف، واعترف خالد بما يكنه في صدره، وحتى سقطت، في هذه اللحظة، يائساً وعاجزاً وحزيناً. كانت شماتة فهد ساخرة ولاذعة وموجعة، ورغم هذا مررتها بصعوبة مثلما ثمر منه كل الإهانات الجارحة على أمل أن لا تخسر أذنًا تسمعك. سمعته يقول بشماتة:

- ألم أخبرك أن الأمر أصعب مما تتوقع، وأن صبرك سينفد في النهاية، طال الزمان أو قصر؟

- بلى، وأخبرتني أنني سأبلغ طريقاً مسدوداً وأقسمت لك أنني سأجد حلاً في النهاية مهما كانت الظروف. حسناً، الآن اكتشفت بأنني كنت مخطئاً، لقد ضاعت كل الأفكار من ذاكرتي فجأة، وهناك أفكار لا أدري كيف أصفها، أفكار كنت أظنها واقعية وصائبة ولا أدري كيف أشعر الآن أنها ضرب من ضروب الجنون. فهد، أنا تائه الآن، هل يمكننا أن نفكر معاً في خطة جديدة؟

ابتسم ابتسامة صغيرة، سرعان ما تحولت إلى ضحكة، ثم أشاح بوجهه يضحك، ليتلاشى أملك الوحيد. اليوم، تغلق الحياة في وجهك آخر أبوابها، يلوّح لك الأمل من بعيد مُغادراً وشامتاً، وتنطفئ كل الأشياء في عينيك. مجدداً، يقول فهد:

- أنا في قمة سعادتي الآن.

- ألن تساعدني؟

وحين ترى على وجهه علامات الرفض، تواصل متوسلاً:

- ولكنني أحتاجك، هذه المرة فقط، وأعدك أنك لن ترى وجهي مجدداً إن شئت.

- أتعني أن علاقتنا معاً قد تحولت لتخدم مصالحك فقط؟

- فهد، من أجل الأخوين!

تتلاشى ابتسامته، ويصمّت قليلاً ليفكر.

- أنا لا أدري لمَ لم تعترف بالحقيقة حتى الآن.

- أتريدني أن أقول له إن أختك عندي، وإنني سكتت لأنني أريدها عندي، لأنني لا أطمئن عليها إلا عندي، لأنني لا أهدأ إلا بوجودها معي، ولا أستدفي إلا بقربها مني!!

- هذه مشكلتك، لا شأن لي. أتدري؟ لعنك الله ألف مرة، لماذا لم تعترف له حتى الآن! سيحاسبك الله لأنك سكتت، وجعلته يذهب، لتستقبله زوجة أبيه بتلك الفاجعة التي كسرت فؤاده. إنه يظن الآن أن أخته اغتصبت وقتلت، ويموت في اليوم ألف مرة، وأنت، أيها الملعون، لا يرف لك جفن. لعنك الله ألف مرة!

تسحب نفساً عميقاً، وتتماسك على حافة الانهيار:

- أرجوك يا فهد ، لقد طلبت منه أن يمنحني بعض الوقت، ولدينا الآن فرصة للتفكير. أنا، قطعاً، لا يمكنني أن أخبره بأن أخته معي، ولا يمكنني أن أترك الأمر بلا حل، الوقت ليس في صالحني، وقوة خالد تتضاءل مع الأيام، يقتات حزنه العميق من جسده ومن روحه وإيمانه. أتصدق أنني لا أستبعد فكرة انتحاره لو تأخرت أكثر! أخاف أن يفعل شيئاً في نفسه، أخاف أن يقتله الهم، أو يقتل شيئاً فيه. يمكنني أن أفكر لوحدي مثلما كنت أفعل يا فهد ولكن، طاقتي انتهت! لم تعد هناك روح ولا حيوية، أشعر كما لو أنني ركضت مئة عام في صحراء قاحلة وكئيبة.

- إذناً فالحل هو الاعتراف.

يهمس فهد سائماً، فتجيبه مستدركاً:

- ولكن، هناك أشياء قد تساعدنا يا فهد، فمكانتي في قلب خالد لا يستهان بها. إنه يحبني، يعتقد أن بوسعي مساعدة الجميع، يعول علي في كل الأمور ويصدقني دائماً. أستطيع أن أكذب عليه مجدداً!

- حقاً؟ وما هي الكذبة القادمة؟

تبتلع لهجته الساخرة بالأم، وتجلس جلسة مستقيمة، تشبك أصابع يديك، وتقول بتردد:

- هل تظن أنه سيكون واقعياً لو، لو جلست معه، وأخبرته أن بوسعي أن أتواصل مع أحد مشرفي الدار، الذي بوسعه أن يحولني على إحدى إداريات القسم النسائي، لأسألها عن لى، ثم....، ثم أجعله يكلمها ليطمئن قليلاً؟!

- حسناً، ثم ماذا؟

تواصل متردداً ومهموماً:

- ثم أمسح من باله فكرة إمكانية أن يستلمها بنفسه، لأنه صغير وقاصر ولا يعد ولياً. استلمها بنفسى، وأسلمها له!

- أها، تستلمها ثم تسلمها، خير إن شاء الله. هل تتحدث عن بضاعة يا فيصل!

في هذه اللحظة انهرت تماماً، غطيت يديك براحتيك وبكيت.

- آه، لا أدري ماذا أصنع يا فهد، قلبي يتمزق عليه. لا تفارقني صورة عينيه الباكيتين، ولا صوت نشيجه المتعذب الموجوع. إنه مراهق مخلوق ومعجون بالعقد النفسية وبالاكتئاب، لا أملك سوى أن أستنزل رحمة الله عليه، وقلبي يتقطع.

- إذاً ماذا تنتظر يا فيصل؟ لم تحمّل نفسك ما لا طاقة لك به؟!!!

- لا أريده أن يعرف بأنني كذبت عليه، لا أريد أن أخسر ثقته بي ومكانتي في قلبه.

توشك غصة البكاء أن تخطف صوتك، تتذكر الصحفي اللطيف، الرجل العصامي الخلق، والناشط الذي يكتب آلام الناس، يغمس نفسه بينهم ليدرك مشاعرهم، ليواسي أرواحهم، ويحث قلمه ليكتب. تتذكر كل تلك الأدوار التي كافحت في صناعتها وتمثيلها والتي شيدت صورتك العظيمة في عين خالد، وتشعر أنك موشك على خسارة كل شيء.

بجدية، تهمس لفهد، عازماً على الرحيل:

- لن أعترف له بأنني كنت كاذباً مهما حصل. صورتني تلك التي صنعتها في عين عامل فقير هي أجمل ما صنعته في حياتي، وخسارتها تعني خسارة كل المشاعر الجميلة التي منحت حياتي لونا وطعماً. فهد، أتذكر حين كنا ننوي تغيير شخصيته وسلبيته التي يفكر بها؟ تغيرنا ولم يتغير خالد، وتلك الحياة التي عشتها معه لن أنساها ما حييت. على أية حال، شكراً يا فهد، سأجلس اليوم في الشقة ولن أذهب إلى خالد، وسأحاول إيجاد خطة بديلة.

يلعنك فهد مجدداً، يلعنك كثيراً، تتنهد، وتتمنى لو يكون لمظهره الجديد تأثيراً سحرياً يغير من شخصيته وأسلوبه، لكن اللحي، غالباً، لا تغير شيئاً. سلمت عليه ببرود، وغادرت بيته صامتاً.

(5)

اليوم، لا زيارة لخالد، سوف تجلس مع نفسك، سوف تغوص وحيداً.

غادرت بيت فهد إلى المكتبة، ومن المكتبة إلى الشقة، حاملاً مفكرة جديدة صغيرة، وأطناً من الهموم.

ترقبت حلول الليل بفارغ الصبر، لأن الليل هو بيئة الفكرة الأولى، وظلامه هو حضنها الذي تولد فيه دائماً وأبداً. جن الليل سريعاً، ودلفت إلى غرفتك، ثم جلست على السرير، ووضعت مفكرتك مفتوحة على طرفه. مكثت تتأملها بضياح، تحلم بفكرة مُنقذة تنزل من السماء إلى رأسك، وتمضي تقلب صفحات المفكرة بتهيئات حزينة، وبال لا يتوقع شيئاً.

يمضي الليل، ككل ليل، والفكرة تتلوها فكرة، والخاطرة تمحوها خاطرة، والجنون تزيله عقلانية، ويبقى الشتات، سيد اللحظة. تقترب الساعة نحو التاسعة مساءً، ويرن هاتفك، وترى رقم علي ظاهراً على الشاشة. يتكرر سؤال خالد على لسان علي، وتسمعه يقول:

- ألن تأتي يا فيصل؟

حتى علي صار يسأل عن غيابك، وكأنه يستوحشه. تبتسم بسخرية عجيبة، وتسأله بتعجب:

- أنت أيضاً يا علي؟

- خالد يبكي بهستيريا، ونحن لا ندري ما الذي أصابه، ولا ندري كيف نواسيه. أرجوك تعال، نحن في ورطة.

يستنجد الجميع بك، الأطفال والمراهقون والرجال، أنت أبٌ وكتفٌ للجميع. تغلق الهاتف في وجه علي، ترمي المفكرة بعيداً، تقبض على قلبك بكفك، وبغصة الحزن تهمس:

- تباً لهذا القلب الرحيم.

حين وصلت، فتح علي الباب بوجه تكسوه صُفرة الخوف، وأشار إلى الداخل متجمداً، من غير أن يتكلم. تبعته إلى غرفة خالد، وهناك، رأيتَه على سريرِه، شبه مستلق، يدفن رأسه في بطن ضمير وحجره، تعصره يد ضمير الثقيلة، وتربت على ظهره النحيل. كانت يد ضمير الأخرى ممسكة بكوب ماء، يحاول عبثاً سقاية خالد، وهو مَجوع في حضنه، يبكي بحرقة، يشهق في الدقيقة ألف شهقة، ترنحش كتفاه مع شهقاته المتواصلة، ولا تسكن لحظة.

نظرت إلى وجه علي مهموماً ثم حولت عينيك إلى الغرفة، وسرعان ما غلفت الدموع عينيك. جدران غرفة خالد مسكونة بصوت نشيجه وبكائه الحزين. تحولت غرفته إلى مكان موحش لا يطاق، كأنما نفت كآبته فيها وأرسلها إلى الجدران والأشياء. سمعت علي يسألك بهمس، بعينين حزينتين:

- هل تعرف ما مشكلته مع زوجة أبيه؟ يقول إنه سيسكيها إلى الشرطة.

- لماذا بكى يا علي؟

- يقول إنه يريد الذهاب إلى الشرطة ولكنه عاجز، لأن أحداً لن يقف معه، ولأنه وحيد ويتيم وضعيف. أظنه اتصل بأحد أقاربه وخذله كثيراً، لذا تراه على ما هو عليه الآن، يا له من مسكين.

مشيت إلى سريرِه بخطوات بطيئة، وحين اقتربت، حاول ضمير رفعه عن حجره، فأمسكته من كتفيه، وجلست قبالته مباشرة، لترفع وجهه إليك، وتثبتته بصعوبة. خاطبته بهمس:

- ألم أقل لك اصبر قليلاً؟

- لا أستطيع.

لم ينطق بكلمة أخرى، ظل ينشج. نظرت إلى ضمير الذي ينظر بشفقة وحزن، وإلى علي الذي يراقب عند الباب بخوف عظيم. طلبت من ضمير أن يتنحى قليلاً، وحين قام، واستويت على السرير، أنت وخالد، وضعت يدك على ظهره المنحني، وارتخت قواك، واستندت على ظهر السرير لا تلوي على شيء.

- علي، أنا أعتني به.

همست مخاطباً علي، مخففاً من قلقه العميق. هز رأسه بهدوء، والتفت ناحية الباب، ليغادر بصمت عجيب. غادر علي وقبله ضمير، وفور رحيلهما، انحنيت جاثماً على خالد الذي كان منحنيّاً يضع جبينه على يده، ووضعت يدك فوق ظهره، واقتربت، جبينك يلامس شعره، وفمك يهمس في أذنه:

- هل قلت لك بأنني لن أذهب معك إلى الشرطة؟

واصلت معاتباً:

- هل قلت لك يوماً بأنني تخليت عن مساعدتك؟ لمّ سوء الظن إذا؟

يبكي، يسعل، يحاول كتم نحيبه الذي يخرج من أقصى حنجرتة، من مكان سحيق، ويعبر ثناياً حلقة مثل فيح بركان. تركته يفرغ براكين صدره وابتعدت عنه قليلاً، ثم استندت مجدداً على ظهر السرير، وانزلت من عينك دمعة، لاسعة، كاوية، مشبعة حزناً وقهراً، وكأنها قطرة من حميم. لم يلبث خالد حتى سكب وجعاً آخر، ومضى يتكلم.

- اتصلت باثنين من أعمامي عصر اليوم.

استدار بجسده إليك، ونظر بعينين محمرتين:

- لدي ثلاثة أعمام يا فيصل، أحدهم في مكة، الثاني في اليمن، والثالث ابتلغته الأرض، لا أدري عن أرضه ولا سمائه. اتصلت اليوم بالذي يسكن في مكة، وهو الوحيد الذي حضر عزاء والدي وقدم لنا بعض المواساة. كل مكالماتي الستة لم تأت بنتيجة، ولم يجب علي واحدة منها. الثالث لا أعرف رقمه، أما الثاني فقد أجاب، وليته لم يجب.

بكي بحرقه أكبر، ليوصل:

- أخبرته بكل شيء يا فيصل، وطلبت منه أن يأتي بأسرع وقت، وإلا انتحرت ووصيت علي أن يلقي جثتي فوق عتبة بيت أبي. أتدري ماذا قال؟ قال بأنه عالق هناك في اليمن، لا يستطيع المجيء أبداً، لا يملك رخصة عمل ولا تأشيرة، ضيع ماله على صفقات خاسرة مع مهربين وكاد أن يسجن عدة مرات، وهو الآن يعيش أياماً متشابهاً، يعيشها على الماء والخبز والقات، والفقر يكاد يقضي على عظامه الهشة. أتمنى أن يوقعه الله في يد الحوثيين، أتمنى أن يُسحل على الأرض ويعذب بالنار والجمر، وأن يلعنوا ثلاثتهم جميعاً، فلا خير فيهم أبداً.

- لا بأس، لا يزال فيصل معك على الأقل.

عانقته بشدة، التحم جسدك بجسده، وغاص بكامله بين ذراعيك، داخل صدرك، ثم التف على نفسه مثل يريقة رطبة. أحسست بشهقاته ساخنة وملتهبة، كان جسده محموماً ومريضاً ورخوياً، مضغه البكاء وامتص روحه وحيويته، واختطف عافيته ولونه فصار جسداً جافاً ووجهاً يستعيد منه الموت ويُحوقل.

تساءلت في داخلك عما يدور في مخيلته في هذه اللحظة، أو قبلها بقليل، حين أنهى اتصاله الأخير مع عمه، أو قبلها بكثير، حين جلس على عتبة بيت أبيه، يبكي. ربما تخيل وجه لمرى، ويد خشنة ثقيلة مفتولة، تجرّها من عباءتها نحو المصير الأسود، في أبشع ما يمكن أن تستغل به الطفولة وتقتل. ربما تخيل طوارق الليل، لصوصه ومجرميه، أشباحه وشروبه، وتذكر أن صغيرته الحزينة.. لم تعد في المنزل. ما الذي يمكن أن يتخيله في هذه اللحظة أيضاً؟

يعيدك صوته الحزين من بحر خواطرك، يطفو بك إلى السطح، وتسمعه يهمس:

- لم يعد هناك أمل يا فيصل.

تمرر يدك لتمسح دمعة من عينك اليسرى، تمررها مجدداً على خد خالد، وعلى عينيه، نزولاً إلى ذقنه. تتحرك على مجرى الدمعة، صعوداً ونزولاً، وتنتهي يدك على ظهره، لترخي رأسك إليه، وتهمس:

- بل هناك آمال. اسمعني، إن كان هذا يعينك، سأتولى كفالتك يوماً ما، بلا رسوم، بلا مقابل.

من أجل ألا يكتئب خالد، من أجل ألا يموت هذا العامل اليمني الحزين، توشك على فعل المستحيل، تتحول إلى صدر يجتذب كل الرؤوس الحزينة الباكية، وتبصق على ذكرى فيصل القديم. مضت دقيقة كاملة، وأبعد خالد رأسه، نظر إليك، نظر طويلاً، ثم قال:

- هذا لا يفيد.

نأى بجسده قليلاً، جلس في الطرف الآخر من سريره متربعاً، دفن يديه في حضنه، غلفه الهدوء، وتاهت نظراته في الفراغ. شيئاً فشيئاً، أغمض عينيه، شهق، وزفر بجملته مُبكية، فتحت جرحاً جديداً:

- يا ليتها ماتت يا فيصل.

شعرت بقلبك يهوي عميقاً، إلى أعرق ما يمكنه أن يهوي. خالد يبكي، والحزن يخنقه، الموت يتمثل أمام عينيه مثل طريق مُظلم، والأفكار السوداء تطبق على عنقه، مثل يدين قاسيتين. يخذلك صوتك الذي لا يخرج، يخونك العقل والذاكرة، وتطير كلماتك التي مكثت شهوراً تكتبها، وتحفظها لأجل هذه اللحظة. بقيت جملة واحدة، لم تكن مواسية ولا حنونة، لم تكن جديدة، لم تكن ذات مغزى. كانت الوحيدة التي خرجت، وكانت شبه مبتورة.

- ما يدريك يا خالد، لعلها تكون.. لعلها تكون بخيراً!

فجأة انتفض خالد، وأصابته رعشة الجنون. نزل من السرير وهو يصرخ، وصار يحوم حول نفسه في الغرفة، مثل عقرب تلدغ نفسها.

- كفاك مواساة يا فيصل! كفاك كذباً.

رفس المدفأة برجله إلى آخر الغرفة، ثم أتبعها بمصيدة البعوض، ثم حقيبته، ثم ترنح نحو الجدار، ليضع يده عليه، ويستند برأسه عليه، ويبكي.

كانت أكتافه ترتعش، وظهره النحيل يهتز من فرط البكاء. حين مضت خمس دقائق، خمس دقائق من البكاء الهستيرى، وقفت بجمود، واقتربت منه، ثم أمسكت كتفيه وحاولت جذبه إليك، وكنت متماسكاً وصلباً أكثر من أي لحظة مضت. خاطبته، وأنت تركز جسده إليك، بصعوبة:

- ستلتقي بأختك عما قريب يا خالد وستعيشان معاً كما كنتما صغاراً وستكون لها الأب والأخ والصديق.

- فلتبق في دار الرعاية إن كانت هناك، لن أستلمها وهي بتلك الحالة.

قال جملته الأخيرة بضعف، ثم سقط على الأرض يبكي. تراجعت إلى الوراء مندهشاً، مفجوعاً، خطوة بعد خطوة، ثم جلست على سريره، وغطيت وجهك براحتيك، وبكيت. يتسلل صياح خالد إلى أذنيك، فتنسكب دموعك أكثر فأكثر، ثم يتناهى إلى أذني خالد أنيباً مكتوماً، لا يعرف مصدره.

هل كان خالد يهذي؟ كيف استطاع أن يقول جملته الأخيرة؟

مضت عشر دقائق، حتى سمعته يلعن نفسه بصوت رخيم، ويضرب فخذه، وينهش جسده. سكن بكاؤه لحظة، ثم رفع رأسه ينظر إلى السقف، ودفن يديه بين فخذه، وصار يناجي، حتى ظننته فقد عقله.

- يا ربي، فرصة واحدة فقط، فرصة واحدة، أرجوك يا ربي.

ناديته وسط صياحه فالتفت، ثم سألته بحزن:

- ماذا ستفعل لو أعطاك الله فرصة أخرى؟

نهض من مكانه واقترب إليك، هداً صوته فجأة، ثم وقف في وجهك، وهمس:

- إن عاد الزمان مرة، فلن أترك يداً تمس لى، قبل أن أكسرها وأحيلها إلى فتات. سأطير بها إلى مكة، إلى بيت عمي، وسأحميها من نسمة الهواء، سأخبئها داخل صدري ولن أغمض عيني عنها أبداً. أرجوك يا فيصل، فلنذهب الآن إلى الشرطة، ساعدني، أريد واحداً من المحامين المتطوعين الذين تعرفهم، أولئك الذين لهم يد في قضايا الإنسانية، وسأدفع مالي كله إن تطلب الأمر، لكن أرجوك، كن معي.

أطرقت رأسك إلى صدرك، وكان آخر ما رآه خالد، نظرة حزين عاجز لا يملك شيئاً، نظرة متخمة باليأس. عاد يترجى، كان أكثر رضوخاً وتوسلاً هذه المرة. أمسك بيدك اليسرى، وجلس بجوارك على السرير، وبنبرة الضعف همس:

- هل الأمر صعب إلى هذه الدرجة؟ أنت تحل كثيراً من القضايا الإنسانية يا فيصل، تمد يد العون إلى الجميع، رجالاً ونساء، وتخوض عدداً من المهام، تسأل، وتبحث، وتزور البيوت، وتكتب، وتناقش المسؤولين. ألا تستطيع أن تأتي معي؟ أريدك أن تكون رفيقاً وشاهداً وعضيداً. أخبرهم بأنك تابعت حالتني كلها واشهد بأنني مظلوم، وقد سلب حقي وطردت من بيت أبي، وفقدت أعز ما أملك.

أمسكته مع كتفيه، وهمست:

- الأمر صعب يا خالد. أرجوك اصبر قليلاً، امنحني فرصة.

سقط خالد بجانبه الأيمن على السرير، وأغمي عليه.

لأول مرة خارج غرفتك المُقفلة، تبكي مثل طفل.

جثمت على جسد خالد تكلمه، تهزه، تنفضه، تصفع وجهه بخفة، ولا يجيب. كان يتنفس، يبكي، يحرك عينيه وحاجبيه، ولكنه لا يفتحهما أبداً، ولا يتكلم. جُننت في هذه اللحظة، وتصورت نفسك قد تحوّلت إلى آلة مجنونة، تحاول أن تجمع فتات الصخر المنثور، لتعيده بُرجاً كما كان. نطقت بصعوبة:

- خالد، دعني أقول لك شيئاً، اسمعني، انظر إليّ أرجوك.

فجأة، انفجرت منك جملة مجنونة، لم تحسب لها حساباً:

- أختك ليست في دار الرعاية، إنها معي، معي يا خالد!

يفتح عينيه، وينظر إليك، ويعود ليغلقهما، وكأنه لا يستوعب ما تقول. تهمس في أذنه بجملة أخرى، لا تقل عن سابقتها جنوناً:

- إنها تعيش في بيتنا منذ ستة أشهر، أنا، أنا الذي وجدتها بنفسني! كانت ضائعة وخائفة، ولكنها بخير!

- ماذا قلت؟

- كما أخبرتك. وجدتها ذات يوم في طريق بعيد، أخذتها معي، وذهبت بها إلى المنزل. منها عرفت كل التفاصيل، قصة ضياعها، وقصة هروبك من المنزل، وذكريات طفولتها، منذ الولادة وحتى أتمت ثلاثة عشر عاماً. هي بخير الآن، تعيش في بيتنا، مع، مع أمي. لم يحدث لها شيء، لقد هربت قبل أن، قبل أن ...

يخفت صوتك تدريجياً، تبتتر جملتك الأخيرة، ويغمى على خالد.

(6)

السبت، 7 شعبان 1437هـ

في الثامنة صباحاً، كانت يد خالد تستقر فوق يدك بسكون، يتصل بها أنبوب المغذي، وبعض الأشرطة اللاصقة. كنت تجلس أمامه بثبات، عيناك متورمتان، والحزن يخيم على الغرفة البيضاء، ويهبط على قلبك. تستأنف ما كنت تحدث به خالد منذ جئت إلى المستشفى، وخالد على شروده، ينظر وكأنه لا ينظر.

- وأخيراً، لا يوجد أحد في هذا العالم لا يدفع ثمن خطئه يا خالد، ولو كانت أخطاءً قد ارتكبتها في طفولته أو في لحظة جهل. الدنيا لا تغفر أبداً، لم تكن يوماً مُنصفاً ولا رحيمة، وستذكرك دائماً أن عليك ديناً ستدفعه من صحتك، من مالك، من عقلك، أو من كرامتك عاجلاً غير آجل. الآن، تولد أمام عينيك نهاية مختلفة يا خالد، ويُنْبض أمامك أمل خلق من العدم، وتمنحك الدنيا فرصة جديدة وكأنها تكسر قانونها الأشهر "لا أحد يمضي بلا ثمن". أنت محظوظ إلى حد لا يصدق يا خالد. أرجو، أرجو لا تعتبر رعايتنا للمي ثمناً يمس كرامتك.

قلت جملتك الأخيرة في أذنه، بلهجة هامسة مُتأسفة. لم يعلق بكلمة واحدة، وظلت عيناه تسبحان في الفراغ تارة، وتنكسران في حضنه تارة أخرى.

شعرت بغصة البكاء ترتفع مجدداً، ومضيت تلوم نفسك على هذا الاعتراف الذي جاء بلا تمهيد، وكسر قلب خالد. منذ أول الصباح، وأنت تُرتل عليه الكلمات الموسمية المُتخمة بالحنو، وتقرأ على أذنيه الأدعية وتمسح على شعره. تحدثت معه بكل التفاصيل، كيف التقطت لمي ذات نهار في إحدى طرقات الأشباح، وكيف استمعت إلى حكايتها الحزينة، وتعاطفت مع ضعفها، وأخذتها إلى المنزل. أخبرته أنها عاشت في كنف والدتك، تأكل وتنام معها مثل ابنتها الصغرى، وكانت هذه كذبة بيضاء.

أخبرته أيضاً أن قضيته هي قضيتك الأولى بالأساس، وأنه حين خرج الناشط الاجتماعي تلك الليلة مُدعياً أنه سيكتب مقالاً ويرحل، كان هدفه الأوحى أن يصبح صديقاً مُقرباً، أن يفهم شخصية صديقه الغامض حتى يغيرها ويبدل طريقة تفكيره نحو الأحسن. لكن الظروف التي كانت ضده أخرجت الأمر كثيراً، ولم يكن ليعترف، قبل أن يضمن إحدى الأمرين، أن صديقه لن يكرر ترك أخته وحدها مع زوجة أبيها مجدداً، أو يستأجر شقة جديدة، ليُسكن أخته فيها.

لكن، ما سبب تردد الناشط الاجتماعي في الاعتراف، حتى بعد بكاء صديقه واعترافه؟ الله وحده أعلم. ما قصة دار الرعاية التي تحدث عنها كثيراً؟ الله وحده أدري. كانت هناك أشياء كثيرة متناقضة، لأن الخطة أساساً، لم تبَنَّ على هذا النحو.

بقي شيء واحد فقط، بقي أن ينفجر خالد في وجهك ويصفعك بجنون، ويلومك على تدخلك في أموره العائلية الخاصة. بقي أن تتنفض رجولته لفكرة أن يقوم رجل آخر برعاية أهله بلا إذن ويكتفم عنه الأمر لأنه لا يراه كفتناً ولا جديراً بالرعاية، ثم يصب جام غضبه عليك. إلا أن هذا كله لم يحدث، لم يصرخ خالد، لم تثر ثأرته، لم يتكلم، ولم يبك حتى. منذ استيقظ، وهو يسمعك فقط، وينظر بنظرات لا تدري ماذا تسميها، نظرات تعجز المحللين. شيء ما أخرس لسانه، لقد مات شيء فيه.

ورغم سكوته الطويل، رغم وجهه المسود وعينييه الذابلتين وشفثيه الجافتين، ورغم نظراته التي لا تدري ما يختبئ في كنهها، حاولت تهوين بعض الأمور التي كانت قاسية عليه، ومكثت نصف ساعة تشرح له أن النشاط الاجتماعي هم آباء الجميع، هم الصدور التي تلجأ إليها الرؤوس المتعبة الحزينة، وهدفهم الأسمى هو مساعدة الناس بلا منة ولا إذلال. شرحت له أن تغيير الإنسان لنظرته تجاه الحياة وتنازله عن بعض قناعاته يكفل له راحة وطمأنينة، لا ضير أن يشكو الإنسان ويطلب المساعدة من أحد، فالحياة يُنحى لها، والرؤوس اليابسة إما لها أن تلين، أو يحطمها الزمن.

انخفضت نظرات خالد إلى حضنه، وحده الله يعلم إلى أين نفذت كلماتك فيه، وإلى أين وصل عمق تأثيرها. اقتربت إليه تعانقه، وهمست في أذنه بأن أخته بخير، وبأن الله يمنحه فرصة، لأنه جديرٌ بها. وحين اندلق جسده على جسدك، بخفة وسهولة، شعرت أنه صار زاوياً مُتعباً بلا روح، واستسلمت لحقيقة موجعة.

- اليوم، يا خالد، سأتيك عصراً. سنبحث معاً عن شقة لك، وحين تستأجرها سأخذك معي إلى بيت أمي، لتقابل أختك وتأخذها.

لم تسمع منه جواباً فأعدت جملتك، وحينها، أشار برأسه إشارة صغيرة، ضعيفة، تدل على موافقته.

أوليته ظهره ورحت تبكي. اليوم، صار خالد طفلاً، في أكثر لحظة تمنيته فيها أن يكون رجلاً، ليفكر بعقلانية، ويتصرف باتزان. خرجت من الغرفة ونظرت إلى علي الذي يقف قريباً من الباب، قريباً من الروح. همست له:

- علي، اعتنِ به.

أوماً برأسه بهدوء، فغادرت المستشفى مقفراً القلب والروح. وصلت إلى الشقة سريعاً، وفي الغرفة، اتصلت بوالدتك، وتنهدت، ما إن سمعت صوتها الحنون.

- أمي، يجب أن نتكلم معاً.

في الثالثة عصراً من اليوم نفسه، كانت لى تقف قريباً من الباب، شعرها ممشط، وجهها مضيء، عيناها متوهجتان، والبسمة تعلو شفثيها. كانت في موعد مع السعادة، منذ الصباح، وهي تستقبلك بابتسامة طفولية رقيقة كلما نظرات إليها، ابتسامة تضيء مثل البدر، وتشرق في جوفك. دنوت منها بهدوء، ثم انحنيت، وتعلقت عيناك بعينيها في نظرة مُودع مُتألم. أمسكتها من كتفيها، وهمست:

- ستقابلين خالداً عما قريب، وستختفين عن عيني إلى الأبد.

سحبت نفساً عميقاً، وواصلت:

- صحيحٌ أنني لن أراك مجدداً، ولكنني على الأقل، على الأقل، سأطمئن أنك بخير.

قلتها بصعوبة، فحتى الأخيرة لم تعد مضمونة بما يكفي.

- على أية حال، أريدك يا لى أن تكتمي الأمر، وكأنك لم تأتي يوماً إلى هنا، اتفقنا؟

ورغم أنها هزت رأسها بتفهم، ارتأيت أن تعيد وصيتك مؤكداً:

- أنتِ ذكية يا لى، وأنا أثق بقدرتك على كتم الأسرار وإخفائها أكثر من أي شخص أعرفه. ستريين والدتي بعد قليل كما أخبرتك، أخبري خالداً أنك عشت معها طوال هذه الفترة، تأكلين وتشربين وتنامين، وتنعمين بدفءٍ وهدوء. لا شقة ولا فندق يا لى، فلتنسي كل ما حدث بيننا، اتفقنا؟

هزت رأسها مجدداً، وفي تلك لحظة، تمنيت منها عناقاً يبيل جفاف روحك، ولكن الأمنيات قصية، عصية على الروح. أمسكت بيدها الصغيرة الضئيلة، وغادرتما معاً في آخر لحظة قبل الفراق.

قابلت علي مجدداً في ممر المستشفى، يقول إن خالداً بكى مرتين، مرةً وهو يهذي، ومرةً وهو متخشب مثل تمثال. تركته واقفاً في الممر الأبيض ودخلت على خالد، كان متخشباً

كما قال، والمرضة واقفة بجانبه، تنزع من يده أنبوب المغذي.

- خالد، كيف حالك؟

رفع رأسه وابتلع ريقه، كانت تجاويف عينيه مقطعتان من الليل.

- بخير.

نزل من السرير، ولم ينظر في عينيك أبداً. تساءلت بدهشة، كيف لم يسأل حتى الآن عن أخته؟ كلما تأملت سكوته وتخاذه، والمساحة الفاصلة بين كيف كان وكيف صار، تذكرت استراتيجيات التأثير النفسي على المراهقين، حيل الإقناع وأساليبه المباشرة والخفية، والرجل الذي جاء مُحملاً بكل هذه الأسلحة، ثم عاد، في النهاية، بخفي حُنين. لم تكن الدنيا مُنصفة يا فيصل ولن تكون أبداً، ومثلما اختارت أن يستحيل خالد طفلاً في الوقت الذي احتجته فيه رجلاً، ستحتفظ دائماً بحقها في اختيار النهايات، فيما لا يتواءم عادةً مع البدايات. سحبت نفساً عميقاً، ثم خاطبته بهدوء:

- هيا يا خالد، سأساعدك في البحث عن شقة، لا تقلق سنجد واحدة بسهولة إن شاء الله.

- لا، لن أجلس هنا.

تفاجأت، سألته بعينيك، فواصل مُفسراً:

- سأخذ أختي وأذهب إلى مكة، وسنسكن مع عمي. أعرف عنوان بيته، من الآن وصاعداً عليه أن يتحمل مسؤولية أبناء أخيه، شاء أم أبي.

- ستسافر يا خالد؟

سألته بلهجة حزينة، فأوماً، ولم يُضف شيئاً آخر. نظرت إلى حقيبته السوداء أسفل السرير والتي بالكاد انتبهت إليها، فعرفت أنه استجمع أغراضه البسيطة قبل الرحيل.

- هل يدري علي بالقصة؟

سألته فنظر إليك نظرة لم تفهمها أبداً، ثم حمل حقيبته، وتهيأ للخروج. في سيارتك، جلس في المقعد الأمامي صامتاً، وشعرت أن مزاجه لا يتسع لكلمة، ولا حتى لعناق وداع. أخذته إلى فيلا والدتك حيث تنتظره لى، وفي منتصف الطريق، اكتشفت، أن سيارة علي تلحق بكما. أوقفت سيارتك أمام الفيلا، اتصلت بوالدتك على عجل، ومضت الثواني ببطء، كأنها تدوس على قلبك.

حينها، خرجتِ الخادمة مُمسكة بيد لى، لتقف معها على عتبة الباب. انهمرت دموعك مثل شلال حمضي يحرق وجه الأرض وجوفها، ونزل خالد يركض مثل مجنون، ليعانق لى، ويبكي على كتفها.

أمسك بيدها البيضاء الصغيرة، وطار بها مع علي، طار بها إلى مكة ..

(تمت بحمد الله).

غيداء صالح الغميز

فبراير 2016 - يناير 2018

1. [Cover](#)
2. [cover1.html](#)
3. [حكاية الأب الحزين](#)
4. [حكاية الأب الحزين](#)
5. [الفصل الأول:](#)
6. [فتحت عينيها، كأنها تفاجأت بهذا الطلب. ثم هزت رأسها واعتدلت في جلوسها، وراحت عيناها تسبح في الفراغ بحزن. بدأت تصف ملامحه، بنبرة يملؤها الشوق والحنين. أسمر، نحيل الجسد، صغير الملامح، ذو شعر أسود، ويرس](#)
7. [الفصل الثاني:](#)
8. [في هذه اللحظة، وفي كل لحظة تقرر فيها أن تتكلم مع خالد، تعتريك سكينه مفاجئة، وتتشبع نبرتك حنواً ويبدأ صوتك بالارتخاء شيئاً فشيئاً. اليوم، أصبحت هذه الأفعال تحدث بتلقائية، بالأمس كانت تكلفاً اليوم أصس](#)
9. [الفصل الثالث:](#)
10. [الغلاف حكاية الأب الحزين حكاية الأب الحزين الفصل الأول:*** الفصل الثاني:](#)
[*** الفصل الثالث:](#)

